رواية

النبَّاش

فلتبدأ اللعنة



عَمْرُو الْبَدَّالِيّ


النباش

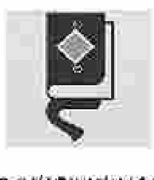
الطبعة الأولى

١٤٣٩ هـ-٢٠١٨م

اسم الكتاب	: النباش
اسم المؤلف	: عمرو البدالي
تصميم الغلاف	: محمد ضوه
التدقيق اللغوي	: خالد رجب
رقم الإيداع	: ٢٠١٨/١٠٤٤١
الترقيم الدولي	: ٩ - ٧٨٩ - ٧٧٧ - ٨٦١ - ٤٥٦

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠ - مدينة نصر - القاهرة ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com





النباش

فلتبدأ اللعنة

رواية

عمرو البدالي

«واقِفٌ أنا على تِلالِ الخديعة.. ضبابٌ على مدى البصر.. تائهٌ وسط حروب ضاريةٍ لا تتوقف.. باحثٌ عن ملاذٍ بعيدٍ يتلاشى.. سرابٌ كاذبٌ يُجرجرُني.. صارخٌ بكل ما أُوتيتُ من قوة وسط كلماتي وأحداثي.. مَن يملك مِفتاح الحقيقة فليتقدَّم.. قد أوشك عقلي على الهذيان.. صارخ أنا: أيها الناس.. مُسخت الحقائق.. طُمس التاريخ.. تاريخ يكتبه المنتصرون.. يرويه الكذابون الأفاكون.. بين هذه السطور قصةٌ لها عِبرةٌ.. سيأتي قومٌ بعد زمانٍ ليس ببعيد.. سيبحثون عن ذكرانا سُدًى.. أكنا على الحقِّ أم الباطل؟ أكان هناك قومٌ مسلمون؟ وكهلٌ يحكي عنا.. سمعت جدي يقول: لا إله إلا الله.. أفلا تفقهون؟ سيصمموننا بالأشرار القتلة.. ستشبهنا كتبهم بالمستذئبين.. ومن قضوا علينا بحملة لواء الحق.. سيبتعدون.. حتى قبورنا سيهجرون.. أيها الناس.. لن يبقى منا سوى بعض الجثث المُتحللة تحت الثرى.. أشلاء مُتعفِّنة.. وسيرةٌ نتنة.. ياليتكم تفهمون.. أسئلة تُحيِّرُني.

إلى متى سنظلُّ صامتين؟

كيف لقديسٍ أن يحيا بدُنيا العُهر مذهبها؟

أحقًّا سيعود المسيح؟

أفيقوا.. سنُهزمُ.

د. عمرو البدالي

«الموت لم يكن قط نهاية.. ولو عاد أحد الأموات للحياة

لأخبرنا أنها مجرد البداية.. بداية اللعنة».

يحيى عبد النور بركات

النبشة الأولى: غراب أبقع

(الثامن من يناير ٢٠١٨ – الساعة الخامسة عصرًا)

دنتِ الشمسُ من المغيب، بنهارٍ مُوشكٍ على الرحيل كسالفيه، فمنذ بدء الخليقة والشمس واحدة لا تتغير.. شمس شاهدة على ملايين البشر.. مرعب ذلك الإحساس.. تلك الشمس وأشعتها القوية النافذة تراك أسفلها أنت وغيرك، تُراقِبُك، تُحصي أنفاسك.. ومهما تُحاول الفرار بعيدًا عنها فلن تستطيع.. حتى القبور يتسرب إليها بصيصٌ من أشعتِها ولو واهنًا.. هل حاولت ذلك من قبل؟ الهروب من الشمس.. مُحال.. ستطاردك بنورِها أينما كنت.. ولو وضعتَ ألف ستار يمنعها ستخترقه.. وحتى إن ظفرتَ بانتصارٍ زائفٍ بالاختباء ستصلُ إليك حرارتُها.. ستلامِسُ جسدَك رغمًا عنك.. ستُحاصرُه.. الشمس بريق يخطفُ الأبصار.. لن تقوى على النظر إليها ولو لحظةً وكأنها إلهٌ شامخ.. أتفهَّمُ جيدًا أولئك الذين سجدوا لها وعبدوها قديمًا.. ألتمسُ لهم العُذر.. بكل زمانٍ يتحير الإنسان باحثًا عن الحقيقة، مُعتقدًا أنه يقترب، وقد ينتصر بمعرفتها، ولكنه واهِمٌ.. ويأتي مَنْ بعده ليثبت أنه كان على باطلٍ، ليبدأ بدورِه بتلك اللعبة اللامنتهية.. لعبة الحقيقة المطلقة.. حقيقة الله.

رمقتُ الشمسَ وهي تتوارى خلفَ تلك السُّحب الرُّكامية المُنذرة بأمطار دانية.. وعلى الرغم من قُرب اختفائها فإن أشعتها المُتسللة خلف سحاب يُحاصرها أربكت عينيَّ، وأصابتهما بالوهن المؤقت، وكأن غشاءً أبيض رقيقًا يكسوهما.. تشوُّش يزول رُويدًا رُويدًا.. رجفاتٌ طفيفة تتسرَّبُ إليَّ بتلك اللحظات.. هواءٌ بارد يُحاصرُني وينتظر اللحظة المناسبة لافتراسي.. لحظة غياب الشمس كُليًّا.. التفتُّ حولي مُتسائلًا:

أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟

لا أتذكَّرُ أيَّ شيءٍ.. زحامٌ شديدٌ حولي.. أناسٌ صامتون.. وكأن على رؤوسهم الطير.. تفحصتُ ملامحهم.. وجوههم مُخيفة.. عيون جاحظة شاخصة، يتحركون باتجاهٍ واحد.. ذهاب بلا عودة.. أعدادٌ غفيرة لا حصر لها على مدى البصر.. يتصبَّب العَرَقُ من أجسادهم بغزارةٍ.. رائحتهم الممتزجة تملأُ أنفي.. ملابسهم مُبتلة.. حُفاة ينشع الدم من أقدامهم المتشققة.. وكنتُ مثلهم.. حافي القدمين متألمًا.. فالرمال تحتنا تمتلئ بحصًى صغيرة كالسكاكين.. يبدو أنهم اعتادوا ذلك.. نظرتُ إليهم مُتعجبًا.. أناسٌ هَرِعُون، يقفز الذعر من عيونهم كهاربٍ من جحيم لا يُحتمل.. أحاولُ تذكُّر أيَّ شيءٍ فلا أستطيع.. شُلت ذاكرتي تمامًا.. أهذا يوم القيامة أم أنه مجرد كابوس مزعج؟ أتحرَّكُ معهم دون إرادتي.. موسيقا راقصة تصمُّ أذنيَّ.. مُمتزجة

بتواشيح دينية.. وكأنه احتفال شعبي بمولد آل البيت.. ولكنني لا أرى أيَّ مسجدٍ عن قُرب.. ما هذا المكان العجيب الغارقة ملامحه بفيضان زِحامهم الشديد؟ يبدو أنها منطقةٌ صحراوية.. أدركتُ ذلك من جبلٍ شاهقٍ تختفي الشمسُ وراءه بتلك اللحظة.. وأرض رملية.. منطقة شاسعة الاتساع.. أُناسٌ على مدى البصر.. يدفعونني للأمام بإصرار شديد.. والعجيب أن هناك مسارح عُلوية نمُرُّ أسفلها عرضُها لا يتعدى الخمسة أمتار، ومُتكررة إلى ما لا نهاية، بينها مسافاتٌ عشوائيةٌ غير مُتساوية.. والأعجبُ أن كُلَّ مَنْ عليها نساءٌ عارياتٌ تمامًا.. يرقصن على أنغام الموسيقا.. أجسادٌ تتلألأ بآخر لحظات لغروب الشمس.. أراهنَّ دون أن يُحركن بي أي شهوة.. فهناك رهبةٌ شديدة تختلجُ لها حواسِّي.. قلبي شاخصٌ كعيونهم.. كتلك الوجوه المُحاصِرة لي.. لافتة عجيبة تقترب.. مكتوبٌ عليها: "المُتَّجِهُ إلى لموت يلزم اليسار".. ارتعش قلبي نافضًا كُلَّ دمائه بجسدي، صارخًا بأنه ما زال على قيد الحياة.. البردُ يُحاصِرُني وتزدادُ رجفاتي.. صرختُ بأحدهم:

أين نحن؟ من أنتم؟

يا رجل.. ألا تسمعني؟

نَظَرَ إليَّ مُتذمرًا، ثم التفتَ للإمام مرةً أخرى وكأنه بمهمةٍ مُحددة يخاف فِقدانها.. تبًّا لهم! إنهم يتحركون باتجاه اللافتة نفسه.. ونظراتُهم تلك تُشبهُ

النظرة الأخيرة على وجوه الموتى بلحظتهم الأخيرة بالدنيا.. إنهم يجذبونني معهم للموت بسرعةٍ كبيرة.. قدماي لا تقويان على الصمود ضدهم ولو لحظةً.. كُلُّ شيءٍ هنا يجري ضد إرادتي.. صرختُ بهم:

- اتركوني.. أنا لم أمُتْ بعد.. لا أريدُ الموتَ.. اتركوني.

حاولتُ المقاومةَ، والسيرَ عكس اتجاههم.. جميعهم من الرجال.. رجالٌ هَرِعون للموت ذُعرًا ونساء عارياتٌ راقصات.. وكأنهنَّ الدنيا، نمُرُّ أسفلها ويموت أغلبنا دون أن يذوق عُذوبتها.. قوةُ دَفْعٍ مُرعبة.. لا مَفرَّ.. إنهم يحملونني لمصيرٍ حتميٍّ.. تُحلِّقُ فوقنا غربانٌ مخيفة تنظر ناحيتنا وكأنها تترقب عشاءها الثمين تلك الليلة من أجسادِنا.. لافتةٌ أخرى نمُرُّ عليها.. «إبليس يرحب بكم».. صرختُ بأعلى صوتي مِرارًا وتكرارًا:

-لا أريدُ الموتَ .اتركوني.. مَن أنتم؟

أما مِن مُجيبٍ؟

ما هذا المكان اللعين؟ لا أُريدُ الموت.. لا أريدُ.

وكيف لشابٍّ مثلي لم يُكمل عامه الخامس والعشرين أن يموت.. أعلمُ أن الموت يأتي بغتةً.. وأُدرِكُ أنه لا يُفرِّقُ بين شابٍّ وشيخ.. ولكنني لم أعِشْ بعد.. كيف أموت وأنا لم أنعم بتلك الدنيا؟! كنتُ أبحث عنها منذ ولادتي

ولم أعثر لها على أثر.. الحياة الدنيا.. تلك الحياة التي نمُرُّ الآن أسفلها.. رأيتُها بعيون الأثرياء، وأولئك المُنادِين بحقوق الإنسان.. تساءلتُ كثيرًا: لماذا لم ألَمْحها إلا بعيونهم.. بحياتهم.. بملايينهم؟ أُخلقتُ أنا ومَن مثلي لنموت؟ ونراهم يملؤون الدنيا نحيبًا ودعاء لنا.. أكلُّنا بشرٌ؟ أم نحن كائناتٌ أخرى نُشبِهُهم وندعي عليهم حقوقًا ليست لنا.. فالفرق بيننا وبينهم كالفرق بين النوم والموت.. كلانا له نفسُ الشكل، ولكن شتان بين الأمرين.. هكذا نحن بهذه الدنيا، نبحثُ عن حياةٍ يملكها الأثرياء طوال عُمرنا، ونكتشفُ أننا ما كنا نُهرعُ إلا وراء سرابٍ خادعٍ.. آه لهذه الحياة! أراها بأحضان تلك النساء البضَّة النَّضِرات اللاتي نُهرولُ أسفلهنَّ.. هذه الحياةُ إن عشتُها ولو يومًا واحدًا سأموت بعدها هاهنا على تلك الأرض الغريبة البعيدة، ويأكلُني ذلك الطير المحلق فوقنا، وتُمطر السماء على بقايا جثتي .. سأحتضِنُ الموتَ راضيًا حينها، فقد حييتُ يومًا وتذوقتُ حلاوة الدنيا.. حلمٌ محال، فمثلي يموتُ منذ ولادته.. يعيش كالأموات، ومهما يحاول فلن يستطيع، وإن سار بدروب الشيطان جميعها فلن يسمع إلا نعيقَ تلك الغربان تُناديه:

- أيها الشقي البائس.. نشتاقُ إلى جيفتك، فهلُمَّ بالنهاية.. نشتاقُ إليك فاقترِبْ.

غرابٌ خبيث يدنو.. ينظر إليَّ بعينين تعرفان فريستها.. أراه يرفع منقاره عاليًا ليثقب رأسي.. صرختُ عاليًا:

- لااااااااااا، ابتعد أيها الأخرق.. لم تَحِنْ وجبتُك بعد.

أغيثووووووني.

سقطتُ تحت أقدامهم.. عظامي تتكسَّر.. أرجلهم تدهسني كمعاول تتابَعُ على جسدي لا تتوقف..

- أنا لم أمتْ بعد.. آآآآآآآآآآآآآآه

بتلك اللحظة رأيتُ ذلك الغراب يَقِفُ بالقرب مني ثابتًا على الأرض، وكأن أقدامهم تقفز من فوقه.. اقتربَ مني ناظرًا ناحيتي بثقة المُفترِس لغنيمةٍ حتميةٍ.

- ابتعدْ.. لم أمتْ بعد.. أغيثوني.

وَقَفَ أعلى صدري مُختالًا .. تلاقتْ أعيننا لحظاتٍ توقف فيها الزمن.. استمعتُ لضربات قلبي وكأنه يصرخ عاليًا لعلَّ هناك مَنْ يسمعه ليفكَّ وثاقه من بين ضلوعي.. سجين مدى الحياة.. لو مُنحت القلوب حق الاختيار لصرنا جميعًا جثثًا مهجورة قلوبها.. لصرنا أشباحا.. شُلت حركتي تمامًا، وبلحظةٍ أصبحت قدماي ويداي خارج سيطرتي.. رفع منقارَه عاليًا ودبَّه بإحدى عينيَّ.

-آآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآآه.

ألمٌ لا يُوصف، وأنت وجبةٌ دسمة لغرابٍ أبقع.. منقاره الحاد يتوغَّل بتجويف عيني بمهارة شديدة.. .التقم عيني اليمنى وطار بعيدًا.. صرختُ.. بكيتُ كما لم أبكِ طوالَ حياتي.. بكيتُ بعين واحدة.. الدماء تتدفق على وجهي.. صوتٌ ما يتسرب لأذنيَّ.. يتعالى رُويدًا رويدًا، ويتغلب على صوت الموسيقا الراقصة:

- تكبير.

- الله أكبر:

- تكبير:

- الله أكبر.

- تكبير:

- الله أكبر.

صوتٌ قويٌّ يعلو على أصواتهم فجأة.. وكأنه صوت انفجار يصمُّ أذنيَّ..

- يا ويلتي.. يا ويلتي.

فجأةً عَمَّ الضبابُ المكان بأكمله.. اختفت الأقدام من فوقي.. لحظات عصيبة ترقَّبت فيها خروج روحي.. ارتعد قلبي مُنتظرًا مَلَكَ الموت.. مُرتجفًا والبرد يزداد.. أرتجفُ بشدةٍ مُتسائلًا:

- أما زلتُ على قيد الحياة؟

وقفتُ على قدميَّ بصعوبةٍ.. آلامٌ تُصارِعُني أحاولُ التغلُّبَ عليها.. صرختُ عاليًا:

- أين أنا؟ ما الذي يحدث؟ ألا من مجيب؟

مددتُ يدي لأتلمَّس عيني المفقودة.. زال الضباب رويدًا رويدًا، وما زالت أصوات هؤلاء الرجال مستمرةً دون توقُّف.

- تكبير:

- الله أكبر.

جُثثٌ لا حصر لها حولي.. واختفت النساء العاريات، وكذلك الموسيقا الراقصة.. مسارح خاوية حتى من جثثهن.. وكأنهن خُطفن.. صمت مريع لا يخترقه سوى تكبيرهم البعيد.. شيء ما عالق بكتفي.. تحسَّسته وأمسكتُ به.. تبًّا لذلك! إنها أمعاء شخص ما.. كنتُ بمنتصف بركة من الجيف.. رائحة لا تُطاق.. وغربان تنقضُّ عليهم مُحتفلةً بوجبةٍ دسمة.. أرى غُرابًا قريبًا يلتهم

بمنقاره بَطْنَ أحدهم بسعادةٍ كطفلٍ جائعٍ يلتقُم نَهْدَ أمه الغائبة منذ فترة.. ترجلتُ فوق جثثهم مُهرولًا خائفًا.. ما رأيتُه لا يحتمله بَشَرٌ.. وكأنها إبادةٌ جماعية لقارةٍ بأكملها على مدى النظر.. ولكن مِن أين يأتي ذلك الصوت؟ لا أرى أحدًا حولي.. سوى الجبل الشاهق، وتلك الجُثث وغربانها.. كنت بمفردي كناجٍ وحيدٍ من حربٍ مع مجهول.. ناجٍ أعور العين، كسير العظام، ولكنه ما زال على قيد الحياة.. هكذا يقولون.. بصرف النظر أنني لا أجدُ تلك الحياة التي يزعمون أنني ما زلتُ على قيدها طوال ٢٥ عامًا.. هُتافاتُهم تتزايدُ وظلام الليل يطغى.. ليل بلا قمر.. لافتة أخرى أراها بصعوبةٍ:

«المُتَّجِهُ إلى الموت يلزمُ اليمين».

أهذا كابوسٌ سأنجو منه بأي لحظةٍ؟ أم أنه حقيقة لن أفهمَها إلا بعد فواتِ الأوان.. بعدما أصيرُ وجبةً دسمةً تتصارَع عليها تلك الغِربانَ الشرسة.. ضوء ما بعيدٌ ألمحُه أسفل الجبل.. أحياةٌ هناك؟ مؤكد أن أصحاب تلك الصيحات على قيدِ الحياة.. ربما يساعدونني وأنجو من ذلك المجهول الذي لا أتذكَّرُ كيف بدأ، ولكن على الأقل صيحاتهم أنقذتني من هؤلاء الشاخصين الأعين.. هرولتُ تجاه الجبل، وقدماي تغوصان ببركةٍ من الدماء المُختلطة.. وامتزجت رائحة عرقهم بدمائهم.. ضوء واحد تحت الجبل يشقُّ ذلك الظلام المنتشر.. برد يزداد ورائحة عفنة تحاوطني.. كتمتُ أنفاسي

قدر المستطاع حتى أصِلَ لهناك.. هرولتُ وهرولتُ مخترقًا وجبات لا نهائية للغربان.. هأنا أقترب.. وصوتٌ جديدٌ يدنو. شبيهٌ بجرسٍ يعلن عن بدء مزادٍ علنيٍّ.. نظرتُ أسفل الجبل.. ما زال صوتُ التكبير الخفي مستمرًّا.

- تكبير:

- الله أكبر.

راياتُ سُود بكلِّ مكانٍ كُتِبَ عليها: «لا إله الا الله».. هالني ما رأيتُ.. نساء على قيد الحياة بحفرةٍ كبيرةٍ أسفل الجبل يبكين.. إنهنَّ النساء العاريات المتراقصات أنفسهنَّ فوق تلك المسارح.. أولئك هم الخاطفون؟ رجال أعلى الحفرة يقومون بإهالة التراب عليهنَّ ويدفنونهن حياتٍ.

برقت عيني المتبقية هامسًا:

- ماذا تفعلون أيها الحمقى؟

باغتتني عيني بشيء آخر أشد قسوةً.. أطفال على جانبٍ آخر فوق بعض اللُّعب البدائية التي توجد بالملاهي الشعبية.. أطفال مذبوحون عن بكرة أبيهم، واللُّعب يحرسها رجال آخرون.. جميعهم مبرقو العينين كسابقيهم.. وذقونهم الكبيرة تقترب لبطونهم المنتفخة .. دماءٌ تتساقط من رقاب هؤلاء الأطفال لترتوي بها ذقونهم القذرة؛ لتعلن أنه لا مستقبلَ بهذا المكان.. الذبح

للأطفال.. والوأد للنساء.. ذاك هو شعارهم.. رائحة الموت تُحاصرُني.. رياحٌ شديدةٌ بالمكان.. أعلامُهم ترفرف عاليًا.. وصوت التكبير مستمرٌّ.. أحد الرجال ينادي مُمسكًا ذلك الجرس:

- هلموا يا رجال.. هلموا.

كان الرجال قد انتهوا من وأد النساء.. اقتربَ ناحيته الجميع.. ترجلتُ ناحيتهم بحذرٍ شديد.. لا مَفرَّ مِن طلب مساعدتِهم.. على الأقل أنا لست بامرأةٍ أو طفلٍ.. فلن أستحقَّ عقابهم ذلك.. تبًّا لتلك الليلة التي لا أفهمُ أيَّ شيء مما يدور بها! ولكن فلأنجُ بنفسي أولًا.. ذلك هو الأهم.. كان بجواره فتاة عارية تمامًا.. بديعة الجسد.. نهداها ينبضان بالحياة.. وعيناها ملاذ من الدنيا وما فيها.. تعجبت كثيرًا لنفسي.. أأشعر بشهوة جامحة وأنا بهذه الحال؟ أشار ناحيتها.

- هلموا يا رجال.. فتاة جميلة.. بيضاء.

ممشوقة القوام.. عيناها زرقاوان.

ماهرة في كل شيء.. عذراء.

هلموا يا رجال.. إنها عذررررررراء.. ليست كهؤلاء الموؤدات.

فلنبدأ المزاد.

تصارَعَ حينها الرجالُ بأموالهم لشرائها:

- خمسة آلاف

- ستة آلاف.

- عشرة آلاف.

كنتُ أتلذذ بالنظر إليها وإلى جسدها، وكأن آلامي تبتعد كلما ذابت عيني بثنياتها.. ما أجمل قدميها! غمازتا خديها تُنبئان عن ابتسامةٍ تسلبُ العقول.. .نهداها نجمتان خاطفتان.. بينهما صليب يتدلى من رقبتها.. يضوي كقمر ليلة تمامِه.. شفتاها سمط قرمزي.. عيناها كبحر تتمنى الغرق فيهما مستسلمًا لدواماتها.. يا لها من جنة تسلب العقولَ! جنة انتظرتُها كثيرًا.

سألتُ رجلًا بجواري:

- أين نحن؟

- صه.

نظر ناحيتي متعجبًا مُتفرِّسا فيَّ.. همسَ بأُذن مَن بجواره:

- انظر.

وما إن رَمَقَني هُرع ناحية ذلك الرجل الممسك بالجرس وهمس بأذنيه.. قليل من الصمت والترقُّب.. أشار ناحيتي:

-أنتَ.. تعالَ.

صمتَ الجميعُ، وترجَّلتُ ناحيته.. وقفتُ أمامه وسط نظرات تفترسني مُحاولًا الهروب من سكرات جمالها الأخَّاذ.

سألني:

- كيف جئتَ إلى هنا؟

انتابَتني نوبةٌ من الضحك الهيستيري.. حاولتُ التغلب عليها:

- عُذرًا.. سؤالك أضحكني بشدة.

- وما يُضحكك أيها الأعور؟

- كنتُ سأسألُك السؤال نفسه.

نظر بعضُهم إلى بعضٍ متعجبين.. كنتُ أنا الوحيد حليق الذقن بينهم.. من السهل عليك أن تُميِّزني بين جموعهم الحاشدة تحت سفح الجبل..

- ما اسمُك؟

- يحيى.. اسمي يحيى عبد النور بركات.

انتابَتهُ حينها نوبةٌ أخرى من الضحك، ولكن هذه المرة تشارك كل الرجال بها، فعَلَتْ ضحكاتُهم على ذلك الصوت المستمر بالتكبير.. قطع ضحكاتهم مُستهزئًا بي:

- يحيى.. يحيى هنا بوادي الموت؟!

- وادي الموت؟

- ألم تقرأ اللافتات؟!

- أتعني أنني متُّ؟

- لا.

اقتربَ مني هامسًا لي.. كنتُ أشتمُّ رائحة أنفاسه الكريهة.

- ستموتُ.. أنصحُك أن تُغيِّر اسمك لـ «يموت» عبد النور بركات.

عاود الضحكات مرة أخرى هو ورجاله.. نظرتُ لوجوهِهم البالية.. صرختُ به.

- كفوا عن الضحك. لا أفهم أي شيء يدور هنا.

- ولن تفهم.

- إن كنتَ ما زلتَ على قيد الحياة.. فما الذي أتى بي إلى هنا؟

- هنا.. وادي الحقِّ.. وادينا.. الموت حقيقة ثابتة بدنيانا.

تختلف الأسماء والأزمان، والموتُ واحد.. كلنا نموت، ولكن هناك مَن يموتُ على الضلال مثلك.. وهناك من يموتُ مثلنا على الحق.

صرخ حينها بهم:

- تكبير:

- الله أكبر.

- تكبير:

- الله أكبر.

التفَّ حينها بعضُ رجاله حولي وقيَّدوني بقوة.. وأمسك هو جرسَه مُناديًا:

-هلموا يا رجال.. شابٌّ بالعشرينيات من العمر.. حليقُ الذقن، قويُّ البنية.. ضلَّ الطريق لوادينا.. كُتب عليه الموتُ على أيدينا.. كُتب علينا قتالُهم.. تكبير:

- الله أكبر.

- تكبير:

- الله أكبر.

كنتُ مرعوبًا للغاية.. حاولت الإفلات من أيديهم دون جدوى.. نظرتُ إلى تلك الفتاة الرائعة.. .كانت تشفقُ عليَّ.. رأيتُ ذلك بعينيها.. صليبها

يجذب عيني الواحدة.. اقتربت مني في غفلةٍ منهم.. لا أُصدِّق ما يحدث.. اقتربتْ أكثر وأكثر.. أشعرُ بأنفاسها.. قبَّلتني تلك الحسناء أمامهم.. ذابت شفتاي بشفتيها.. سكرتُ من خمر ريقها.. أمسكت يديَّ المستسلمتين لها.. وضعتهما بين راحتيها... أشعرتني بالأمان والدفء.. صوتهم مستمر بالتكبير:

- تكبير:

- الله أكبر.

كانت يداها تقودان يديَّ لأعلى.. ارتفعتْ بهما لتمسك ذلك الصليب.. أمسكتُه بكلتا يديَّ.. وكأن قوة جاذبة تجتاحني وأنا بأحضانها.. أصواتهم تبتعد.. تلك الممتزجة برنين جرسه اللعين.. أغمضتُ عينيَّ مُستمتعًا بقُبلتها دون أن أحاول فهم أي شيء.. قبلة لم أتذوَّقْ مثلها بدنيايَ.. كأفخر أنواع العسل.. تبتعدُ الأصوات والآلامُ من حولي.. أحقًّا تنتهي أزمتي.. أم أن هناك المزيد؟ كنتُ خائفًا من فتح عيني المتبقية.. ظننتُ أن الموت يدنو بسكين في يد أحدهم ناحرًا رأسي وهي تُقبِّله.. أو يغرزه بقلبي الراقص لتلك القبلة التي أشعرتني بالحياة لأول مرة.. أمعقول هذا؟ أموت بنفس اللحظة التي أتذوق بها الحياة! لم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. كانت تمرر يديها على وجهي بحنانٍ مُنقطع النظير.. مدَّتها لتفكَّ أزرار قميصي الملطخ بدماء وعرق لا حدود لهما..

خفت أن أفتح عيني.. استسلمتُ لها ولشعور ممتع سأعايشه لأول مرة وقد يكون الأخير.. .كنتُ غارقًا بقُبلتها المستمرة.. وبلحظة واحدة صرنا جسدًا واحدًا بروحين.. ملتحمين وسط هؤلاء الغوغاء حاملي الذقون الكبيرة.. تعجبتُ كثيرًا، لماذا لم ينحرني أحدهم! أمستمتعون بمشاهدتنا هكذا أم ماذا؟ كادت أصواتهم تختفي تمامًا.. لا أسمع صوتًا غير أنفاسها ولا أشعر إلا بحنانها ودفئها.. غبتُ في سكراتها كثيرًا.. ذابت الآلام والأوجاع.. يا إلهي! لذة لا تقارن.. تهمس بأذني:

- لا تجزعْ.. ستنجو رغم الشرور. ستنجو رغم الألم.

.. أخافُ أن أفتح عيني فأصحو من ذلك الحلم الرائع.. أُحلِّق بين سحاب عشقٍ حُرمتُه، وأرفرف بسعادة مباغتة.. صوت موسيقا هادئة يتسرب لأذني... نشوة مُبهمة.. لم أرغب بفهمها.. عليَّ فقط الاستمتاع بها فقد أموتُ بعد لحظات.

صوتُ الموسيقا يعلو أكثر وأكثر.. بدأ دفؤها بالرحيل رويدًا رويدًا.. والبرد يعاود مرة أخرى ليفتك بي ويُحاصرُني من جديد.. فجأة فقدتُها.. انتظرتُ لحظاتٍ مُترقِّبًا عودتها من جديد.. يا ويلتي.. يبدو أنها لن تعود.. فتحتُ عيني مُتذمرًا.. كنتُ عاريًا بالفعل.. مستلقيًا على سرير فخم بغرفة واسعه راقية.. نظرتُ حولي مُتعجبًا.. تبًّا لهذه الليلة العجيبة!

ستائر متطايرة بفعل الهواء.. توجهت لتلك النافذة أمامي وأغلقتها.. أمطار غزيرة أستمع إلى صوت ارتطامها بزجاج تلك النافذة.. ساعة الحائط تنبئ بالساعة الواحدة ظهرًا.. مرايا ضخمة أرى نفسي بها أعور العين.. بحثتُ عن أيِّ شيءٍ ها هنا ليستر جسدي العاري.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ سؤال سخيف سَئمتُه اليوم.. .صورة مُعلَّقة على الحائط لتلك النجمة الشابة حبيبة.. نجمة سينما بزغ نجمُها في السنوات الأخيرة، وتصدَّرت الصفوف الأولى على الرغم من صِغر سِنِّها التي لم تتجاوز الثلاثين من العمر.. صوتُ صراخ فُجائي استمعتُ إليه بهذه اللحظات.. صوت نسائي:

- النجدددددددددددددة!

هُرعتُ مُتناسيًا جسدي العاري إلى خارج الغرفة.. فيلا شاسعة تتناثر المرايا بكل أرجائها.. وقفتُ بالدور العلوي أرقبُ مصدر تلك الصرخات.. رأيتُها بالدور السفلي مُقيَّدة القدمين واليدين فوق أحد الكراسي الفخمة.. وشخصان يتصارعان على أرضيتها الرخامية.. أحدُهما له لحيةٌ طويلة كهؤلاء الغوغاء، والآخر يُخفي ملامحه بوجه بهلوان ضاحك.. ومطواة صغيرة بيد صاحب الذقن يتلاشاها البهلوان.. صِراعٌ جسديٌّ عنيف بينهما، وحبيبة تصرخ بكل ما أوتيت من صوتٍ:

- أغيثووووووني!

وبضربةٍ قويةٍ استطاع ذلك البهلوان التغلُّب على صاحب اللِّحية، وأفْقَدَه وعيَه.. نظر بعدها ناحيتها وهي تتوسَّلُ إليه:

- أرجوك.. لا تُؤذِني.. أرجوك.

كنتُ مذهولًا مما أرى.. أمسك هاتفها المحمول ووضعه أمامها على منضدةٍ قريبة.. وكأنه يسجل تلك اللحظات.. كان بيديه قفازان سميكان.. صفعها بقوةٍ ضاحكًا بهيستريا، كانت تبكي بشدة.. اقترب منها وأمسك وجهها بحدةٍ ليوجهه لذلك الهاتف وألصق وجهه بها هامسًا:

- الآن سيبدأُ العَرْضُ.

أوقف بيده تلك الموسيقا الهادئة بجوار نافذةٍ جانبيةٍ، ووضع أُسطوانة أخرى كانت معه بحقيبة صغيرة سوداء اللون بدلا منها، وبدأت موسيقا تُشبِهُ تلك التي نسمعُها بفقرة المهرج بالسيرك، وبدأ حينها بالرقص كبهلوان ماهرٍ بالقُرب منها.

- سيداتي، آنساتي، سادتي.. مرحبًا بكم في فقرة البهلوان القاتل.. معنا اليوم نجمتكم المفضلة.. نجمة المسرح والسينما.. النجمة حبيبة.

صفَّق بيده كثيرًا، وتابَعَ عَرْضَه العجيب.. كان بارعًا بأداء عرضه المُخيف، وعلى الرغم من وجه البهلوان الضاحك الماحي لملامحه وشعره الاصطناعي

أحمر اللون المُثير للبهجة فإنها لم يُخفيا نظرات الشَّرِّ القافزة من عينيه لتسخر من جزعها وبكائها.. علا بصوته ضاحكًا:

-ننقل لكم العَرْضَ مُباشرةً على صفحة النجمة على الفيس بوك، نتمنى لكم وقتًا سعيدًا مُمتعًا.

حاولت حبيبة الصراخ أكثر وأكثر دون جدوى..

- لكُلٍّ منا سِرٌّ يُخفيه طوال حياته، ويُحارب من أجل سَتْرِه مراتٍ ومراتٍ، ولكن هناك من يختفي خلف ستار حياتِك يرمقُك بكل لحظة منتظرًا الفرصة المناسبة لفضحك حتى وإن كانت تلك الفرصة بعد إغلاق لحدِك فاحترس، وامحُ كل أثرٍ لأسرارك قبل موتك.

استمرَّ مُخرجًا من حقيبته منشارًا كهربائيًّا.

- قرّب.. قرّب.. قرّب.. قرّب.. هنا المتعة.. هنا الحق.. هنا الدم.. هنا يموت العُهر.. هنا أنا.. بهلوان قاتل، وحشٌ كاسرٌ، فاحذر ولا تقربني إلا بحساب وإلا...

بَحَثَ عن مصدرٍ قريب للكهرباء وأدار منشاره.. اقترب ناحيتها غير مكترثٍ لتوسُّلاتها:

- أرجوك.. لا أريدُ الموت.. اتركني وسأعطيك ما تريد.

- أريدُ رُوحَك فقط.. هذا ما أريدُ.

صوتُ ذلك المنشار كان حادًّا للغاية.. .خاصةً وهو يخترق قدميها قاطعًا إياهما بقسوةٍ شديدة ممتزجة بضحكاتٍ عالية لذلك البهلوان المجذوب.

قررتُ حينها التدخُّلَ وإنقاذها.. هُرعت هابطًا ذلك السلم العالي سريعًا صارخًا به:

- توقَّف أيها البهلوان.. توقَّف أيها المجذوب.

وكأنه لم يسمعني مُطلقًا.. استمرَّ بضحكاته العجيبة رافعًا منشاره ناحية رأسها.. صرخاتُها لا تتوقف.. ودماءٌ تتزايد من قدميها المبتورتين.. نَصْلُه الحادُّ يقترب من رقبتها.. كنتُ أُصارعُ الزمن عَدْوًا ناحيتها لعلِّي أُنقذُها.

- تووووووووووووووووووووووووووووووقَّف.

هأنا على وشك منعه.. سُحقًا لذلك! اخترق منشارُه رقبتَها، ونافورةٌ من الدماء تنبثق بوجهي.. لحظة واحدة تفرق بين الموت والحياة.. رأسها يتطاير تحت قدميَّ.. بهذه اللحظة تحطَّم زجاج جانبي لنافذةٍ كبيرة بمنتصف صالة هذه الفيلا.. يدخل ذلك الغُراب الأبقع ذاته.. عرفتُه جيدًا منذ الوهلة الأولى، فكيف أنسى من سرق إحدى عينيَّ؟! دماؤها تتطاير كنافورةٍ مُتدفِّقةٍ بوجهي.. ورأس مقطوعٌ تحت قدمي.. وذلك الغراب يقترب بسرعة خاطفة ليغرز منقاره بعيني اليسرى.. صرختُ بقوة.

- عينااي.

نهضتُ مذعورًا من نومي مُتحسِّسًا إياهما.. إنهما بمكانهما لم يحدث لهما شيء.. يا الله! يا له من كابوس لعين! نظرتُ حولي مذعورًا.. كنت بغرفتي الصغيرة أعلى بنايتنا التي نسكن بدورها الأرضي مع أختي الوحيدة غادة.. حبيبتي التي تكبُرُني بعامين جعلتها أُمًّا بالنسبة لي.. فمنذ وفاة والدتي وأنا لم أكمل الخامسة من العمر وهي ترعاني، وتفيض بحنانها عليَّ.. كم من الليالي بتُّ بدفء أحضانها تُواسيني لقسوة والدي! الشيخ عبد النور بركات.. إمام مسجد حارتنا.. أكادُ أجزمُ أنه لم يخرج من تلك الحارة طوال عمره إلا يوم تشييع جنازة والدتي رحمها الله.. وعاش بعدها مُنغلقًا على نفسه وعلينا.. كم من المرات اصطدمنا! وكم عانيت بسببه!

تنهدتُ مُحاولًا استنشاق هواء نقي تسرب لرئتَّي.. ما زلتُ أعاني نوبة من البرد الملازم لي بالشتاء.. نفضتُ غطائي، ونهضتُ ناظرًا إلى ساعة الحائط.. إنها الخامسة عصرًا.. نمتُ ما يقرب من خمس عشرة ساعة.. لا أرتاحُ إلا بهذه الغرفة التي حرمني إياها والدي كثيرًا فباتت مخزنًا لمنقولاتنا القديمة.. وكأنه كان رافضًا لبعض الخصوصية لي.. أراد دومًا مُراقبتي نُصب عينيه، والتدخُّل بحياتي وتشكيلها كيفما يريد.. رحمةُ اللهِ عليه هو أيضًا.. وافته المنية منذ عام وبضعة أشهر فجأة لارتفاع مفاجئ بضغط الدم.. فعدتُ لخلوتي هنا

بجوار (غيّة) حمام أعشقُها.. صوتُ هديلِه يطرب قلبي كل صباح.. لطالما وقفتُ ساعاتٍ أُراقِبُ هذا الحمام.. طيرانه المنتظم.. حُريته المنتزعة.. هل شردتَ من قبل بسرب طيور.. أهديرُها غناء أم بكاء؟ أم هذا وذاك؟ ينوح أم يترنَّم؟ أحيانًا أسمعه نحيبًا، وأوقات أخرى غناء يُطرب الآذان تبعًا لحالتي النفسية.. لم أنسَ بيتًا من الشعر حفظته عن ظهر قلب يصفُها وهديرها:

أحقًّا يا حمامة بطنِ وجٍّ ... بهذا النّوحِ إنَّكِ تصدُقينا

فإنِّي مِثْلُ ما تَجِدينَ وَجْدِي ... ولكنِّي أُسِرُّ وتُعْلِنينا

غلبتُكِ بِالبُكَاءِ لأَنَّ لَيْلِي ... أواصلهُ وإنّكِ تهجعينا

وَإنِّي إنْ بَكَيْتُ حقًّا ... وإنّكِ في بكائكِ تكذبينا

أعجبني وصفُه لها بالكاذبة.. أحيانًا تفوق أحزاننا كل شيء.. تصير كالوحوش المفترسة.. فلا فارق بيني وبين ذلك الشاعر.. ذات مرة تحدثت مع إحداها.. قصصتُ عليها كل الآلامي وأحزاني.. تركتني وطارت.. ضاربةً بجناحيها حكايتي بقسوة.. أعلم انه ضرب من الجنون، ولكنني أغارُ من تلك الطيور.. يا ليتني طير مثلها.. ومع ذلك ظللتُ مُلاصقًا لها، أعشقُ قُربي منها لعلي يومًا ما أتحرر.. سألني جارٌ لي كان يسكن ببنايتنا منذ أكثر من عشر سنوات مع عائلته..

- كلما صعدتُ إلى هنا وجدتُك شاردًا بتلك الطيور.. ألهذا الحد أنت تتألم؟

- أشعر بالراحة وأنا هنا بجوارها.

- ولماذا تلك النظرة بعينيك؟

- أي نظرة؟

- عينان زائغتان، وغيرة تفقز منهما واضحة وضوح الشمس.

- أمجذوب أنت؟ أغار ممَّن؟ من طيور لا حول لها ولا قوة!

تلافيتُ الحديث معه بعد ذلك.. ابتعدتُ عنه قدر المستطاع.. كان بارعًا بقراءة لغة العيون بالرغم من صِغر سِنِّه.. وبعدها بعامٍ ونصف رَحَلَ مع عائلته الصغيرة.. لم أنسَ كلماته تلك:

- يحيى إن لم تصنع لنفسك حياةً تخصُّك فستعِشْ أنت والعدم سواء. عليك بالكفاح ضد طغيان والدك.

كان شاهدًا على صُراخي بليالٍ عديدة متألمًا من سياط أبي الموجعة.. والدي المتدين المُصرّ على تربية ابنه على تعاليم الدين بمنتهي القسوة.. أبي جافي القلب.. ما زلتُ أتذكر ليلة موت والدتي.. طفل بالخامسة من

عمره، حُرم دفء أمه بغتةً.. بكاء لا ينقطع.. لم أنسَ لحظة دفنها مطلقًا.. كنتُ رافضًا فكرة عدم رؤيتها مُجددًا.. لدرجة أنهم بحثوا عني ليلتها كثيرًا فلم يجدوني.. فررتُ من البيت لقبرِها بعد منتصف الليل.. اصطحبني إلى هناك جار لنا كان يكبرني بعشر سنوات ويعمل على توكتوك يملكه.. استجاب لي بعد توسُّلاتٍ باكية لا حصر لها.. تركني بناء على طلبي على أن يعود بالصباح.. رجوتُه أن يمنحني ولو ليلة واحدة بالقرب من أمي.. أشفقَ عليَّ جدًّا بالأخصِّ لأنه يتيم الأم مثلي.. ولأنه فعل الشيء نفسه يوم موت والدته.. تلك كانت حكايته لي ورغبت بتقليدها، ولكن بشكل مختلف.. انتظرتُ انصرافه وأخرجت مِطرقةً أخفيتها بملابسي.. حاولتُ كسر ذلك القفل الصغير المغلق لقبرها مُحاذِرًا.. ساعتان وأنا لا أمل لي إلا رؤيتها مجددًا.. وبيدي الواهنتين كسرتُه.. وفتحتُ باب لَحدِها.. ظلامٌ دامس لم يُخِفْني.. وكأن دِفْأها يُنير كل الدنيا بعينيَّ.. سلالم صغيرة تقود للأسفل.. نزلتُ مُتحسِّسًا جدرانًا يكسوها خيوط العنكبوت.. درجات قليلة وتعثرتُ واقعًا مسافةً ليست بالقليلة على وجهي.. ولكنني لم أتألم.. كان تحتى شيء ليِّن.. أشتمُّ رائحتَها.. تحسَّستُ ذلك الشيء أسفلي.. يا الله إنها أمي! وقعتُ بأحضانها، وكأنها تنقذني حتى وهي في عِداد الأموات.. احتضنتُ جثتها بشدة باكيًا.. صرخت لعلها تسمعني:

- أُمممممممي.. لِمَ رحلتِ وتركتِني وحيدًا.. أُمي أتسمعينني؟ مَنْ سيُصاحبني لمدرستي كل صباح؟ مَنْ سيحنو عليَّ؟ اشتقتُ إليك وما زلنا بأول ليلةٍ. ألن تعودي؟ أحقًّا ذلك؟ أخبرني والدي ذلك الأمر اليوم.. إن كنتِ سترحلين بعيدًا هكذا فلِمَ لا تأخذينني معك إلى هناك؟ أمي.. أتسمعينني؟ حسنًا، سأنتظر إجابتك.. والآن سأنامُ بحِضنك.. تصبحين على خير.

لم تمر الليلة هكذا ببساطة.. تلك الليلة التي حُفرت بذاكرتي، وأصبحت سببًا لكوابيسي حتى الآن.. صوتٌ ما يُحدثني حينها هامسًا:

- أريدُك.

كتمتُ أنفاسي ونظرتُ حولي.. شيء ما يتحرك بالقرب مني.. أشعرُ بأنفاسه تقترب.. وصوت قلبه الخافق بجواري.. ظلامٌ دامس مُحال الرؤية فيه..

- أريدُك.

صرختُ:

- مَن أنت؟

- ألا تعرفُني؟

شعرتُ حينها بيدٍ تلتفُّ حول رقبتي:

- أُممممممممي.. الغوث يا أمي!

حاولتُ الخروج، ولكن باب القبر أُغلق بغتةً.. حُبست بقبرها.. ضوء بسيط يتلاعب.. جحظت عيناي مرعوبًا.. رأيتُ نفسي شاحب الوجه.. وطفلًا آخر أمامي، وكأنني أنظر بالمرآة.. رأيتُني شاحب الوجه.. ذُعر لم أعرف مثله بحياتي.. صرخت:

- أُمممممممممممممممممممممي.

- أريدُك أن تلعبَ معي.

هكذا نَطَقَ ذلك الشبيهُ.. كان بجوار جثتها.. الضوء يتلاعب يخفُتُ كثيرًا ويظهر قليلًا.. يغير مكانه وكأنه شبحٌ يتطاير بحرية.. ناطقًا اسمي:

- يحيى.. يحيى.. يحيى.

وأنا أصرخُ دون جدوى.. هُرعت لجثتها وارتميتُ بأحضانها، وأغلقتُ عيني.. كنتُ أرتعشُ خوفًا.. واختفى الصوت فجأة كما بدأ.. وعمَّ الهدوء برحابها مرة أخرى.. نظرت ناحية باب القبر فوجدته مفتوحًا كما كان.. أدركتُ حينها أنها مجرد تهيُّؤات.. العجيب أنني لم أخرجْ، وقررتُ المبيت معها.. حِضنُ أمي بالدنيا وما فيها حتى وإن كانت بالقبر.. حتى وإن كانت الأشباح حولنا بكل مكان.

قبَّلتُ جسدَها المُلتفَّ بكفنها، ورحتُ بسُبات مُتقطِّع.. يُهاجمه الكوابيس بين الحين والآخر.. .طفل بهذه السِّن يبيت بأحضان جثة أمه بأولى لياليها بالقبر.. تلقيتُ بعدها لأول مرة ضربات مُبرِّحة لا تُحتمل بحزام بنطال والدي حينما دهَّم جاري على مكاني فجرًا.. كان يصرخ مبرقًا عينيه غاضبًا:

- أنت ملعون.. مَنْ ينبش قبرًا فهو ملعون.

لَمْ أنسَ تلك المرة التي ناداني فيها بعد أسبوع من هذه الواقعة ناظرًا بعينيَّ بقسوةٍ متناهية:

- يحيى.. لقد نقلتُ جُثمانَ والدتك لقبرٍ آخر، ولن أُخبرَك بمكانِه حتى تكبر. هيَّا توضَّأ وصَلِّ ركعتين، وادعُ لك ولها بالمغفرة.

- كلا، لا أريدُ الصلاة.

وكأنني كنتُ أتحداه بطفوليةٍ ساذجة.. وما كان منه إلا أن ضربني مُجددًا، ومجددًا مرارًا وتكرارًا لأُصلي تحت تهديد الوجع.. وكبرتُ دون أن أعرف مكانًا لقبر أمي.. كلما زادت الخلافات بيننا زادَ عِنادُه.. حاولتُ كثيرًا معرفة أين قبرها دون جدوى.. أخفاهُ حتى موته.. فليغفرِ اللهُ له، ولكنني لن أغفر له، ولن أُسامحه مدى الحياة.

كانت (غية) الحمام ملاصقة لغُرفتي الصغيرة.. فتحتُ نافذة غُرفتي البالية أخشابها ليتسرب آخر نسمات النهار لرئتيَّ.. ابتسمتُ مستمتعًا بصوت هديله المتناغم.. وكأنني أستمعُ لوصلة موسيقا عالمية لموتزارت .. تعجَّبتُ من مزاجي اليوم.. لو كان شخصٌ آخر قضى ساعات نومه بكابوس كهذا لكان يومه قاتمًا مُعكَّرًا..

أدرتُ مسجلًا صغيرًا بجوار سريري الخشبي.. ليخرج صوت موسيقا هادئة كتلك التي تستمع لها بالفنادق الفخمة.. وامتزجت الموسيقا بهديل الحمام.. تحركت لدورة المياه مُتمايلًا كراقص باليه أعرج.. .. فتحت صنبور المياه ناظرًا بمرآة صغيرة أعلاه أو بالأحرى ما تبقى من تلك المرآة المتآكلة.. تحسَّست لحيتي الصغيرة.. أحتاج حقًّا إلى إزالتها.. كلا، سأستحمُّ أولًا.. هكذا نويتُ مُتجهًا لستار المسبح الصغير(البانيو) خالعًا ملابسي.. رائحة عفنة تتسرب لأنفي المزكوم.. يبدو أنني أتماثل للشفاء من ذلك البرد.. ولكن ما هذه الرائحة العفنة؟ يبدو أنها قريبة من هنا.. على الأرجح أنه فأرٌ ميت.. هكذا تعوَّدتُ، فقد أكثرتُ من سُمِّ الفئران بغرفتي الفترة الأخيرة لكثرتها، وخوفًا على الحمام منها، فالفئران بحارتنا متوحشة.. بإحدى المرات أمسكتُ فأرًا يلتهم حمامةً ضعيفة من رقبتها كمصاصي الدماء.. وما إن رآني وقف ثابتًا لا يتحرَّك، وعيناه تخترقانني شزرًا، بعدما قطعت عليه عشاءه اللذيذ..

لطالما ألحَّت أختي بالعيش معها بشقتنا السفلية، وللحقِّ حاولتُ إرضاءها، ولكنني كنت دائم الفرار لأعلى، وكأنني أتوق للطيران كمثل تلك الطيور.. توقفت الموسيقا فجأةً.. خرجتُ للغرفة ناحية المُسجل.. تبًّا لذلك! تَلَفٌ بغير موعده بالشريط.. حسنًا، لن أنزعج.. أغلقتُه وأدرتُ تليفزيوني الصغير مُحاولًا ضبط تلك الأسلاك اللعينة خلفه.. صوتُ مراسل الأخبار يتردد.. وقفتُ مبرقًا عينيَّ مذهولًا..

-جريمة بشعة بفيلا النجمة حبيبة.

كان واقفًا خارج فيلتها.. أعرفُها جيدًا.. يا إلهي! أهذا معقول؟ استكملَ المراسل حديثه:

-تُكثِّف قوات الشرطة جهودها للبحث عن ذلك المختل المشهور بالبهلوان القاتل.

هكذا أطلق على نفسه بلحظات البث المباشر لجريمته على صفحة النجمة على الفيس بوك.

***

النبشة الثانية (جريمة دامية)

(الثامن من يناير ٢٠١٨ - الساعة الخامسة والربع عصرًا)

سكونٌ طاغٍ خيَّم على فيلا النجمة الراحلة حبيبة وسط ثُلة من قوات الشرطة المعاينةً لموقع الجريمة بدقة شديدة.. وتنكست أعلام البهجة التي طالما رفرفت بهذه الفيلا الواقعة بطريق المريوطية.. كم من الحفلات أُقيمت لأرقى طبقات المجتمع بها! كم من ليالي الهناء مرت بمرتاديها! واليوم تنطفئُ شموعُها وتصير كالقبر المفتوح، تشتمُّ رائحة الموت بين جوانبها.. والدماء على جدرانها.. لتتحول تلك السمراء الساحرة المتربعة فجأة على عرش الفنانات بمصر لجثةٍ هامدة.

تمدَّدت جُثتها بمكانها وسط بركةٍ من الدماء المتجلطة، ورقبتها المنحورة جاحظة العينين بجوارها، وقدمان مبتورتان وصدر مشقوق منزوع القلب.. جريمة مُروِّعة تقشعر لها الأبدان.. تبًّا لمُنفِّذها! نَحَرَها وشَقَّ صدرها مُنتزعًا قلبها.. إنه ميت القلب، ويحمل الكثير من الكُرهِ، ورغبةً جامحة بالانتقام من المجني عليها.

هذا ما دار برأس المقدم محمود غندور الشارد برأسها المقطوع.. أهاتان هما الشفتان المثيرتان اللتان كانتا حديث الشباب؟ حصريا صورة النجمة

حبيبة بالمايوه على شاطئ البحر.. فستان النجمة حبيبة يُشعِلُ مواقع التواصل الاجتماعي.. أهذان هما النهدان اللاهث وراءهما الجميع؟

تداعت أفكارٌ عديدة برأس الغندور.. ذلك الرأس الأصلع الذي يحمل عقلًا من أذكى عقول ضباط المباحث، وشاربه الصغير تحت أنفه الكبير، ونظارته الطبية ينذران برجل ذي طراز خاص.. فبالرغم من سِنِّه التي تجاوزت الخامسة والثلاثين بعدة أشهر فإنه ينتمي لجيل سابق.. من الوهلة الأولى للنظر إليه تظنُّ أنك تقف أمام ضابط شرطة بالخمسينيات من القرن الماضي.. هيئتُه وملابسُه قديمة الطراز توحيان بذلك.. وكرشه المتهدلة أمامه المتكورة لقصر قامته تُثير سخريتك، ولكن سرعان ما تتغير وجهة نظرك للإعجاب بذكائه الحادِّ بكل القضايا التي تولَّى التحقيق فيها.. تُبهرك سرعته في مطاردة أيِّ مجرمٍ يفكر بمغازلة روح التحدي بداخله.. وآخرهم تاجر المخدرات الهارب بصعيد مصر حسان الخليل.. قَبَضَ عليه الغندور بعد مُطاردةٍ بالصحراء استمرَّت أكثر من ساعتين .. ساعتان من الركض وراءه دون مللٍ أو تعبٍ بعدما تجرَّد من رجاله بأكبر عملية تهريب بالصعيد.. استسلم حسان حينها لذلك الصقر المُصرِّ على الإمساك به.. «الضابط الصقر».. هكذا اشتُهر بين قياداته قبل نقله للقاهرة منذ عدة أشهر.. ولكن بَقيت كرشُه علامة مغايرة لطبيعته، وكأنه وسيلة لخداع خَصمِه بضعفه.. العجيب أنه لم يحاول

مُطلقًا التغيير من هيئته تلك.. ولم يستمع لتوسلات والدته العجوز ورغباتها الملحة لتزويجه دون جدوًى.. عَشِقَ تفاصيلَه وتراضَى معها.. أحبَّ رائحة عرقه الدائمة المستوطنة أسفل باطيه والهازمة لكل مُعطِّر حاول استخدامه لطردها.. اقترب منه النقيب ماهر قاطعًا شُروده:

- سيادة المقدم..

نَظَرَ إليه محمود غندور مُنتظرًا أول خيوط تلك القضية.. نتائج تفريغ كاميرات المراقبة.. رغم أن الجريمة تمَّت أمام الملايين ببثٍّ مباشر على موقع التواصل الاجتماعي، ولكن قد تُظهِرُ الكاميرات أيًا من المفاجآت غير المتوقَّعة.. تحرَّك الغندور معه ناحية حاسوبٍ إلكترونيٍّ بأطراف صالة الفيلا، تاركًا رجال المعمل الجنائي والطِّبِّ الشرعي يستكملون عملهم.. أشار ماهر ناحية صورة البهلوان المُثبَّتة على شاشة الحاسوب حاملًا بيده خزينةً صغيرة وحقيبة سوداء اللون.

- جميع كاميرات المراقبة داخل الفيلا مُعطلة منذ فترة ما عدا كاميرا واحدة مُثبَّتةً على البوابة الخارجية للفيلا، وبتفريغها - سعادتك - عثرنا على المجرم لحظة دخوله في تمام الثانية عشرة والنصف، ظهرًا حاملًا حقيبة سوداء اللون ورصدت خروجه بعد الجريمة في الواحدة وعشر دقائق حاملًا خزينة صغيرة بالإضافة للحقيبة نفسها.. كما ترى - جنابك - بالصورة.

تفحَّص صورته المثبتة بدقة:

- بهلوان مختفية ملامحه، يدخل بهذه الثقة للفيلا، ويرتكب جريمته، ويخرج مرة أخرى بالثقة نفسها.. بنسبةٍ كبيرة هناك مَن ينتظره بالخارج ليخفيه بسيارته بعيدًا عن أنظار المارة.

- جنابك تقصد.. .؟

- مُحرِّضًا على الجريمة.. أو على الأقل مساعدًا.

- هناك احتمال آخر سيادتك.. أن يملك الجاني نفسه سيارة تخُصُّه دون حاجة للمساعدة.

- كل الاحتمالات مطروحة.

استكمل ماهر حديثه:

- لا وجود سيادتك لأي آثار للعنف أو الكسر سواء بالدور الأرضي، أو العلوي، ما عدا ذلك الزجاج المكسور، سعادتك.

أشار إلى بعضٍ من آثار الزجاج المتناثر بالقرب منهم..

القتيلة - جنابك - هجرت هذه الفيلا منذ فترة، كانت تعيش بفيلا زوجها، وذلك يُفسِّر عدم وجود أفراد أمنٍ على البوابة أو أيٍّ من الخدم ما

عدا فردًا واحدًا كان يحرس الفيلا بغيابها، يُدعى محروس أرسلنا باستدعائه - سيادتك - لمعرفة سبب غيابه، وكذلك استدعينا المدعوة زينب عبد الله المساعدة الأولى للمجني عليها.

- وزوجها؟

- أأستدعيه سيادتُك؟

- ماهر.. أين ذكاؤك يا حضرة النقيب؟ زوجة تركت بيت زوجها وجاءت لفيلا قُتلت بها

باليوم التالي بمفردها.

قالها بعصبية.

- أوامر جنابك.

نَظَرَ حينها إلى الصورة بتحدٍّ.

- سنرى أيها البهلوان الذكي أيَّ خطأ تركته خلفك ليوصلنا إليك؟

- هناك شيء آخر - جنابك - عجيب.

- خيرًا يا ماهر؟

أدار ماهر المقطع المُصوَّر قليلًا ثم ثبَّته على صورةٍ شخصٍ آخر.

- هذا الشخص - سيادتك - رَصَدَتْه كاميرا المراقبة بعد خروج الجاني بخمس عشرة دقيقة خارجًا من البوابة الخارجية.

إنه الشخص نفسه المصارع للبهلوان بكابوسي العجيب.. رجل في أواخر الثلاثينيات من العمر.. قمحي البشرة، وذو لحيةٍ طويلة مُهذَّبة.. وعلى جبينه بعض من آثار دم.. ممسكًا بحقيبة سوداء بيده.. رَمَقَه محمود غندور بعينين ثاقبتين:

- ألم تلتقطه الكاميرا لحظة دخوله؟

- لا سيادتك.

- ساعة واحدة وتُطّلعني على تاريخ هذا الشخص بالتفصيل، وسبب وجوده هنا بمسرح الجريمة.. مفهوم؟

- أوامر سيادتك.

نَظَرَ ماهر لغندور مترددًا.. لاحظ ذلك بعينيه فسأله:

- أخبرني بملاحظاتك العبقرية يا سيد ماهر عن هذه القضية.

- تمام سيادتك.

- كُفَّ عن هذه الكلمة.

قالها بعصبية.. اعتاد غندور مطالعة رأيَ مَنْ حوله بكل قضية، لا لشيءٍ إلا لمعرفة الآراء السطحية والتحليلات البديهية للقضايا ليبعدها عن تفكيره.. هكذا كان يرى كل من حوله.. مجموعة من الأغبياء.. أجابه ماهر على الفور:

- حاضر سيادتك.

.. تحرَّك ماهر من أمامه مُؤديًا له التحية العسكرية.. استوقفه الغندور:

- انتظر.. لَمْ تخبرني بتحليلك لتلك الجريمة.

- أظنُّ أنها جريمة سرقة مُدبَّرة بين ذلك الشخص ذي اللحية والبهلوان.. دخلا من النافذة واختلفا على الغنيمة فاستولى الأخير عليها وهرب.

- جريمة سرقة؟

- سرقة الخزينة، سيادتك.

- سرقة الخزينة.. أُنبِئك يا سيادة النقيب أنك تمتلك عقليةً فذَّة. مكانك ليس هنا.. عليك بتقديم أوراقك للاستخبارات الأمريكية.

- متشكر سيادتك.

صرخ فيه الغندور

- يا ماهر بك.. ألم تستمع لذلك البث المباشر للبهلوان لحظة الجريمة.

تقمَّص البهلوان ذاته ببراعة شديدة:

- لكُلٍّ منا سِرٌّ يُخفيه طوال حياته ويحارب من أجل ستره مراتٍ ومرات، ولكن هناك مَن يختفي خلف ستار حياتك، يرمقُك بكل لحظةٍ منتظرًا الفرصة المناسبة لفضحك حتى وإن كانت تلك الفرصة بعد إغلاق لحدِك ،فاحترس، وامحُ كل أثرٍ لأسرارك قبل موتِك.

لحظات من الصمت قطعها محمود غندور شاردًا بمكان الجريمة، جائلًا بنظره بأرجاء الفيلا كافة، وكأنه يتخيل كيفية حدوثها.

- بهلوان قاتل يعرف فريسته ويراقبها.. ينقضُّ عليها بتوقيتٍ يُحدده هو.. يعرف أنها بمفردها.. يكسر الزجاج ويدخل.. يقتلها.. ينحرها أمام الملايين.. ويخبرنا بأنه سيفضح أمرًا ما حاولت هي إخفاءه طوال حياتها.

- وذلك الشخص سيادتك.. صاحب اللحية؟

- هذا ما ستُخبرني به قبل وصول النيابة يا ماهر بك.. تفضل.

- أوامر جنابك.. بعد إذنك.

تنهَّد غندور هامسًا:

- ترى.. مَن ذلك البهلوان القاتل؟

***

خمس عشرة دقيقة مرت عليَّ بغرفتي الصغيرة مذهولًا بمكاني أمام تلفازي الصغير غير مصدقٍ ما أستمع إليه.. ليس فقط بذلك الكابوس الذي تحول آخره لحقيقة، ولا لذلك اللغز العجيب المحاوط لعقلي.. ولكن لموت حبيبة.. لا أتخيَّل أنها قُتلت بهذه الوحشية.. وذلك المقطع العجيب يُذاع مرارًا وتكرارًا.. ذُبحت كخنزير أجرب لا دية له.. شُلَّ تفكيري وتجمَّدت حواسي.. مددتُ يدي تحت مرتبة سريري، وأخرجت مجموعة من المجلات.. نظرت بإحداها والدموع تملأ عينيَّ.. كانت على غلافها.. نجمة شابة متألقة تبحث عن وجهٍ جديد لبطولة فيلمها القادم..

صوت ذلك المراسل يتسلل لأذني.

- ما زالت قوات الأمن تمنع وسائل الإعلام من الحصول على أي معلومات خاصة بالجريمة.. ووصلت منذ قليل النيابة لتعايُن موقع الحادثة.. ولكننا استطعنا الحصول على بعض الأخبار المُسربة من مصادر موثوق بها عما حدث بالساعات القليلة الماضية للنجمة الراحلة حبيبه التي تشاجرت مع زوجها النجم آدم الغريب ليلة أمس بحضور مساعدتها الأولى زينب عبد الله بعد زواجٍ دام عامًا وبضعة أشهر.. شجار حادٌّ نتج عنه طلاقها وخروجها غاضبة بشدة، وعادت لفيلتها القديمة، واتصلت بحارسها المدعو محروس الذي كان قد طلب إجازة لعدة أيام لزواج ابنته.. طلبت منه الحضور بالغد.

تركتها مساعدتها وانصرفت بناء على طلبها وبقيت بمفردها هذه الليلة.. ليلتها الأخيرة بدنيانا.. لتصحو على شخص بهلوان يذبحها بوحشية تاركًا وراءه العديد من الألغاز.. من له مصلحة بقتلها؟ وهل ذلك البهلوان مجرد قاتل مأجور أم أنه يقتل لأغراضٍ ستُكشف الساعات والأيام القادمة؟ تابعونا أعزائي المشاهدين وسنوافيكم بكل جديدٍ أولًا بأول.

تلفاز العاصمة.. راشد الغيري.. القاهرة.

تبًّا لهذا الإعلام القاسي! يعيدون مشهد ذبحها مراتٍ ومرات، وكأنهم قد نُزعت قلوبهم ووضع مكانها أحجار صماء.. قلبت بيدي بين صفحات تلك المجلات.. بإحداها وجدت صورة تجمعني معها.. صورتنا الوحيدة.. أنا والنجمة حبيبة بإطار واحد.. سالت دموعي أكثر وأكثر.. وابتلت أوراق مجلاتي بدموع لا تتوقف.. وسؤال واحد يتردد برأسي:

.. كيف رأيت تفاصيل تنفيذ هذه الجريمة.. وأنا نائم بسريري لم أتحرك منذ الثانية بعد منتصف الليل أمس؟

***

- إنه في مساء يوم الثامن من يناير عام ٢٠١٨ الموافق الإثنين، الساعة السادسة والنصف، تم بمعرفتي، المقدم/ محمود عباس غندور، وبناء على

التحريات المبدئية بجريمة قتل حبيبة السيد عبده، استُدعي زوجها آدم محمد الغريب، ووجَّهنا إليه الأسئلة الآتية:

س: ما قولك فيما نُسب إليك بالتشاجر مع القتيلة الليلة الماضية بناء على شهادة مُساعدتها الأولى زينب عبد الله؟

- وهل هناك ما يمنع الشجار بين الأزواج؟

رَمَقَه الغندور بنظرة حادة.

- أستاذ آدم.. أُنبئك بأن وضعك سيئ للغاية، وعليك الإجابة عن أسئلتي بدقة.

- هل يمكن تأجيل التحقيق إلى وقت آخر؟ فأعصابي منهارة مما رأيتُ.

كان مرتجفًا متلعثمًا بالكلام.. فزوجته النجمة التي بلغت عنان السماء، رآها منذ قليل مفصولة الرأس.. منظر بشع لا يتحمله فنان مثله مُرهف الحس اشتهر بأدواره العاطفية على شاشة السينما.. أجابه غندور بحدة:

- نعم.. يمكننا تأجيل التحقيق وترتاح لدينا بالحجز على ذمة القضية.

- لا لا.. سأتحدث الآن.

- تفضل.

- أنا وحبيبة تزوجنا بعد قصة حبٍّ يعرفها القاصي والداني.. كانت حديث جميع الأوساط وخاصة الوسط الفني.. عشنا معًا عام في الجنة.. عشقتها.. أتعرف هؤلاء الهائمين والمعجبين الذين لم يروها إلا من خلال أعمالها بالسينما؟ ما بالك بمن اكتوى بنار حبها.. بمن سلب عقله بمجرد نظرة من عينيها.. بمن أسكرته خمر القُرب منها.. النوم بجوارها.. التدثُّر بلهيب أنفاسها.. الارتواء من نهر ابتساماتها كل لحظة. تمنيتُ أن أقضي باقي حياتي برحابها..

دَخَلَ حينها النقيب ماهر قاطعًا بكاءه المتزايد..

- سيادة المقدم.

أشار إليه غندور بالصمت.. نظر إلى آدم مُستكملًا أسئلته مُتنهدًا:

- ما سبب الشِّجار؟

- كانت غيورًا للغاية.. لطالما تشاجرنا للسبب نفسه.. سيادتك تعرف أنني نجم سينمائي، ولديَّ معجبات كثيرًات، وسلوك البعض منهن قد يصبح متجاوزًا بالنسبة لها.

- غيورًا؟ سبب وجيه.. أكمل.

قالها الغندور ساخرًا منه..

- ليلة أمس وصل الأمر لذروته.. اتهمتني بالخيانة مع أحد الفتيات وتفاقَمَ الحديث بيننا فصفعتني..

- صفعتك؟

- نعم.. كان ذلك أمام مساعدتها زينب.. ثُرتُ لكرامتي.. فصفعتُها أنا الآخر، فشتمتني بأقذر الألفاظ.. فطلقتُها وطردتُها هي وزينب.

- وماذا فعلتَ بعد ذلك؟

- لا شيء.. بتُّ ليلة من أسوأ ما يكون.. بكيتُ كثيرًا.. لأول مرة تصل خلفاتنا لهذا الحد.. كنت أحبُّها جدًّا.. انتظرتُ أن تتصل بي لتعتذر عما دار بيننا.. انتظرت عودتها لأرتمي بأحضانها.. ترددتُ كثيرًا بالاتصال بها.. كنتُ على وشك الذهاب إليها لأبكي تحت قدميها وأقسم لها أنني لستُ بخائن.. لستُ سوى العابد الوحيد بمحرابها.

صَفَّقَ الغندور له مُستهزئًا:

- رائع.. أداء يستحق الأوسكار.

- أنا فقط أعبر عمَّا بداخلي.

- أستاذ آدم.. أنت مُتهمٌ بقتل زوجتك.. أقصد طليقتك حبيبة السيد عبده مع سبق الإصرار والترصُّد.

- مُحال.. لم أقتلها.. أأقتل دُنيايَ؟ أأذبحُ رُوحي وحياتي؟ هُراء.. ما هذا السخف؟

- كرامتُك دفعتك لتنفيذ الجريمة، فاستأجرتَ ذلك البهلوان لقتلها.. طريقة ذكية.. شخص دون ملامح يثأر لك ويروي رجولتك بدمائها.. ينتزع لك قلبها ويسلمه لك بعد نحرها.

- ما دليلُك على ذلك يا سيادة المقدم؟ لا شيء مجرد اتهام مُرسَل لا أساس له من الصحة.

لحظات من الصمتِ المُطبِق وكأن كلًّا منهما ينتظر ردَّ فعل الآخر.. لعبة حرق أعصاب يتَّبعُها الغندور لعله ينهار ويعترف بأي شيءٍ يساعده بالقضية.. صمتٌ يقطعه الغندور مُعلنًا نهاية اللُّعبة مُؤقتًا:

- هل لديك أقوالٌ أخرى؟

- لا.

- وقِّع على المحضر، ومع السلامة.

تَرَكه الغندور وترجَّل بعيدًا بصُحبة ماهر السائل له:

- أستتركه ينصرف هكذا؟

- لم يفعلها.. وليس لدينا أيُّ شيءٍ ضده حتى الآن. دعك منه.. .هل توصلتَ لشيءٍ فيما كلفتُك به؟

أشار إليه بالإيجاب ساردًا معلوماته:

- الاسم.. جاسر عبد الرسول متولي.. ٢٩ عامًا.. خريج كلية السياسة والعلوم الاقتصادية، بتقدير امتياز.. يتيم الأب والأم.. وكان يعيش ببيت عمه طوال فترة دراسته، وتعرَّض لصدمة عصبية لعدم تعيينه مُعيدًا بالجامعة، وتهجَّم حينها على عميد الكلية، وحُرر محضرٌ بالواقعة، ووقَّع على تعهُّدٍ بعدم التعرُّض للعميد، وأُخليَ سبيلُه رأفةً بحاله بعد التراضي بين الطرفين.. اختفى بعدها فترة طويلة حتى عمُّه لم يعثر له على أثر.

كانت هذه هي تحريات مبدئية عن الشخص صاحب اللحية الظاهر بالكاميرا الخارجية للفيلا مسرح الجريمة.. نظر غندور إلى ماهر مُشجعًا إياه على سرعة جمع هذه التحريات.

- أُهنِّئك على سرعتك يا سيادة النقيب. السرعة هي ما تميز الضابط الماهر عن غيره.

- شكرًا سيادتك، وأظنُّ حضرتك بدأت تقتنع بوجهة نظري بالجريمة.

- أي وجهة نظر؟

- أنها حادثة سرقة، وكما ترى سيادتك هذا المتهم تربة خصبة للانحراف بعدما تحطمت أحلامه.

- لا تتعجَّل النتائج.. فقط تتبَّع خيوط الجريمة واحدًا تلو الآخر دون أن تفكر بحل ألغازها، فنحن ما زلنا بالساعات الأولى.

- هناك معلومة أخرى، جنابك.

- تحدَّثْ.

- تقرير من الأمن الوطني عنه يفيد بتقدُّمه بأوراقه للسفارة الإسرائيلية طلبًا للعمل بإسرائيل،

وقامت السفارة بدورها بمراسلة الأمن المصري كونه إجراء روتينيًّا، ولم يعثر له على أي أثر أيضًا بعدها، ولم يظهر حتى للسؤال عن الوظيفة المُتقدِّم لها.

- شيء عجيب.. ما علاقة نجمة كحبيبة بشخص كهذا؟ ما الرابط المشترك بينها وبين شخص لاهث بالحياة ناقمًا على الوطن؟ أشعرُ بمفاجآتٍ عدةٍ بهذه القضية.

قاطعه شابٌّ وسيم يناديه فالتفت إليه:

- مساء الخير سيادة المقدم.

- مَنْ أنت؟

- أنا بدر غانم رئيس قسم الحوادث بجريدة الخبر.

نَظَرَ إليه الغندور بحدة متناهية.. كيف لصحفيٍّ أن يقتحم مسرح الجريمة والنيابة ما زالت تؤدي عملها؟ ما هذا القصور الأمني المُثير لثورة غضب على وشك الانفجار بعينيه؟!

- كيف دخلتَ إلى هنا؟ ماهر! كُلُّ مَن بالبوابة الخارجية يُستدعى للتحقيق فورًا.

ابتسم له بدر ذلك الشاب الذي لم يتجاوز الثلاثين من عمره:

- اهدأ يا سيدي.. لديَّ معلوماتٌ تُنهي تلك القضية من جذورها.

- أي معلومات؟ هل لك صِلةٌ بالقتيلة؟

- أستاذنك أن نجلسَ ونتحدَّث مُنفردين

نَظَرَ إليه الغندور مُتنهدًا مُشيرًا إليه ناحية أحد الجوانب ليجلسا معًا:

- تفضل.. رئيس لقسم الحوادث وبهذه السِّنِّ، أظنُّ أنك لم تكمل الثلاثين من عمرك.. يبدو أنك نابغة بمجالك، أليس كذلك؟

- نعم.. الأمر أبسط من ذلك.. فخطيبتي هي بنت رئيس التحرير. بالمناسبة.. أنا لم أدخل من البوابة الخارجية.. وَثَبْتُ على السور الخلفي للفيلا، فلا داعي لمحاسبة رِجالك.

- إن لم تتحدث فورًا فسأقبض عليك بتهمة اقتحام مسرح الجريمة والعبث بالأدلة الجنائية.

- هَدِّئ من روعك سيادة المقدم.. أنا هنا لخدمتك.

- تكلَّم.

- انظر معي لهذه الصورة.

أخرجَ حينها مجلة كانت بحقيبته.. عليها صورة للنجمة الراحلة معي.. صورتنا الوحيدة معًا..

- هذا الشخص بجوارها.. يحيى عبد النور بركات. أسمعت عنه؟

- كلا.

- يبدو أنك غير متابع للحركة الفنية يا سيدي.

- ما علاقة هذه الصورة بالقضية؟

- صبرًا.. هذا الشاب.. يبلغ من العمر ٢٥ عامًا.. منذ خمس سنوات قدَّم له والده عبد النور بركات أوراقه بكلية الدعوة الإسلامية.. يحيى كان

شابًّا عنيدًا.. يكره مهنة والده بشدة.. إمام مسجد حارتهم.. حاولَ بكل الطُّرقِ صناعة نسخة طبق الأصل منه بابنه، ولكنه فَشِلَ فشلًا ذريعًا.. يحيى له اهتمامات أخرى، جذبته أحلام الشهرة والفن، كغيره كثيرون.. كان يترك دراسته ويذهب للسينما.. عَشِقَ التمثيل.. لطالما قضى لياليه يحكي لأخته الوحيدة غادة عن أحلامه.. كانت كالأم بالنسبة له.. حذَّرته كثيرًا من غضب والدهما.. وكانت النتيجة المنتظرة.. رسوبَه بالسنة الأولى.. وشجارًا حادًّا بينه وبين والده.. نتج عنه هروبه من البيت وسحب أوراقه من كلية الدعوة وتقديمها بمعهد الفنون المسرحية.. كافح كثيرًا، واعتمد على نفسه.. كان يعمل ليلًا منادي سيارات بشوارع القاهرة، ونهارًا يدرس بالمعهد.. باحثًا عن فرصة واحدة .. فرصة تنقله لعنان السماء .. لم يُنغِّص حياته إلا بُعده عن غادة واحتياجه لحنانها، على الرغم من رؤيته لها خلسةً بعيدًا عن بيتهم بين الحين والآخر.

قاطعه غندور متذمرًا:

- يا سيد بدر، أظنُّ أن المكان غير مناسب لقصصك وتُرهاتك تلك.

- ما أحكيه لك يصبُّ بمصلحتك.. صبرًا لأُكمل.

- تفضَّل.

- ثلاث سنوات ذاق يحيى فيها مرارة عدم تكافؤ الفرص.. شخص بموهبته يرسو به الحال بالوقوف خلف النجوم كومبارس صامتًا.. حتى أتت الفرصة المستحيلة.. إعلان بالمجلة نفسها.. نجمة تبحث عن وجهٍ جديدٍ لبطولة فيلم معها.. تلك كانت الفنانة حبيبة.. مئات المتقدمين الشغوفين، ولكن الفرصة كانت من نصيبه هو.. يحيى بركات.. الفائز ببطولة الفيلم مع حبيبة.. وتحقق الحلم.. أقيمَ حفلٌ كبيرٍ بحضرة الصحفيين وكبار نجوم الوسط الفني على شرفِه.. وتصدرت صورته معها كل المجلات.. لم يدرك يحيى أن القَدَرَ يُخفي له أكثر من ذلك.. قلب حبيبة.. بأقل من شهر نشأت بينهما قصة حبٍّ وُضعت تحت الميكروسكوب.. شابٌّ فقير باحث عن ملجأ لأحلامه ونجمة متعددة العلاقات تقع بحبه.. نزوة جديدة أحبها يحيى.. ولكن سرعان ما انتهت نزوتها وخَسِرَ هو كل شيء.. حُبَّها ودوره بالفيلم.. غُلِّقت أمامه كل أبوابها.. وبُنيت السدود شاهقة.. وأعلنت حبيبة خبر زواجها بالنجم آدم الغريب.. وأصبح هو بطل فيلمها، وكأن يحيى كان دوبليرًا لآدم.. وخرجت التكهنات الصحفية.. حبيبة كانت على خلاف مع آدم فترةً فاستخدمت يحيى طُعمًا لاستفزازه.. وعاد يحيى محطمًا خاوي الوفاض.. تجربة قاسية قضت عليه تمامًا..

- من أين لك بهذه التفاصيل؟

- يحيى كان جاري قبل أن أنتقل للعيش بعيدًا عن تلك الحارة أنا ووالدتي.. وجمعتنا صداقة فترةً قصيرة قبل تركه البيتَ.

- هذا ليس مُبررًا لقتله إياها.. كما أن ذلك الزواج تم منذ عام تقريبًا، فلماذا لم ينتقم لقلبه طوال هذه المدة إن كنتَ على حقٍّ؟

- سيدي المقدم.. ما زالت لقصتي بقية.. أرجوكَ أنصتْ إليَّ.

- أسمعُك.

- قرَّر يحيى العودة لبيتِ والده.. خارت قُواه على الإطلاق، وتكسَّرت أحلامه جميعها.. ليلتها دار بينهما شجارٌ كسابقه.. قيَّده والده وانهال عليه ضربًا حتى فَقَدَ وعيه.. لم يغفر له ضعفه وخنوعه، وكأنه كان ينتظره ليجلده بقسوته الطاغية.. وبهذه الليلة مات الأب.. مصادفة عجيبة.. ارتفاع حادٌّ بضغط الدم تسبب بالوفاة..

- يمكنك تكملة قصتك المؤثرة تلك بوقت آخر.. سعدتُ بلقائك سيد بدر.

قاطعه غندور واقفًا ليُنهي حديثه.. استكمل بدر محاولًا جذب اهتمامه:

- كل ما مضى لا يضعه مَحلَّ شُبهة، ولكن ماذا إن علمتَ أنه قُبض عليه بعدها بأربعة أيام بتهمة الشروع بقتل السيد شريف زيدان، وحُكم عليه بالسجن المُشدَّد خمس سنوات.

- مَن شريف زيدان؟

- مخرج الفيلم الذي اختاره من مئات المتسابقين، وعَرَضَه على حبيبة بصفتِه الفائز الأول.

لمعت عيناهُ مُتحفزًا.

- ثم؟

- حينها التزم يحيى الصمت بكل مراحل التحقيق.. كان مذهولًا مما يُعايشه.. أبعدَ حُلم الشهرة والمجد يضيع مستقبله بهذه الطريقة؟ أجريتُ وقتها تحقيقًا صحفيًّا يربط جريمته تلك بالنجمة حبيبة، وكيف أن نزواتها واستهتارها أضاعا شابًّا بمقتبل العمر.. حينها.. أجريتُ حوارًا مع أخته غادة.. كانت منهارةً، ولكنها حاولت بكل الطرق إخباري بكل شيء عن أخيها ليصل للرأي العام.. للحقِّ كانت دقيقة للغاية، فذاكرتها تحمل الكثير من التفاصيل عن حياته، ربما أكثر من أخيها.. تحقيق صحفي يُدمع العيون لا محالة.. لكن للأسف مُنع من النشر بعلاقات الفنانة المتشعبة، بل لم يُذكر اسم حبيبة بأي جريدة تحدثت عن جريمة ذلك الشاب، واكتفوا بخبر صغير عنه، وأُقفل الموضوع تمامًا.

- تقصد أن ذلك المدعو يحيى هو المدبر لتلك الجريمة من خلف القضبان؟

تنهَّد بدر حينها ليلقي بقنبلته الموقوتة أمام الغندور:

- يحيى نجح بالهروب من سجنه منذ سبعة أيام.

- ماذا؟

- أسمعتَ عن تلك المحاولة لاقتحام سجن مزرعة طرة؟

قاطعه.

- نعم.

- استطاع سبعةٌ من المساجين الفرار، وكثفت قوات الأمن حملاتها لضبط الهاربين، واستطاعت بوقت قليل العثور على أغلبهم غرقى بالنيل لسبب غير معلوم.. عثروا على ستة من السبعة وبقي واحدٌ فقط لم يُعثر له على أي أثر.. يحيى عبد النور بركات.

- الآن اتَّضحت الصورة كاملة.. يحيى بركات.. عائد ليستكمل انتقامه ممن حطموه.. لينحر حبيبته السابقة أمام جمهورها.. وينتزع قلبها بعيدًا عن عيونهم.. ليبقى له بمفرده دون شريك.. ولحُسن حظِّه وجدها هنا بفيلتها لشجارها مع زوجها الليلة الماضية. أتعرف بيته؟

- أعرفه، ولكنْ مؤكدٌ أنه لن يلجأ لهناك أبدًا، بالإضافة أن قوات الشرطة بحثت عنه هناك بعد هروبه.

- هناك مَن يعرف مكانه بكل تأكيد.

- من؟

- صندوقه الأسود.. أخته غادة.

***

الميديا على صفيح ساخن.. وكأن مصر باتت خاوية من الأزمات والجرائم كافة إلا جريمة واحدة شغلت الجميع.. أصبحت حديث الساعة بكل مكان.. حتى مرتادو المقاهي الشعبية يتابعون القضية من كثبٍ برغبات مُلحة لمعرفة الجاني.. ذلك البهلوان العجيب الذي أثارَ الرعب بنفوس الفنانات كافة.. تكهنات مرعبة حول شخصيته.. أيكرر جريمته مع أخرى؟ أهي جريمة شخصية أم جريمة عامة ستطول آثارها الجميع؟

وقف أمام مرآة متهالكة شاردًا بحاله.. لم يتوقع يومًا أن يصل به الحال لهذا الحدّ من الضياع.. شابٌّ ناجح بدراسته تحدَّى كل الظروف الحياتية الصعبة ليبقى في مقدمة أقرانه.. ويحصل على تقدير امتياز بكليته ليخرج لطاحونة الفساد الكبرى التي لا ترحم.. أولئك المنادون بشعارات كاذبة تقتل أحلامه... المساواة.. العدل.. العدالة الاجتماعية.. شعارات تلوكها ألسنتهم بعيدًا عن أرض الواقع.. جاسر عبد الرسول.. مرفوض للتعيين

لسبب بسيط تسرب لمسامعه ببداية مشواره الدراسي، ولكنه لم يصدقه مطلقًا.. ليس من أبناء هيئة التدريس.. مؤكد هناك استثناءات.. مؤكد هناك شرفاء يدافعون عن النبغاء أمثاله.. هكذا كان حلمه.. ودارت به دوامة الحياة ليخرج منها شخصًا آخر ناقمًا على كل شيء.. كارهًا، مُحبًّا للانتقام.. لطالما رقص قلبه فرحًا كلما أستمع لخبر مهاجمة كمين للشرطة هنا أو هناك.. تمنى لو تنقلب الدنيا على كل من يمثل تلك البلد القاسية على أولادها.. وصار حُلمه الوحيد الخروج منها لأي مكان بعيد حتى وإن كان إسرائيل.. سقطت دموعه حُزنًا على حاله.. ما زال لديه بقايا إنسان.. همس لنفسه وكأنه يحدثها بالمرآة:

- لو كان هناك عدلٌ.. لكنتُ الآن بأحسن حال.. مُعيدًا بكلية السياسة والعلوم الاقتصادية، أو مُعينًا بالسلك الدبلوماسي، وربما مرشحًا لمنصب سفير.. ملعون هذا البلد.. ملعون.

مَسَحَ دموعه لتعود تلك النظرة المحتلة لوجهه منذ فترة.. شَرٌّ لا نهاية له.. شَرٌّ سيحرق كل شيء بدءًا من تلك الغرفة القذرة بالمقابر التي يتخفَّى بها عن عيون الجميع.. غرفة كالقبر إن لم تكن أقسى.. رائحة الموت ترفرف حوله ليل نهار.. خلع جلبابه المتسخ وارتدى بنطالًا وقميصًا أسودي اللون.. عاهَدَ نفسه ألا يخلع ذلك السواد إلا خارج ذلك البلد العفن.. دولابه الهزيل

متشح بالسواد دومًا.. وذلك المصباح المتدلي بمنتصف الغرفة المتصارع حوله دبابير لا ترحل.. اعتاد العيش معها.. لعلها أرحم وأوضح.

مَدَّ يده على منضدة قريبة تحمل تلفازًا صغيرًا، وفتح حقيبته الصغيرة.. أخرجَ منها قلب حبيبة.. ذلك القلب المنزوع من بين ضلوعها.. برقت عيناه بحقدٍ لا يُحتمل.. انتابته رعشةٌ مفاجأة.. يبدو أن القلب باردٌ للغاية.. كانت حقيبته ممتلئة بالثلج لتحتفظ بقلبها.. ابتسم ناظرًا إليه ساخرًا:

- لا حاجة لك الآن.. ترى؟ ماذا أفعلُ بك؟ أأرميك لقطط المقابر المتوحشة؟ أم أقطعك وأضعك على طبق كشري بالصلصة الحارة؟ أتظنُّ أن لك طعمًا جيدًا؟ سمعتُ عمَّن يأكلون قلوب الكلاب والخنازير.. لكن قلوب بشر؟ سأكونُ أولُ من يتناول عشاء دسمًا بمائدة على رأسها قلبٌ، قلبُ حبيبة.

ضحكات هيستيرية لا تتوقف.. كان كالمجنون بذلك المكان الموحش.. قذفه أرضًا وغسل يديه من آثار دمائه بصنبور صغير خارج من حائطه المتشقق.. أدار بعدها تليفزيونه الصغير.. موسيقا راقصة لأغنية «شيك شاك شوك».. مشهد من فيلم للراحلة حبيبة بأحد الأفلام تتراقص عليه ببدلة رقص مثيرة.. تمايل معها بنظرات جنونية مخيفة.. وكأنه يرقص معها متلهفًا عليها.. تتلاعب الكاميرا بين مفاتنها.. وكأن مخرج ذلك الفيلم

يعرف مواطن موهبتها جيدًا ويركز عليها.. اندمَجَ جاسر بالرقص لاهثًا.. وضحكاته تتزايد.. ضحكات برائحة الموت.

***

وَقَفَ راشد الغيري ذلك المراسل الماهر ذو الأذرع الخفية بموقع الحادثة.. فعلى الرغم من سيطرة رجال الأمن على مسرح الجريمة، ومنع تسريب أي أخبار للتحقيق، فإنه قد يعرفها في اللحظة نفسها وربما قبلهم.. تحدَّث ببثٍّ مباشر أمام فيلتها..

- حصريًّا لقناة العاصمة نذيع ذلك الخبر لأول مرة.. جثة النجمة حبيبة منزوعة القلب.. فقد شَقَّ المجرم صدرها مُنتزعًا قلبها وخرجَ به.. ولذلك نظنُّ أنها جريمة عاطفية، وعرفنا من مصادر موثوق بها أن قوات الشرطة حصرت المشتبه بهم بهذه الجريمة بشخصين، الأول يُدعى جاسر عبد الرسول.. التقطته كاميرات المراقبة بالفيلا، ومُشتبه باشتراكه مع المشتبه به الأول المدعو يحيى عبد النور بركات، ذلك الشاب الذي ترددت الأقاويل منذ عام عن علاقة بينه وبين النجمة الراحلة حبيبة قبل زواجها بالنجم آدم الغريب.. وجارٍ البحث عنهما.

سقطت هذه الكلمات كالصاعقة على أذنيَّ.. لم أقتلها.. كنتُ نائمًا، أُقسمُ بذلك.. ولكن من سيصدقني؟ سيعدمونني ظُلمًا.. أغلقتُ ذلك التليفزيون

الكاذب.. كنتُ متوترًا لأبعد الحدود.. لا مَفرَّ من الهروب حتى تتضح الحقيقة.. إن أمسكوا بي الآن فستنتهي قضيتهم عند ذلك الحد وسيقدمونني فريسة لحبل المشنقة الذي لا يرحم.. سأفِرُّ بعيدًا...

صوت أقدام متسارعة تقتربُ.. أبهذه السرعة أتوا؟ يا إلهي! ماذا أفعل؟ كنتُ كالفأر الموشك على الوقوع بمصيدة ستقتله.. سبق السيف العذل.. الفرار أو الموت.. خبطات متتالية على باب غرفتي الخشبي.. خبطات مرعبة.. وكأنهم يحاولون كسره.. هُرعتُ إلى حمامي الصغير.. سأخرج من نافذته، وأنزلق على مواسير هالكة قد تُنهي حياتي.. مخاطرة كبيرة، ولكن لا مفر.. إنها الأمل الأخير.. نزعت تلك الستار لأستعدَّ للخروج من النافذة العلوية فوق ذلك المسبح الصغير.. ذهول منقطع النظير.. وقفتُ مكاني جاحظ العينين، مُرتعش القلب من هول ما رأيتُ.. حينها كُسر الباب، ودخلَ من بالخارج.. كانت جثتي ممددة بمسبحي الصغير محتضنًا جثة لقطة متعفنة منتفخة.. الآن أدركتُ مصدر تلك الرائحة.. انها رائحة جثتي وجثتها.. لم يكن الكاسرون لباب غرفتي من قوات الشرطة.. إنهم جيراني.. كتموا أنفاسهم من هول الرائحة

- لا إله إلا الله.

- يبدو أنه فارقَ الحياة منذ فترة.

- الرائحة لا تُحتمل.

- هيا يا رجال احملوه للخارج.

- حسنًا.

أهناك تفسير منطقي لما أرى؟ أهذا الكابوس اللعين بقية؟ أما زلتُ نائمًا وسأصحو مفزوعًا بأي لحظة؟ حملوا جثتي العارية وخرجوا لسريري الصغير تاركين تلك القطة بالمسبح بمفردها.. وضعوا جسماني مُمددًا، وأسدلوا عليه غطائي.. نظرتُ لعينيَّ.. إنها النظرة الشاخصة نفسها بكابوسي لهؤلاء المارين تحت مسارح النساء.. نظرة الموتى بلحظتهم الأخيرة بالحياة.. أحدهم يمدُّ يده ليغلقهما.

- الله يرحمك يا يحيى.

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

صرختُ بهم:

- كفى.. أنا ما زلتُ على قيد الحياة.. أتسمعونني؟ ما زلتُ حيًّا.. هذا كابوس.. أليس كذلك؟ كابوس لعين.

لا أحدَ يراني.. لا أحدَ يسمعُني.. أولئك الحزانى الصامتون.. المتابعون من كثبٍ تلك اللحظة المهيبة.. حينها ظهرت أختي العزيزة غادة.. وقفت

على باب الغرفة والصدمة تهزمها.. تُجرجر قدميها بصعوبةٍ ودموعها لا تتوقف.. نساء حارتنا جميعهن بسطوح بيتنا يصرخن ويولولن.. وطبيب يدخل ليكشف على جثتي بسماعته الطبية.. وقفت غادة تنظر إليه على أمل ضئيل بأي طوقٍ للحياة.. تنهَّد الطبيب ناظرًا إليها:

- للأسف فارقَ الحياة منذ أكثر من ثلاثة أيامٍ نتيجة ارتفاع حادٍّ بضغط الدم.

كان أمرًا هينًا على الطبيب ليعرف ذلك.. فهو يعرف تاريخي المرضي، فقد كنتُ أعاني اضطرابات ضغط الدم كوالدي منذ خمس سنوات.. ولطالما ألحَّ على أبي أن يعاملني بلينٍ مراعاةً لحالتي، ولكنه لم يَستجِب لنصائحه.. تمنيتُ كثيرًا أن يصير ذلك الطبيب والدي.. جوزيف سمعان.. رجل طيب وحيد لم يتزوج ، انتشر الشيب برأسه، وعلى الرغم من فقر حارتنا فإنه لم يغادرها ساكنًا وطبيبًا، وكأنه كالأسماك تعرف جيدًا أنها ستموت إن خرجت من مائها.. حاول كثيرًا الإصلاح بيننا دون جدوًى.. لم أنسَ تلك المرات القليلة التي اصطحبني فيها بسيارته قديمة الطراز لمدرستي بحُجة أنها بطريقه لعمله الصباحي.. كم كان حنونًا وعطوفا! وآلمه كثيرًا موت والدي على الرغم من قسوة طِباعه المُنفِّرة.. أتذكره يوم دفنه حينما احتضنني مُربتًا عليّ بحنانٍ شديد.

- اطلب له الرحمة يا بني فمهما يحدث هو والدك. وأرجوك إن احتجتَ لأي شيء فلا تتردد بزيارتي.

سالت دموعه وهو يكتب تقريره بوفاتي وسببها لتُستخرج لي شهادة الوفاة.. اقتربت من جمعهم.. نظرتُ إلى جثتي متألمًا غير مُصدِّقٍ.. انهارت غادة تمامًا صارخةً:

- يحيى.. لمن ستتركني.. سأعيشُ وحيدةً، لا أمّ ولا أخ ولا أب.. يحيى.. أجبني.. خُذني معك.. لا أرغبُ الحياة بعدك.

- وحِّدي الله يا ابنتي.. لله ما أعطى.. إنه استردَّ وديعته.

اقتربتُ منها وأمسكتُ رأسها بكلتا يديَّ.. وأُسدل الغطاء على جثتي بالكامل.. مسحتُ دموعها التي لا تتوقف.. نظرتُ بعينيها الحمراوين من فرط البكاء.

- لا تبكي يا غادة.. أنا هنا بجوارك.

وكأنني والعدم سواء.. موقف فريد من نوعه.. هل بصرت جثتك أمام عينيك يومًا ما؟ أشممتَ رائحة تعفنها وملأت أنفك؟ شهدت على موتك لحظة بلحظة؟ لا أصدق ما تراه عيناي.. أهذا ما يحدث بعد الموت.. أأنا روح تتابع وعاءها القديم وهو بطريقه للانزواء تحت الثرى؟ مَن يدري؟ فلم يَعُدْ مِن قبل أحدُ الأموات ليقصَّ علينا ما دار بلحظات موته.. وهأنا روح وجسد

منفصلين، كلاهما يستعدُّ لرحلة بعيدةٍ مجهولة.. كل ما أشعر به الآن هو الرغبة بالبكاء.. شاركتُ أختي بكاءها وعلا صوت النساء المنتحبات.. كجزء من تقاليد فولكلورية متكررة بمثل هذه المناسبات.. صراخ ظاهري لا يتخطى حناجرهن، وربما تُهرع صاحبتُه بعدها لتتابع مسلسلها التركي المفضل بعد دفني.. صوت سارينة الشرطة يقترب.. ها هم وصلوا متأخرين.. علامَ ستلقون القبض؟ على جثتي المتوفاة منذ ثلاثة أيام.. أم على روحي المذهولة؟ ما يُثير جنوني.. كيف رأيت جريمة قتل حبيبة؟ كيف؟

أقدام عسكرية تقترب.. يقتحمون غرفتي بقسوةٍ متناهيةٍ حاملين أسلحتهم بوجوه الجميع.. دخل بعدها ضابط الشرطة محمود غندور بعينين حادتين تقتربان من فريستها.

كان بصُحبته صديقي القديم الصحفي بدر غانم.. الناجح بامتياز بالخروج من حارتنا.. كان يكبرني ب ٤ سنوات تقريبًا، ولكنني كنتُ أحسبُه دائمًا أكبر من ذلك.. جمعتنا اللجان الشعبية وقت الثورة وقوفًا أمام الانفلات الأمني.. حينها كان بالسنة الأخيرة بكلية الإعلام.. طموحه أكبر سماته.. طموح حالم بمستقبل بعيد عن هذه الحارة الضيقة.. بعيد عن وجوه ساكنيها المدفونة بأتربة الفقر والرضا الكاذب بالحال.. تشاركنا الأحلام بليالي البرد القارس.. والخطر يحوم حولنا بكل لحظة بأخبار معظمها غير حقيقي..

مسلحون سيقتحمون.. لم نرَ منهم واحدًا.. كان الوحيد العارف برغبتي بالتمثيل.. حتى قبل أختي غادة.. كلماته كانت القدوة المستحيلة.

- الإنسان ميت إن مات طموحه.. بدون كفاح لن يأتي المستقبل.

شعارات حاربتُ لأجلها ورأيتُه يُحقِّقُها يوم انتقاله من هنا لبعيد.. بيت جديد وحياة جديدة.. واسم يلمع يومًا بعد يوم.. لم يعد من وقتها.. أجاء اليوم ليغطي خبر وفاتي أم خبر القبض على قاتل النجمة حبيبة؟ تبًّا للأيام فكلانا حالمان! واحد امتلك دنياه بكلتا يديه، والآخر سينزوي تحت التراب قبل أن يعيش.. تفحص غندور وجوه الجميع واقترب من جثتي المغطاة.. جذبَه صُراخ النسوة فأمر قواته بالصعود بعدما قام بتفتيش بيتنا بالأسفل كاسرًا بابه دون استئذان.. نزع الغطاء.. برقت عينا بدر.. رأيت الدموع يخفيها بداخلها.. نظرا لبعضهما البعض.. سألته غادة بصعوبة مرتعشة الصوت.

- خيرًا يا حضرة الضابط؟

- أهذا يحيى عبد النور بركات؟

- نعم، إنه المرحوم.. أخي.

- ما الأمر يا سيادة المقدم؟

سأله الطبيب متعجبًا.. لاحَقَه بدر قبل أن يُجيب:

- لا شيء يا دكتور جوزيف.. لا شيء.

- اتركوه بحاله.. أخي مات وترك الدنيا لكُمْ تهنؤونَ بها.. مات دون حتى أن أُودِّعه.

انهارت غادة بالبكاء أكثر وأكثر.. سأل الغندور بحرجٍ شديد:

- كيف حدثت الوفاة؟

- ارتفاع حادٌّ بضغط الدم.. جيرانه اشتموا رائحة عفنة مصدرها تلك الغرفة. وأخته أخبرتهم أنها مغلقة منذ فترة كبيرة، ولكن مع ازدياد الرائحة كسروا الباب فوجدوه قد فارقَ الحياة منذ ٣ أيام على الأقل.

هكذا شرح الطبيب للغندور..

ربت بعدها على كتفي غادة مواسيًا إياها.

- أرى أن يُنقل لشقتكم بالأسفل لتغسيله حتى أنهي إجراءات الدفن.. إكرام الميت دفنه.

أشارت له بالإيجاب.. نظر للرجال طالبًا منهم نقلي للأسفل.. حملوني وخرجوا بمشهد تقشعر له الأبدان.. صراخ وعويل وجثتي المحمولة لمثواها الأخير فوق رؤوسهم.. إنها الدنيا لا نُحمل فوق الرؤوس إلا جثثًا هامدة

أو إن كنا ذوي سلطة ومال.. وكان نصيبي من الأولى.. مجرد جثة متعفنة.. خرجتُ أتابع جثتي وسط عويل تقشعرُّ له القلوب.

وقفتُ على باب سطوح بيتنا والتفتُّ لـ(غيّة) الحمام والدموع بعيني.. أتبكي الأرواح أيضًا؟ ظننتُ أن البكاء صفة بشرية تنتهي بخروج الروح.. كنت مخطئًا.. فدموعي تتلاحق حزنًا على حالي.. ترى؟ هل سأعود لهنا مُجددًا أم هذه هي المرة الأخيرة؟

قدماي تجبرانني على الرحيل.. وكأن هناك من يتحكم بهما غيري.. تحركت رغمًا عني للأسفل وراءهم.

لحظات من الصمت والترقُّب بعيني ذلك الضابط المخضرم محمود غندور الواقف بمنتصف غرفتي متفحصًا إياها وسط قواته، مُحاولًا ترتيب أفكاره من جديد.. قطع صمته الصحفي بدر غانم:

- عذرًا يا سيادة المقدم.. يبدو أنني كنتُ مخطئًا باتهامه.

ترجَّل بالغرفة.. مَدَّ يده ليفتح دولابي ليفتشه لعله يجد شيئًا ما يساعده بهذه القضية اللعينة، وقعت عيناه على عباءة سوداء، ونقاب باللون نفسه.. نظر إلى بدر ماسكًا إياهما:

- عباءة ونقاب.

- أنسيتَ جنابك أنه هارب من السجن؟ مؤكد أنها كانت طريقته بالتخفي والدخول والخروج

هنا.

تركهما واستكمل تفحصه للغرفة بعينيه.. تبعه بدر:

- أظنُّ أنه لا داعي لوجودنا الآن.. فلننسحب بهدوء.

- كلا.. هذه القضية حلُّها يبدأ من هنا.

- كيف؟

- أتعرف أخته جيدًا؟

- سيادة المقدم.. لا داعي لإلقاء التهم جُزافًا، ويكفي حُزنها ومرارتها لفراق أخيها، وأظن فيديو الجريمة واضح للغاية أن منفذه رجل وليس امرأة.

- وما يدريني أنه لم يمت بعد تنفيذه الجريمة؟

- ألم تسمع دكتور جوزيف؟

- هذه جريمة قتل وهو المشتبه الأول بها.. يجب أن تخضع جثته للتشريح.

- غير قانوني.

نَظَرَ إليه بتحدٍّ:

- لا يوجد قانون يتيح لك تشريح جثث المشتبه بهم حتى وإن كانوا هاربين من أحكام قضائية، إلا إذا ماتوا مقتولين، وكما ترى الوفاة طبيعية.

- يبدو أنه كان صديقَك جدًّا.

- يبدو أن جنابك تناسيتَ أنني جئتُك وأبلغتك عن احتمالية تنفيذه الجريمة بنفسي!

- حسنًا.

- أظنُّ أن علينا الرحيل الآن، فالرائحة هنا لا تُطاق.

خَرَجَ بصُحبة رجاله والشكُّ يُسيطر على عقله تمامًا.. هاجس ما يتردد برأسه يخبره بأن الجاني هنا حوله.. يراقبه ويسجل ردود أفعاله.. خرج وهو يدرك أنه حتمًا سيعود.. كان الغندور مثابرًا لأبعد الحدود ويعرف أن أغلب المجرمين يخطئون من فرط غرورهم.. وما عليه سوى انتظار سقطة ذلك المجرم.. صافَحَه بدر أمام بنايتنا فسأله الغندور:

- ألن تأتي معي لأوصلك لأي مكانٍ تريد؟

- نعم.. سأبقى حتى الدفن.

- حسنًا.

- سعيك مشكور يا سيادة المقدم.

وانصرف ورجاله، وبغمضة عين ابتعدت الشبهات تمامًا عني بموتي.. وقبل أن يبدأ المُغسِّل بتغسيل جثتي أعلن المراسل الدؤوب راشد الغيري خبر وفاتي قبل الجريمة بثلاثة أيام على عهدة مصدره الموثوق به.. أو لنقل أحد مصادره المهمة.. الصحفي المشاكس.. صديقي القديم بدر غانم.. تاركًا للرأي العام شرها لمعرفة شخصية ذلك البهلوان القاتل ومساعده جاسر عبد الرسول بتفسير بعض مذيعي برامج التليفزيون.

كنا بغرفتي القديمة.. صورة والدي المُعلَّقة أمام باب غرفتي تُثير حنقي.. هذا العجوز الراحل هو سِرُّ تعاستي.. صوت القرآن العالي الممتزج بعويل تلك النسوة يخنقني.. ساعتان من العذاب.. وددتُ لو صرختُ فيهم:

- صه.. كفى نُواحًا.

وددتُ لو أطردهنَّ وأجلس بأحضان أختي أشاهد تغسيلي بهدوء.. حاولتُ تذكُّر أيامي الأخيرة وأحداثها.. لا شيء بذاكرتي المُشوَّشة.. ما زلتُ مصدومًا، غائب العقل.. العجيب بالأمر أنني لا أرى أي شيء خارج نطاق المنطق حولي.. لا ملائكة ولا شياطين.. فقط بشر.. فليأتِ أبي القاسي القلب

ليرى ما أضاع عمره لأجله.. فأنا روحٌ كُشف عنها الحجاب، ولا ترى ما رواه لي ولغيري..

تقترب الساعة من الحادية عشرة ليلًا، وخرجت جنازتي أمام عينيَّ بعدما شهدتُ تغسيلي وتكفيني.. صراخ وعويل مستمران حتى مثواي الأخير.. أو للحق هو مثوى جسماني الأخير أما أنا روح لا تعرف وجهتها.. قدماي تجبرانني على طريق واحد مربوط بجثتي حتى الآن.. أتحركُ يمينًا ويسارًا كما يحلو لي، ولكن بحيِّز لا أتعداه.. حاولتُ السير بعيدًا عكس اتجاههم دون جدوى.. يتناوبون ترديد كلمة التوحيد طوال الجنازة:

- لا إله إلا الله.

- لا إله إلا الله.

وهؤلاء المارة يشاركون برفع سبَّاباتهم والهمس بها سِرًّا.

أرى بدر غانم يشاركهم تشييع جنازتي.. بعدما انصرف الضابط ومن معه من قوات الشرطة.. وغادة أختي الحبيبة.. أُشفق عليها من دنيا غادرة.. اقتربتُ ناحيتها.. أعلم أنها لن تراني.. ولكن ربما تشعر بي.. أمسكتُ يدها وقبَّلتُها.. مسحت دموعها المنسابة بغزارة لا تتوقف.. همست بأذنها:

- لن أنساك أبدًا.. أحبُّك.

ومضيتُ بجنازتي ممسكًا بيدها محتضنًا إياها.. كنتُ خائفًا.. خائفًا من المجهول.. لم أتخيَّل ولو لحظة ذلك الموقف المهيب.. شاب يحضر جنازته.. روح ضالة لا تعرف مصيرها.. مضينا معًا مستسلمًا باكيًا.. لا أدري كم مَرَّ من الوقت حينها حتى وصلنا المقابر.. انعدم الزمنُ والإحساس به.. وددتُ لو صرختُ بهم بهذه اللحظة:

- فلتنتظروا حتى الصباح.. لِمَ تدفنونني ليلًا هكذا؟ ألهذا الحد لا تتحملون رائحتي ولو ليلة واحدة؟

المكان موحش للغاية.. ليلة بلا قمر ومصباح صغير يحمله التُّربي أمام الجنازة.. وفتى في الخامسة عشرة تقريبًا من عمره انتُهي لتوِّ من تجهيز مقبرتي.. وشاهد قبر مكتوب عليه عبد النور بركات.. صرختُ عاليًا:

- لاااااااااااا.. لا تدفنوني معه.. لا أريدُ المكوث بجواره هاهنا. الأفضل لي أن أُدفن بمقابر الصدقة على البقاء هنا بجواره.

وقف أحدهم يدعو بصوت جهوري وهم يُدخِلون جثتي القبر رغمًا عني:

- اللهم إنه عبدك بن عبدك يحتاج إلى رحمتك، وأنت غنيٌّ عن عذابه، فارحمه. اللهم أنزل نورًا من نورك عليه، اللهم ارحمه فوق الأرض وتحت

الأرض ويوم العرض عليك . اللهم قِهِ عذابك يوم تبعث عبادك. اللهم نَوِّر له قبره ووسع مدخله وآنس وحشته، اللهم اجعل قبره روضة من رياض الجنة لا حفرة من حفر النار، اللهم اغفر له وارحمه واعفُ عنه وأكرم نُزله، اللهم انقله من ضيق اللحود، ومن مراتع الدود إلى جناتك جنات الخلود، لا إله إلا أنت يا حنان يا منان، يا بديع السموات والأرض. ادعوا لأخيكم فإنه الآن يُسأل.

لحظات عصيبة لن تُنسى.. دخل جثماني القبر ووقف الجميع صامتين.. انقطع صوت نحيبهم وبكائهم فجأة، وكأنهم تحولوا لأصنام لا تتحرك.. وجوههم ثابتة، وكأن الدنيا تُعلن عن آخر لحظاتها مع روحي.

-هؤلاء ليسوا قومك.. هلمَّ فاستشرف مجهولًا ينتظرُك.

صمت مخيف يخترقه صوت رعد يخطف القلوب بالسماء.. حانت اللحظة المرتقبة..

-يا ويلتي.. ما كنتُ مستعدًّا ليومٍ كهذا.

ازداد بكائي ونحيبي.. قدماي تجبرانني على السير تجاه قبري.. قاومتُ بكل قوة لديَّ.. زحفتُ أرضًا بين أقدامهم أُمسك بها متوسلًا إليهم:

-لا تتركوني هنا.. لا تتركوني.

وكأنهم أعجاز نخلٍ خاوية.. لا روح فيها.. تتنقل يداي بين أرجلهم الواحد تلو الآخر لعلني أنجو.. قوة جذب رهيبة تدفعني ناحية القبر الملعون.

- لاا.

وباللحظة الأخيرة رأيته.. ذلك الغراب الأبقع اللعين يأتي من بعيد ضاربًا بجناحيه أملي الأخير بالنجاة.. وقف أعلى قبر آخر يواجه قبري.. رأيتُ تلك النظرة بعينيه.. نظرة الانتصار.. وأُغلق باب القبر بعد دخولي.. كان وجهه آخر ما رأيتُ بالدنيا.. عَمَّ الظلام لحظات.. ذُعر منقطع النظير.. هواجس لا تنتهي تسيطر عليَّ بتلك اللحظة.. عذاب مجهول مُنتظر.. أرى جسدي ممددًا بكفنه تحت قدمي.. وصوتٌ عجيب يتسرب لأذنيَّ.. تعجبتُ كثيرًا حين أنصتُّ إليه.. التفتُّ خلفي مبرق العينين.. ذهول تامٌّ لما أرى.

ذهول منقطع النظير.. ومجهول يدنو واقفًا على بابه ليعلن العجب العجاب.. الليلة

الأولى بقبري.. قبر يحيى عبد النور بركات.

***

النبشة الثالثة (جاسر عبد الرسول)

(قبل ذلك بساعتين)

أيقظتني زوجتي من سُباتٍ عميق كعادتها كل ليلة؛ لتخبرني بازدياد تلك الرائحة الكريهة التي لا تعرف مصدرها.. احتضنتها مُشفقًا عليها.. فلم أقوَ على إبلاغها بأن تلك الرائحة لجثتها.

تصفيق حادٌّ يرجُّ القاعة الكبرى للاحتفالات بالفندق ذي الخمس نجوم على ضفاف النيل.. امتلأت القاعة بمختلف الأطياف الأدبية احتفالًا بحفل توقيع رواية جديدة للكاتب المصري يعقوب إدريس الواقف على منصة عالية ليلقي عليهم بعض المقاطع من روايته "أحداث منتصف العالم" المرشحة لجائزة البوكر العالمية، وهو ذاته من أقوى المرشحين لنيل جائزة نوبل هذا العام بعدما تخطت مبيعات روايته تلك حاجز المائة ألف نسخة في أقل من أربعة شهور منذ انطلاقها.. ذاعت شهرته منذ خمس سنوات برواية تُهاجِمُ الصهيونية بالعالم أجمع، تحكي عن قصة حُبٍّ بين رجل دين صهيوني من حاخامات اليهود وفتاة تصغُرُه بعشرين عامًا تعتنق الدين الإسلامي، جمعتهما المصادفة وقصة هروبهما من إسرائيل واعتناقه للإسلام حتى القبض

عليه.. رواية «صهيوني على ضفاف الحب» . .قصة عشق فضح فيها دموية الصهيونية بوجهها الحقيقي وقسوتها وضعف حجة معتنقيها.. يعقوب إدريس.. اسم لن ينساه التاريخ.. ستخلده أعماله الغرائبية المعتمدة على أفكار لم يتناولها أحد من قبله.. فبات أشهر كُتَّاب زمانه بوقت قصير.. ذلك الرجل ذو الخمسين عامًا العائد من بلاد بعيدة لبلده وأصل منشئه مصر.. عاش شبابه بإيطاليا مع والده رجل الأعمال اليهودي إدريس صنوع.. فيعقوب اعتنق الإسلام مُؤخرًا وترك اليهودية مستشرفًا عالمًا جديدًا بقلبٍ نَضر.. وكأنه يُولد من جديد.. ولعل لجدِّه الراحل السبب في ذلك.. كان جدُّه صنوع تاجر أقمشة بحارة اليهود بالقاهرة التي لم يعرف غيرها منذ ولادته.. بلد عشق ترابه وكبرت أحلامه به.. ذاب بين شوارعها وذكرياته بكل مكان فيها.. لذلك البلد عبقٌ لا يعرفه إلا الراحلون عنه.. عبقٌ تشتمه بمجرد الوقوف على أرضه وكأن مِسْكًا دُفن بها منذ آلاف السنين.. عبق التاريخ.. كان أكثر المعارضين للمشروع الصهيوني بفلسطين ورفض الهجرة قبل عام ١٩٤٨ وبقيَ ببلده التي لا يعرف غيرها، مصر، متعلقًا بكل ذرة تراب بأرضها، وعلى الرغم من محاولات عدة وإغراءات لا حصر لها للهجرة لكنه تشبَّث بموقفه.. فضَّل الموت بمكانه على العيش بأرض هو ذاته يعلم أنها مغتصبة.

كم دافَعَ عن حرية بلاده بمظاهرات عديدة.. خرج وراء أحمد عرابي بصباه، وضد الإنجليز بشبابه، وكان من المغرمين بسعد باشا زغلول.. اعتبره مثلًا أعلى له ولغيره.. كان رجلًا وطنيًا من الطراز الأول.. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. ففي ليلة لم ينسَها مطلقًا حتى مماته.. اعتقلته الشرطة المصرية بتهمة التعاون مع منظمات صهيونية بفلسطين.. تهمة لم يعرف مصدرها.. دافَعَ عن نفسه كثيرًا دون جدوى.. وانتهى به الأمر إلى النفي الجبري لإيطاليا.. ووجد نفسه طريدًا، وأهله لبلاد لا يعرفها.. عانى كثيرًا بعدها، وساءت حالته النفسية، وانعزل عن الجميع.. لطالما حاول ابنه الوحيد إخراجه من تلك الحالة العصيبة، ولكن ذهبت جهودهم هباء.. عاش سنوات منعزلًا فاقدًا النطق.. ومات الرجل بعيدًا عن وطنه.. مات دون أن يعرف السبب.. لماذا لَفظهُ وطنه؟ وترك وراءه حقدًا وكرهًا متوارثين بقلب ابنه الذي تحدَّى العالم أجمع حتى أصبح من أهم رجال الأعمال بإيطاليا، وتربَّع على عرش إمبراطوريته العظمى .. ولكن الحفيد -يعقوب إدريس- اختار العودة لبلده القديم الذي عَشِقَه جدُّه الراحل قبل مجيئه للحياة.. ذات ليلة عثر يعقوب على مذكرات دوَّنها جدُّه عن حياته بالقاهرة.. اشتمَّ عَبَقَها من بين سطورها.. تعرف إلى ملامحها.. شوارعها.. طبائع أهلها.. أحبها غيابيًا من حلاوة كلماته عنها.

- مع كل صباح تشرق الشمس أمام عيني، وترمي الدفء بقلوبنا، وأخرج للعمل باحثًا عن لقمة العيش بابتسامات زبائني وجيراني، وأنا على ثقة بأن خالق هذه الشمس لن يَخذُلني ما حييت، وهل هناك سعادة أكثر من العيش هاهنا بهذا البلد الرائع؟ وطن يحتضننا جميعًا.. هنا فقط يُصلب الخوف خارجه.. فمصر وأهلها في رباط إلى يوم الدين.. هكذا يقولون.. ذكرها الله في القرآن الكريم.. كتاب المسلمين.. وكثير من اليوميات سلبت خياله.. تمنى يعقوب العيش بها.. جذبته تلك الكلمات المُدوَّنة بآخر مذكراته:

-التسامح هو المنجى.. وهذا ما يدعو إليه ذلك الدين، لكم تمنيتُ عمرًا فوق عمري لأبحث بين دروبه وتعاليمه، يشتاق قلبي إلى ذلك.. لأعرف حقًّا ما الدين الإسلامي.

تأثَّر بكلماته كثيرًا.. كانت شرارة البحث بالنسبة له.. لم يترك كتابًا تحدَّث عن التاريخ الإسلامي إلا وقرأه.. حَفِظَ آياتِ القرآن الكريم وتدبَّر معانيها.. أعلن إسلامه عن اقتناعٍ ضاربًا بثورة أبيه وغضبه عرض الحائط.. والده ذو النفوذ المطلق بإيطاليا.. لدرجة أنه حدَّد إقامته حتى يعود لرُشده.. صراع عنيف عايَشَه يعقوب مدافعًا عن إسلامه وعقيدته الجديدة ضد طغيان والده، عشر سنوات وكأنه بسجن يدفن شبابه.. يبعده عن حبيبته الوحيدة وجارته دانا شمعون.. فرَّق بينهما والدُه بقسوةٍ متناهية وأشرف على زواجها

بابن أحد أصدقائه عِقابًا لابنه.. وخيَّره بين انتهاء كل شيء وعودته لدينه اليهودي وبين فِقدانها.. ثبت على موقفه.. ووجد نفسه شاهدًا على زفاف معشوقته الوحيدة بهذه الدنيا تحت حراسة مشددة.. تزوجته تحت تهديد القتل المعنوي.. وكأنه قتلها.. ذبح قلبيهما.. فليس شرطًا أن يموت الإنسان بخروج روحه.. يكفيه أن تُهدد سُبل عيشه وأمواله وسلامة عائلته وتوضع بكفة واحدة أمام زواج جبري.

وجدت دانا نفسها مُخيَّرةً بين حُبِّها وصمودها أمام جبروت والدِه وبين ضياع عائلتها وتشرُّدِهم وفِقدانِ ثروة والدها بغمضة عين.. إن كانت لها فهي تتنازل عنها مقابل حُبِّها، ولكن إخوتها ووالدتها ووالدها هؤلاء من سيعانون للأبد، ولن تتحمل هي وزرًا كهذا.. وخضع الجميع لرغباته.. سجدوا لعرشه صاغرين.. وعاش بسجنٍ لا ينتهي وتسليته الوحيدة بلياليه كانت القراءة.. قرأ ما يقرب من ألفي كتاب بمختلف المجالات.. وبليلة قرر فيها القدر إنهاء تلك المأساة بموت والده.. مات بعدما أضاع منه كل شيء.. وانطلق يعقوب حُرًّا بعد عذاب.. وارثًا إمبراطورية تسلب العقول.. ولكنه اختار العودة لوطنه القديم بعد أحداث ثورة يناير مباشرة.. واستقرَّ بفيلا فاخرة بمدينة نصر.. قصة نضال ظلَّت خفية حتى نجاح أول أعماله.. حينها عرف الجميع قصته من لقاءاته التليفزيونية وندواته المتعددة بمختلف ربوع مصر.. أصبح أيقونة الدفاع عن الحقِّ.. الدفاع عن الإسلام.

- ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

صدق الله العظيم

كانت تلك كلماته الأخيرة بروايته المدافعة عن الإسلام التي اشتُهر بها.. المنتهية بصلب الحاخام اليهودي على باب القدس بمنتهي القسوة أمام حبيبته.. كلماته قبل صعود روحه لخالقها.. أحبَّ دائمًا إنهاء ندواته بها وكأنها سِرُّ نجاحه.. وتمتلئ القاعة بتصفيقهم.. وتحاصره نظرات إعجابهم القافزة من أعينهم.. وامتلأ وجهه بابتسامة زهو واعتزاز بحبهم المتزايد.. تتلألأ أضواء المكان بعينيه الفرحتين.. وذلك العدد الغفير من الناس المُقدِّرة لمجهوده الأدبي ولأفكاره.. وكأن الله يكافئه على صبره وتمسُّكه بدينه الجديد..

وقفت نسمة مختار تلك الروائية الشابة التي لم تتعدَّ الثلاثين عامًا من عمرها على منصة قريبة منه لتنظم إلقاء الأسئلة الصحفية فهي تدير ندواته الأدبية منذ فترة ليست بالقليلة.. لم يصدر لها سوى رواية واحدة، ولم تُحقِّق نجاحًا ملحوظًا، وتتردد الأقاويل بعلاقة سرية تجمعهما معًا لكثرة ملازمتها له.. نسمة تلك الفتاة سيئة الحظ.. فلم تنجح خطبتها للمرة الثالثة.. فهناك شيء ما ينقص خُطّابها.. شيء وجدته بيعقوب.. على الرغم من فارق السن

المتجاوز العشرين عامًا بينهما، ولكن مَن يزعم أن الحب اختيار؟ من يُنكر سهامه العمياء حين تُغرز بالقلوب بغتة؟ تُؤرْجِحُها على حافة الحياة .. وكأنها تُعلن قيامتها ببوق العشق.. فيخرج العُشاق من قبور قلوبهم.. كُلٌّ ومعشوقته.. يتعانقان على شطآن الهوى.. ويحلمان بمستقبل يجمعهما.. حبيب وحبيبة للأبد.. ولكن لا اختيار.. قلوب يُمرضها عِشقٌ لا ينتهي.. ودواؤها الوحيد قد يكمن بنظرة بعيني الحبيب.. بلمسة يدٍ.. بلهيب قُرب كالبحر لا يروي أبدًا.

الحب أعمى كالمثل الشعبي الدارج.. ويعقوب رجل ناضج يحمل قلبًا جريحًا محطمًا، ولعل هذا ما شغلها به بالبداية.. فأحيانًا المرأة تنجذب لأولئك الرجال الساجدة قلوبهم لأطلال ذكرياتهم يتعبدون بمحرابها ليلًا نهارًا.. أطلال تجعلهم من أشد معتنقي الرومانسية ورهافة المشاعر.. أولئك الطوافون بحرم ذكرياتهم.. .ويعقوب واحد منهم.. ترى ذلك بعينيه بمجرد النظر إليهما.. حالة من الحزن الدفين اللامنتهي.. حالة تستجدي أبياتًا من الشعر العاشقة له نسمة.. لطالما سهرت لياليها تسبح ببحور شعر نزار قباني بمركب يعزلها.. بحضرة شعره الثائر بكل شيء.. بالرومانسية وبالسياسة.. متمردًا بكل مناحي الحياة.. شعر كان سببًا لتعرُّفها إليه بإحدى الأمسيات الشعرية حينما وقفت تلقي قصيدة بصوتها..

- يا سيدي السلطان.. كلابك المفترسات مزقت حذائي

ومخبروك دائمًا ورائي.. أنوفهم ورائي.. أقدامهم ورائي

يستجوبون زوجتي ويكتبون عندهم أسماء أصدقائي..

سيدي السلطان.. يا سيدي.. أرغمتني جُندك أن آكل من حذائي

فتاة متمردة لأبعد الحدود.. تكرهُ الظلم وتُحاربه بكلماتها.. فقد كانت تجربتها الروائية الأولى ضد السلطة الحاكمة عن قصة معتقل سياسي يحارب ضد الطغيان.. تؤمن بكل شعارات الحرية عن بكرة أبيها، ومُستعدة للتضحية بحياتها من أجل مبادئها، ولعل ذلك ما قرَّب بينهما.. انجذب إليها هو الآخر وتعوَّدها.. وهي كذلك.. فبعد موت والدها أصبح يعقوب هو كل حياتها تقضي أغلب أوقاتها معه وبجواره..

تنهدت نسمة مبتسمة.. تحدثت لتشق صوت تصفيقهم الحاد:

- السادة الصحفيون.. تفضلوا بطرح أسئلتكم بترتيب مقاعدكم..

وقف أحدهم ووجه أول سؤال له:

- سيد يعقوب، هل لمعاناتك السابقة دورٌ في اختيار مواضيع رواياتك؟

ابتسم له يعقوب وكأنه يستعيدُ ذكرياته بلحظة واحدة.

- الحياة يا عزيزي كتاب يُدوَّن يومًا بيوم.. ولكل منا كتابه المتناقض، وكما قال باولو كويلو.. أمران فقط يمكن لهما أن يكشفا أسرار الحياة العظمى: المعاناة والحب.

- لاحظنا للمرأة دورًا إيجابيًّا برواياتك.. هل لذلك علاقة بقصة حب تُعايشها؟

- لو أنّ الحب كلمات تُكتب لانتهت أقلامي.. لو أنه بحر لتمنيتُ خروج روحي بين أمواجِه راضيًا.. مَنْ منَّا لم يعشق؟

قالها محافظًا على ابتسامته والدموع بعينيه يكتمها.. بادره صحفيٌّ آخر بسؤال فجائي:

- سؤال سياسي بعض الشيء.. ما رأيك بالإخوان المسلمين وهل تؤيد أنهم إرهابيين حقا؟

- سأجيبُك بقصة.. تُدعى متسادا.. متسادا جبل يطلُّ على الساحل الغربي للبحر الميت، ويبلغ علو قمته ٤٥٠ مترًا فوق سطح البحر، ولكن لكونه مطلًّا على منخفض البحر الميت، يمكن الإشراف منه على منطقة واسعة حوله، وبقمة الجبل عبرة سأرويها لكم.. بنهاية القرن الأول قبل الميلاد أمر الملك هيرودس الكبير ببناء قلعة فوق سطح هذا الجبل.. بِنيَّةِ اللجوء إليها إذا تمرَّد

رعاياهُ اليهودُ عليه.. المنطقة وقتها كانت خاضعةً لحُكم الرومان.. وباتت ثورة على وشك الانفجار.. انطلقت بعام ٦٦ ميلادية.. تمرُّدٌ يهوديٌّ كبير ضد حكم الرومان الظالم.. قامت جماعة من الثوار اليهود تُدعى {السيكاريين} بالهروب من القدس والاستيلاء على «قلعة المتسادا» من الحامية الرومانية، وفي عام ٧٠م انضمت إليهم أسرهم ممن فروا من القدس بعد سقوطها بيد الجيش الروماني.. الجيش الروماني يضرب بيد من حديد لقمع الثوار.. وزَحَفَ الجيش ناحية قلعتهم.. حصار مميت استمرَّ سبعة أعوام لما يقرب من ألف يهودي قرروا القتال حتى الرمق الأخير ضد الرومان.. ألفُ يهودي بينهم أطفال ونساء وشيوخ.. خارت قُواهم، وتسرَّب اليأس بين صفوفهم، وأدركوا أنهم منهزمون لا محالة.. سيأسرونهم ويُقتلّون أطفالهم ويستبيحون نساءهم.. عندئذٍ قرروا الانتحار الجماعي حفظًا لكرامتهم.. «الموت عند اليهودي أهون من أن يُذل ويصبح عبدًا»، هكذا تقول الأسطورة.. أسطورة المتسادا.. أحرقوا كل شيء داخل القلعة وقتلوا أنفسهم بعدها.. ولم يتبقَّ منهم سوى امرأتين وخمسة أطفال.. قُدِّر لهم العيش ليقصوا تلك الأسطورة لمن بعدهم.. شعارات يرددها اليهود حتى الآن.. «صمود الأجداد والتضحية من أجل الأرض».. «الموت أفضل من الهزيمة».. «لن تسقط المتسادا مرة ثانية».. «لا تترك لعدوك إلا أرضًا محترقة».

وعلى جانب آخر جاء مؤرخ إسرائيلي يُدعى نخمان بن يهودا وأصدر كتابًا بعنوان أسطورة المتسادا عام ١٩٩٥ يُخبرنا فيه أن الأشخاص الذين احتموا بالقلعة هربًا من بطش الرومان كانوا من اللصوص وقُطَّاع الطرق ممن ارتكبوا العديد من المذابح ضد قُرًى يهودية بعينها، ولم يُعثر لأي من آثار للحريق الهائل المزعوم على بقايا القلعة المكتشفة حديثًا.. وبين هذا وذاك تاهت الحقيقة.. أهم ثوار أم لصوص وقتلة؟ دعاة حُقٍّ أم باطل؟ حيرةٌ سيقَعُ فيها مَنْ سيأتون بعدنا بمئات السنين ليسألوا سؤالك نفسه.

إجابة في منتهى الذكاء.. هكذا استشعرَ بعيونهم .. وتوالت الأسئلة لا تتوقف وهو يجيبهم فرحًا بشغفهم المتزايد.. لم يُدرك حينها أن وسط هذه العيون عينين تُرقبانه.. يقفز الشَّرُّ منهما.. كان يستمع لكلماته مبتسمًا، وكأنه واثق بالانتصار بنهاية المطاف.. إنه جاسر عبد الرسول ذلك الشخص المجهول.. وكأنه لا يُلقي اهتمامًا لمن يبحثون عنه.. بعدما شاهَدَ بنفسه ذلك المُراسل ينشر صورته كمشتبه به بالجريمة.. جلس وسط هؤلاء الصحفيين بآخر الصفوف.. لم تكن لحيته لافتة للأنظار، فبعض الشباب هذه الأيام يطلقونها أسوة بالموضة.. الجميع منشغل بذلك العبقري المصري الجديد.. وأعلنت نسمة مختار نهاية الندوة.. وهبَّ الحاضرون لالتقاط الصور التذكارية مع يعقوب، أديبهم المفضل.. وقف جاسر يتابعهم عن بُعد.. لم

يلحظه أحد سوى نسمة.. رمقته وعرفته.. إنه المشتبه به بقضية النجمة حبيبة التي تتابعها من كثبٍ على وسائل التواصل الاجتماعي.. تُتابع أخبارها أولًا بأول.. ملامح الصورة المنشورة نفسها.. زحام شديد يملأ القاعة.. ورجلان ذوا هيبة يقتربان من يعقوب مخترقين زحامهم برفقٍ، وكأنهما يتصارعان على اتخاذ صورة معه.. حدَّثه أحدهما هامسًا:

- سيد يعقوب .. نريدك بموضوع خاص إذا تكرَّمتَ.

التفت إليه يعقوب مُتعجبًا من طريقته:

- أي موضوع؟

- فلنتحدثْ بعيدًا عن هنا وفورًا؛ فالأمر عاجل.

- فلتنتظر حتى تنتهي الندوة.

أخرجَ حينها الرجل كارتًا صغيرًا من جيبه وأعطى يعقوب إياه حَذِرًا.

قرأهُ وسط ضجيج المعجبين.. نَظَرَ إليه مُتوجسًا.. «عقيد شوقي عزوز، المخابرات العامة»... وبلحظة واحدة ترددت شكوك كثيرة تتصارع على ذهنه مهددة إياه بأنه سيُعايش ما مر به جده منذ أكثر من ٦٩ عامًا مرة أخرى.. وافترس القلق تعبيرات وجهه .. هَمَسَ له الرجل مرة أخرى ملتقطًا الكارت منه وواضعًا له بجيبه.

- سيد يعقوب.. نحتاج إلى الحديث معك بأمر سريٍّ للغاية، أرجوك تفضّل معنا دون أن يلحظ أحدٌ أي شيء.

أشار إلى نسمة:

- نسمة.. نلتقي غدًا بحفل الناشر.

- أريدُ أن أُخبرك بشيء.

قاطعها:

- ليس الآن.. أراكِ بخير.

وانصرف معهما وسط الزحام سريعًا.. والتفتت نسمة متوترة تبحث عن جاسر وسط القاعة فلم تجد له أيَّ أثر.. جالت بعينيها بكل مكان بها دون جدوى.. فتّشت كل شبرٍ فيها .. خرجتْ مُسرعة لتلحق بيعقوب.. عليها أن تُحذِّره، يبدو أن هناك خطرًا ما يهدده.. قد يكون ذلك المجرم هنا لأجله.. هُرعت للبوابة الخارجية.. ها هو يعقوب يركب سيارة أجرة (تاكسي) كانت بانتظاره مع هذين الرجلين، وانطلقت دون أن تلحق به.. تعجبت كثيرًا، كيف يترك ندوته هكذا فجأة قبل أن ينصرف جمهوره كعادته؟ نظرت بساعتها، إنها العاشرة مساء.. هناك دراجة بخارية تُتابعهم عن بُعد ورأتها نسمة.. وكان هو قائدها.. وصحَّت شكوكها.. جاسر عبد الرسول ذلك

القاتل المأجور المُشتبه به بجريمة قتل الفنانة حبيبة يستعدُّ لجريمةٍ جديدة قد يكون بطلها الروائي يعقوب إدريس.. حالة شديدة من التوتر انتابتها وهي تحاول الاتصال به مراتٍ ومرات دون أن يُجيبها.. .. تبًّا لذلك! هي من أغلقت صوت رنين هاتفه بنفسها قبل بدء الندوة.. أزمة كبرى وُضعت بها نسمة مختار مكتوفة اليدين لا تقوى على التصرُّف.

دقائق معدودة وأصبح يعقوب أمام مقر جهاز المخابرات العامة بحدائق القبة.. ذلك الجهاز الذي يعرف تاريخه جيدًا بحكم ثقافته.. أُنشئ الجهاز بعد ثورة يوليو عام ١٩٥٢ لكي ينهض بحال الاستخبارات المصرية، أي قبل ولادته بخمسة عشر عامًا.. فيعقوب من مواليد النكسة.. هكذا ينعت نفسه دائمًا.. وكم من أبطالٍ خرجوا من رَحِم النكسة حاملين على أكتافهم آمال شعبٍ بأكمله! بالرغم أنه وُلد وعاش بإيطاليا، ولكنه يعتبر نفسه مصريَّ الجذور، وحقَّق انتصارًا باسم وطنه ليثبت أنه غير قابل للهزيمة.. تعلقت عيناه بذلك الشعار الكبير على المبنى.. عين حورس الشهيرة في الأعلى، وأسفلها مباشرة نسر قوي ينقضُّ على أفعى سامة لينتزعها من الأرض، يرمز لقوة الجهاز وصرامته في مواجهة الأخطار والشرور التي تواجه الأمن القومي للبلاد.. ولكن هل هو من يُهددها؟ سؤال تردَّد كثيرًا بالماضي.. ولم يجد جدُّه إجابة شافية عنه ومات قبل أن يعرف أسباب نفيه الحقيقية.. أيكون

لديانته اليهودية ضلعٌ بذلك؟ ولكنه الآن مسلم مُوحِّد مثلهم.. وربما أكثر منهم.. فلم يَرِثْ دينه كملايين البشر، ولكن اعتنقه بملء رغبته.. صاحَبَهم يعقوب بطرقات متعددة داخل المبنى منشغلاً بالتفكير، ومحاولة توقُّع لما سيحدث له بعد لحظات.

وفُتح له باب وُضعت عليه لافتة "مدير المخابرات العامة"، وأُغلق خلفه الباب.. تركاه وحيدًا.. وقف ينظر لذلك المكتب الفخم الزجاجي متوجسًا، ولافته أخرى أمامه على ذلك المكتب.. اللواء حامد فوزي رئيس المخابرات العامة.. ساعة الحائط تعلن عن الساعة العاشرة والنصف.. لأول مرة بحياته يدخل ذلك المبنى.. أهنا تُحبط المؤامرات ضد هذا الوطن؟ أهنا جلس اللواء عمر سليمان يُتابع عن كثب مُخططات متضاربة لإسقاط البلد بثورة يناير وما بعدها؟ أهنا تُعقد صفقات الخروج الآمن؟ شعر بفخرٍ كبيرٍ بذلك المكان.. فخر غَلَبَ على توتره.. فُتح الباب ودخل رجل ذو هيبة.. يعرفه جيدًا. إنه اللواء حامد فوزي.. رأى صورته أكثر من مرة بالجرائد.. مَدَّ يدَه ليُصافحه:

- مرحبًا سيد يعقوب إدريس.

- مرحبًا سيادة اللواء.

- اجلس.

جلسا معًا على الكراسي الأمامية للمكتب.. لاحَظَ روايته الأخيرة عليه.. تناولها اللواء حامد وفتح إحدى صفحاتها وقرأ منها:

- التَهمَ طعامه بشراهةٍ وسط ابتسامات حُراسه وجنوده، فقد أبلغوني بزيارته لنا لتبدو زيارة ودية غير مُرتَّبة.. نظر لي متسائلًا وهو يُنهي آخر طعامه:

لذيذ من أين لك بهذا الكبد الرائع؟ أهو ضأن أم بقري؟

أجبته ببساطه أمام كاميراته:

كلا، إنه إنساني، فقد ذبحتُ لك أولادي لتأكل وتشبع، فلم يعد لهم مكان ببلد أنت كبيرها.

أغلقَ الكتاب ووضعه على مكتبه.

- مقطع رائع وبلاغة في التعبير.

- أخبروني أنني هنا لأمر جللٍ.. ويُهيَّأ لي أن جهاز المخابرات أذكى بكثير من التحقيق معي عن نيات كتاباتي ومعانيها.

ضَحكَ اللواء حامد مربتًا على يديه.

- أعتذرُ إليك عن هذا الأسلوب الفُجائي بالاستدعاء.. ولكن الأمر عاجلٌ حقًا.

- أتمنى ذلك.

- نعم.. أمر يُهدِّد الأمن القومي لمصر.

- أظنُّ أن كتاباتي أبعد ما تكون عن ذلك.. وكذلك ديانتي الحالية. فأنا مسلم مُوحِّد بالله، وحتى ديانتي السابقة ليست مجالًا للشك والازدراء، فهناك فرق بين اليهودية والصهيونية سيادة اللواء، ثم إنه.. .

ضحك اللواء مقاطعًا له:

- مهلًا يا سيد يعقوب.. أنت لست هنا كونك متهمًا.. بالعكس.. .

- ما الأمر إذًا الذي يتطلب إشراف رئيس المخابرات العامة بشخصه؟

- أنت هنا بمصر منذ حوالي ٧ سنوات.. نعرفك جيدًا منذ قدومك، ونُتابعك، ونعرف وطنيتك وحبك لهذا البلد.. ولكن تاريخك السابق وَضَعكَ بمؤامرةٍ على وشك التنفيذ.

- لا أفهم أي شيء.

ناوله اللواء حامد مجموعةً من الصور كانت على مكتبه لفتاة ممشوقة القوام، ترتدي (مايوه) يُظهِر أغلب جسدها بأكثر من صورة.

- مريم شاؤول.. ٢٧ سنة.. تعمل مراسلة للقناة الأولى الإسرائيلية، وتصنع تقارير عن السياحة بمختلف الدول.. زارت مصر أكثر من مرة، وجميع رحلاتها كانت لشرم الشيخ.

- واضح من صورها.

قالها ساخرًا.

- أنت تعرف أن هناك معاهدة سلام بيننا وبين إسرائيل؛ ولذلك لا يمكننا اتهام أي إسرائيليٍّ أو منعه من دخول مصر خاصةً لو كان لغرضٍ سياحي.

- ما الأزمة إذًا؟

- مريم شاؤول تعمل مع جهاز الموساد الإسرائيلي. التقطنا علاقة سرية تجمعها بضابط موساد بتل أبيب، تُقابله من حين لآخر بحذر شديد.. هذا الضابط يحمل الكثير من الكُره لمصر وقيادتها، وسَبَقَ لنا القبضُ على عدة جواسيس للموساد وجميعهم كانوا على علاقة مباشرة به.

- أتعرفون بذلك وتتركونها تدخل البلد كما يحلو لها؟

- قلتُ لك نحن بمعاهدة سلامٍ.. ولكننا نُتابعها خطوةً بخطوة منذ أكثر من ستة أشهر.

- هذا يعني أنها قد تكون ضالعة بعمليات خاصة للموساد تُنفذ هنا بمصر وأنتم على دراية بذلك.

- لا.. منذ اكتشافنا لها لم نلاحظ أي أشياء غير اعتيادية تقوم بها، ولم تزُر مصر إلا مرة واحدة مدة يومين فقط، ورحلت بعدها إلى تل أبيب لتمارس عملها مراسلةً.

- إلى الآن لا أجد أي أزمةٍ تُهدد الأمن القومي.. فتاةٌ مشكوك بأمرها، وأنتم تضعونها تحت المراقبة كلما وطئت قدماها أرض مصر.

- مهلًا يا عزيزي.. إن لنا عيونًا هناك بإسرائيل ترصُد تحركاتها كلما سنحت الفرصة لذلك.. مريم شاؤول تقابلت منذ ثلاثة أيام بذلك الضابط بشكلٍ سريٍّ، وبعدها اتصلت بمكتب الطيران وقامت بحجز رحلة إلى مصر، بعد أربعة أيام.. أي إنها ستصل غدًا.. ولأول مرة للقاهرة، وليس لشرم الشيخ.

- وما معنى ذلك؟

- رَصَدْنا بريدًا إلكترونيًا وصلها في اليوم نفسه، وقامت بمسحه بعد قراءتِه بخمس دقائق، يحوي صورةً لك وعنوان سكنك.

- أنا؟

- أمران لا ثالث لهما.. إما أن هذه الفتاة قاتلةٌ مُحترفةٌ وتُنفذ عمليات قتلٍ لصالح جهاز الموساد، وإما أنها مجرد أداة لتنفيذ أوامر أو ايصال معلومات ليس إلا.

- أرجوك لا أفهم أيًا مما تقول.

- سيد يعقوب مريم شاؤول تصل القاهرة غدًا لتُخطط لمقابلتك إما لتقتُلَك أو لتنفذ أمرًا خفيًا لصالح الموساد يتعلق بك.

- وهل ستتركونها تقتُلني؟ اقبضوا عليها فورًا بمجرد وصولها إلى المطار.

قالها بعصبيةٍ شديدة:

- اهدأ لن تمسَّك بسوء.

- ماذا تنتظرون؟

- عليك أن تعرف جيدًا أن حياتك تهمُّنا جميعًا، ولن نفرط فيها أبدًا. ولكن هناك احتمال ليس ببعيد أن يكون الأمر أكبر من مجرد حادثة قتل مدبرة لصالح الموساد، قد تُحاول مثلًا تجنيدك لأمرٍ ما أو تهديدك بشيءٍ ما أو...

قاطَعَه يعقوب بحدةٍ:

- أنا لا أُخفي شيئًا بحياتي لأُهدَّد لأجلِه.. والجميع يعرف وطنيتي وانتمائي لهذا البلد، القاصي والداني يشهد بذلك.

- نعرفُ ذلك.

- إذًا كيف يجرؤون على حدِّ قولك على تجنيدي؟

- أسئلتُك ليس لها أي إجابات الآن.

- ومتى تجدون الإجابات.. مع إعلان جريمة جديدة بقتلي؟

- قلتُ لك لن نسمحَ بذلك أبدًا.

- وما المطلوب مني؟

- الهدوء.. والثقة بنا.

تنهَّد يعقوب متأثرًا، فحياته أصبحت على وشك الانتهاء لأمر مجهول.. ألهذا الحدِّ يكرهُه الصهاينة ويقررون إنهاء حياته لمجرد أنه يحبُّ مصر؟ أم أنهم مجموعة من الأغبياء سيطلبون منه الانتماء لهم، وتنفيذ أمر خفيٍّ يجهله لمصلحتِهم؟

- سيد يعقوب.. أصررتُ على مقابلتِك بنفسي لأشعرك باهتمامنا البالغ بأمرك،

حِسِّي الأمني يُخبرني أن هناك أمرًا جللًا يُدبَّر في الخفاء وأنت ستكون مفتاحه، أرجوك تمالك أعصابك ولا تخف.. سنكون بجوارك دومًا كظلِّك.

- وهي؟

- نُراقبها من الآن، لا تَخفْ.. فقط عليك بالتصرف بطبيعية كما كنت، فتاة جميلة قد تُقابلك مصادفة أو بحفل توقيع أو بأي طريقة. عامِلْها برقةٍ وإعجابٍ لجمالها.. إن كانت هنا لتقتلك تأكد أن رصاصاتنا أسرع، منها وإن كانت هنا لمهمةٍ نجهلها فعليك بمجاراتها وإخبارنا عنها.

- أيُعقل أن أصير خائنًا لوطني؟

- لم أقُلْ ذلك.. قد يكون الأمر خفيًا.. وقد تخفي عنك شخصيتها الحقيقية، تكهنات عديدة ستغدو واضحة خلال الساعات القادمة، فقط ثِق بنا.

***

جلسَ غندور بعد عودته لمكتبه بالمديرية مُشعلًا سيجارته المفضلة.. اعتاد شُرب أردأ أنواعها المسماة كليوباترا.. جلس النقيب ماهر أمامه ينظر له مترقبًا.. فخيوط القضية يشوبها الكثير من الألغاز.. نَهَضَ غندور متجهًا ناحية مُسجل صغير على منضدة جانبية.. فتح أحد الأدراج واختار شريطًا ووضعه بالمسجل.. تعجَّب ماهر لسلوك الغندور فهي القضية الأولى التي يعمل معه بها بعد استلام عمله هنا بالمديرية.. تنهَّد غندور مستمعًا لصوت عبد الغني السيد بأغنية على الحلوة والمرة:

- على الحلوة والمرة مش كنا متعاهدين

ليه تنسى بالمرة عشرة بقالها سنين

على الحلوة والمرة

ابتسم غندور ناظرًا لماهر:

- بين الحين والآخر عليك بالاستماع لمثل هذه الأغاني، سيصفو ذهنُك، وسترى الأمور بشكل أوضح، أتعرف؟ لهذه الأغنية قصة طريفة. يومًا ما

استيقظ الشاعر الكبير مأمون الشناوي واستعد للخروج لعمله، ارتدى بدلته، ولكنه وجد بجيبه ورقةً مكتوبًا فيها كلمات هذه الأغنية اندهش للغاية، هذه الكلمات ليست له، ولم يكتبها قط.. أيعاني الزهايمر؟

صاح بخادمتِه وأتت له متوترة قلقة.. اعترفت له أن الكوّاء يُحبُّها ويرسل إليها رسائل غرامية عبر جيوبه.. وهي على خلاف معه هذه الفترة ولذلك أرسل لها هذه الكلمات ليصالحها.. طلب منها على الفور إحضار ذلك الكوّاء.. واتصلَ هاتفيًّا بصديقه الملحن محمود الشريف.. أسمعه تلك الكلمات فانبهر بها.. وبمجرد وصول ذلك الكوّاء وجد الشريف والشناوي بانتظاره.. سألاه: أنت من كتبت هذه الكلمات؟ أجابهم بنعم، وبدأ بالاعتذار إليهما عن هذه الطريقة، وأنه يحبُّ الخادمة، ويُريدها بالحلال.

فاجأهُ الاثنان برغبتهما بشراء هذه الكلمات منه. وأصبحت واحدة من أشهر أغاني عبد الغني السيد.. الطريف بهذه القصة هو ذلك الكوّاء الذي تحول بلحظة إلى واحد من أهم كتاب الشعر الغنائي.

- قصة طريفة فعلًا سعادتك.

نفث دخان سيجارته بقوة.

- ألا تُثير هذه القصة شيئًا ما بداخلك؟

- لا.

- تدخل مكانًا لتفعل شيئًا فتتفاجأ بشيء آخر، كجاسر عبد الرسول ذلك الشاهد على الجريمة.

- جنابك تقصد شريكًا بالجريمة.

- لا.. هذا الرجل دخل الفيلا لغرض آخر غير القتل.. عدم تسجيل لحظة دخوله بالكاميرا الخارجية تنبئ بذلك.. قد يكون متسللًا من السور الخلفي لغرضٍ ما.

- أي غرض؟

- سرقة مثلًا.. سرقة تلك الخزينة التي خرج بها البهلوان.

- تفسير منطقي سعادتك.

- فوجئ بالجريمة.. تصارَعَ مع المجرم.. غَلَبَه.. فَقَدَ الوعي. تلك الدماء على رأسه تُنبئ بذلك.. ولَمَّا أفاقَ هاله ما رأى فخرجَ متلهفًا مذعورًا من الباب الخارجي.

- وما تلك الحقيبة التي حملها بيده؟

- حقيبة كان سيجمع بها المسروقات.

- ولماذا سعادتك مثلًا لا نفكر بأنه قاتل مأجور، وكان هناك لقتلها فعلًا وبالمصادفة سَبَقَه

البهلوان؟

- كل شيء جائز.. علينا فقط الإمساك به ومعرفة هل هو قاتل لحساب أحد أم مجرد سارق سيئ الحظ؟

- قضية عجيبة سعادتك.

- هناك احتمال ما زال قائمًا، قد يصبح أهم أطراف تلك القضية.

- ما هو؟

- يحيى عبد النور بركات.

- ولكنه مات منذ ثلاثة أيام جنابك.

- مات حقًا، ولكن قد يكون هناك من يعرف كل أسراره، ويُضني قلبه ما آلت إليه أحواله، وانتقم لأجله خاصة بعد موته.

- تقصد أن هناك مَن عرف بموته بحينها وتركه لينتقم له؟

- نعم و...

قطع حديثهما جنديٌّ يستأذن بالدخول مؤديًا لهما التحية العسكرية.

- هناك فتاة تريد مقابلتك بالخارج يا سيدي.

- دعْها تدخل.

دخلتْ نسمة مختار منهارةً.. هُرعت لمديرية الأمن تسأل عن ذلك الضابط المسئول عن التحقيق بقضية الفنانة حبيبة.. دخلت والدموع تتصارع بعينيها:

- حضرتك المقدم محمود غندور؟

- نعم.

- أنا نسمة مختار مديرة أعمال الروائي يعقوب إدريس.

- أهلًا وسهلًا.. أي خدمة؟

- هناك كارثة على وشك الحدوث.

- اهدئي أولًا.. سأطلب لك عصيرًا.

- لا أرجوك.. الأمر بغاية الخطورة.

- أسمعُك.

- ذلك المشتبه به بقتل النجمة حبيبة.

- أيهما؟

- المدعو جاسر عبد الرسول.. رأيتُه منذ قليل بحفل التوقيع، واختفى بعدما خرج الأستاذ يعقوب وبالمصادفة رأيته يتتبعه بدراجة بخارية.

- أمُتيقنةٌ من ذلك؟

- بكل تأكيد.. حاولتُ الاتصال بالأستاذ يعقوب ولكنه لم يُجِبني. هاتفه صامت الرنين من قبل البدء بالندوة.. أرجوك حياته بخطر شديد.. قد يقتله ذلك المجرم بأي لحظة.

- أتعرفين وجهته الآن؟

- كلا.. يبدو أنه مع بعض أصدقائه.. خرج من الندوة تاركًا سيارته وركب بجوارهم بسيارة أجرة

- نمرتها؟

- لم ألحظها.. أرجوك تحرَّك سريعًا قبل فوات الأوان.

الساعة الآن الحادية عشرة إلا خمس دقائق قبل منتصف الليل.. السماء تستعدُّ لليلة ممطرة وتعلن غضبها برعد يخلع القلوب.. وقف يعقوب إدريس بجوار سيارته بعدما عادوا به بنفس التاكسي وابتعدوا سريعًا.. لم يستمر لقاؤه برئيس المخابرات أكثر من خمس عشرة دقيقة.. تركوه والتكهنات تحاصر عقله.. وقف مترقبًا قتله بأي لحظة.. فتح باب سيارته سريعًا وأدار محركها.. هَمَّ بقيادتها ولكن سيارة بوكس شرطة تقطع عليه الطريق وتُجبره على الوقوف.. يهبط منها الغندور وبصحبته نسمة متلهفة.

يفتح حينها نافذة السيارة متعجبًا:

- نسمة؟ خير؟

- الحمد لله أنك بخير.

- ماذا جرى؟

- أستاذ يعقوب أنا المقدم محمود غندور من مباحث العاصمة أتسمح لي بكلمتين بعد إذنك؟

- الآن؟

- فورًا.

فتح الغندور باب سيارته وجلس بجواره دون أن ينتظر رده.. وظلت نسمة بالخارج تقف بجوار نافذته مُترقبةً مُلتفتةً حولها تتوقع ظهور المجرم بأي لحظة.

- يبدو أنها تحمل لك الكثير من المعزة الخاصة.

قالها غندور مبتسمًا.

- سيادة المقدم.. كما ترى الطقس بارد وأنا مُجهد للغاية.

- فكرت أن أبدأ بسيارتك قبل التحرك لبيتك وإبلاغ اللجان والدوريات بالبحث عنك.

- ما الأمر؟

- هل تعرف شخصًا يُدعى جاسر عبد الرسول؟

- جاسر عبد الرسول؟

- نعم.. ذلك الشخص بالصورة.

أخرجَ له صورته ليُشاهِدَها.

- كلا.. لم أرَه من قبل.

- حسنًا.. هذا الشخص كان يُراقبك اليوم.. هكذا لاحظت مديرة أعمالك.

- يُراقبني؟

- أسمعتَ عن مقتل النجمة حبيبة؟

- نعم.

- هذا واحد من المشتبه بهما بالجريمة.. وأظن أنه قاتل مأجور.

- أتعني؟

- نعم.. أهناك خصومة بينك وبين أي أحد تجعله يفكر بقتلك؟

بُهت يعقوب وتلعثمت الكلمات على لسانه.. أخبره اللواء حامد أن الأمر غايةً في السرية وحذره من التحدث فيه حتى مع أقرب الناس إليه.. ناداه الغندور قاطعًا شروده:

- أستاذ يعقوب؟ أسمعتَ سؤالي؟

- نعم.. لا.. ليس هناك أي خصومة مع أحد.. أنا كاتب وروائي علاقاتي جميعها طيبة.

- حسنًا.. عليك بتوخي الحذر قليلًا الفترة القادمة.. وبعد اذنك سنضع عليك حراسة سرية حفاظًا على حياتِك.

- أشكرُك.

ابتسم له يعقوب ساخرًا.. يبدو أنه سيُراقب من الجميع.. مخابرات وشرطة.. ولكن هل سيشكُّ هؤلاء في بعضهم البعض ويعتقدون أن كلًّا منهما يراقبه أم أن تلك الأجهزة تُنسِّق فيما بينها؟ على أي حال لن يشغل باله بذلك.. الأهم بالنسبة له الآن تلك الإسرائيلية الموشك على مقابلتها.. مريم شاؤول.. صافَحه الغندور وترك مقعده لنسمة:

- طابَ مساؤكما.

وتحرَّك يعقوب بسيارته خائفًا متوترًا.. ونظر الغندور بساعته المعلنة عن الساعة الحادية عشرة تمامًا.. والسماء تمطر بغزارة.. لتعلن عن لحظة دخولي لقبري.. تلك اللحظة التي حاولت الهروب منها دون جدوى ليعلنها ذلك الغراب الأبقع بعينيه القذرتين.

- مرحبًا بك ببيت الدود، أيها الشقي.

كانت عيناه هما آخر ما رأيت بهذه الدنيا.. تبرقان بوسط ظلام شديد يشقُّه مصباح صغير بيد التربي.. .لم ألحظ عينين أخريين تدققان النظر لعملية دفن جثتي وكأنهما تتيقَّنان من موتي.. عينا جاسر عبد الرسول الواقف عن بُعدٍ يُتابع كل شيء.. ذلك المجهول الحامل لأسرار عديدة.. وأُغلق باب القبر بعد دخولي.. تبًّا لذلك الظلام! ذُعر منقطع النظير.. هواجس عديدة تُحاصر روحي بتلك اللحظة.. أرى جسدي مُمددًا بكفنه تحت قدميَّ.. سقطت دموعي خوفًا.. وصوت عجيب يتسرب لأذنيَّ.. تعجبت كثيرًا حين أنصتُ إليه.. التفتُّ خلفي مبرق العينين.. ذهول تامٌّ لما أرى.

ذهولٌ منقطع النظير.. ومجهول يدنو واقفًا على بابه ليعلن العجب العجاب.. الليلة

الأولى بقبري.. قبر يحيى عبد النور بركات.

***

النبشة الرابعة (بئس المصير)

(الليلة الأولى بالقبر)

وقفتُ مُبرقًا العينين مذهولًا لما أرى.. عدد ضخم من البشر بمكان شاسع لا نهاية له على مدى البصر.. جدران طينية سوداء وضباب شديد ودخان يحاوطنا عن بُعد.. يرتدون زيًّا موحَّدًا .. بدل رجالية سوداء اللون، وقُبعات سوداء تُغطي أغلب وجوههم، ونساء بفساتين سهرة سوداء متلألئة.. أضواء حمراء تتلاعب خاطفة للبصر.. وموسيقا أعرفها جيدًا.. أغنية لمايكل جاكسون كنتُ أحبُّ الاستماع لها كثيرًا.. dangerous.. ورجل يتوسطهم ببدلة مغايرة بلون أحمر.. يتراقص كمايكل جاكسون بنفس حركاته.. وجميعهم يتراقصون معه.. الصوت عالٍ للغاية وكأنه احتفال ضخم.. رقصاتهم تندمج مع رعشات الإضاءة لينتج عنها شكلٌ إبداعي مبهر.. درجة الحرارة عالية جدًّا.. شعرت برطوبة شديدة تجتاحني كأشد أيام الحر.. لم أصدق ما أراه.. جثتي فوق سرير مُتحرك يُجرجرها اثنان منهم.. ورجل ضخم يقترب مني مبتسما

- أهلًا وسهلًا بك.

- أين أنا؟

- أنت ميت.

لاحظتُ اختفاء جثتي بعيدًا وسط زحامهم.

- لا تخف.. ستلحقُ بها.

قالها مربتًا على كتفي.

- أنا لا أفهمُ شيئًا

- أمر طبيعي.. صعبٌ على عقل الإنسان أن يفهم شيئًا لم يدركه من قبل يا يحيى.

- أتعرفني؟

- أستاذ يحيى عبد النور بركات.. أنت هنا في المُنتظَر.. مُنتظَر جهنم.

- ماذا؟

- جميع الغرف هنا مزدوجة.. هنا بالمُنتظَر. كلٌّ وجثته.. ولكن لك حق الاختيار بمكان الغرفة، أتريدُها على بحيرة النار أم على وادي الصَدّيد؟

كنت مذهولًا، تائه العقل.. مصدومًا لا أُجيب.

- حسنًا، يبدو أنك غير مؤهلٍ للاختيار الآن.. يمكنك تجربة غرفة على بحيرة النار أولًا وإن رغبتَ بالتغيير، عليك بإبلاغنا فقط.. تفضَّل معي.

تحركتُ معه مخترقًا رقصتهم المنتظمة المستمرة.. اصطحبني ذلك الرجل الضخم الجثة ممسكًا بيدي وكأنه يُجبرني على السير معه.. يدُه الخشنة تلك تحكم قبضتَها على يدي.. العجيب أنني لم أقاوِمْهُ.. وكأنني سُلبتُ إرادتي تمامًا منذ خطوتُ بذلك القبر العجيب.

ابتعدنا عنهم وبعد عدة دقائق صار صوت أغنيتهم عدمًا.. وحَلَّ محله صوتٌ آخر مرعبٌ للغاية.. مزيج من صراخ وعويل وبكاء.. أصوات متداخلة تُثير الرعب بداخلي.. كنا غارقين بضباب لا ينتهي.. حتى قدماي لا أرى موطئهما.. وكأنني أعمى البصر، هو فقط من يُدلني على الطريق.. كان يحدثني طوال الطريق أحيانًا أُفسر كلماته وأحيانًا لا أفهمها.

- يمكنك الانضمام إليهم ببعض الرقصات بعض الوقت. فقط اطلب ذلك، وسنُرسل إليك من يقتادُك إليهم. ولكن اعلم جيدًا أن ذلك بفترات الراحة فقط.

- الراحة مِمَّ؟

- من العذاب.

ارتعشت نفسي من كلمته تلك.. أي عذاب ذلك؟ أأنا هنا في الجحيم؟ أذلك هو الجحيم الذي أخبرني عنه والدي؟ كلا، إنه قال: إنه مُنتظِر الجحيم.. ولكن ماذا فعلتُ لأُلْقَى بجحيم الآخرة.. كنت خائفًا مرتعدًا بشدة.. يدي ترتعش بيده.. نظر ناحيتي مبتسمًا:

- غرفتك إقامة كاملة.. يمكنك تناول وجبتك من الدود بأي وقت.

- دود؟

- نعم.. دود طازج حيٌّ.. تأكله ويأكلك، ولكن لا تخف. جسدُك فقط هو مَن سيتحلل، ولكن ستظل روحك كاملة تتجدَّد كلما انتُقص منها.

- وهل يأكل الدود الروح؟

- كلا.. مجرد شعور بالعذاب.

زادت رعشاتي، وبدأ الضباب بالرحيل خلفنا.. وجدتُ نفسي أعلى كوبري ممتدٍّ فوق وادٍ من النيران.. ارتفاع شاسع أمرُّ أعلاه.. نظرتُ إلى أسفل.. عدد هائل من البشر يحترقون.. يصرخون دون توقُّف.. ومنهم من يجلس على كراسي مُلتهبة من النار.. وآخرون يرتدون قبعات من النار تحرق رؤوسهم.. بكاء وعويل لا ينتهي.. الالتفات لوجوههم الذائبة جلودها يجعلك تركض آلاف الأميال رعبًا.. وأنابيب دقيقة موصلة بأجسادهم جميعًا

وتلتقي بأنبوب كبير.. يتدفق به سائل أصفر اللون مائل إلى الحمرة.. سائل لزج يغلي.. يصبُّ بقارورة ضخمة بالمنتصف.

- ما هذا؟

- ذلك مشروب أهل المُنتظَر.. صَديد طازج.

زادت رعشاتي.. كنتُ خائفًا للغاية.. متألمًا قبل العذاب.. سأغدو واحدًا من هؤلاء.. أحترقُ إلى ما لا نهاية، وأشربُ الصديد، وآكل الدود ويأكلني.. يا لحسرتي! يا ليتني أعود للدنيا لأنفذ ما أمرني به والدي! لعلني أنجو من ذلك العذاب الشديد.. يا ليتني كنتُ أُصلي! يا ليتني سرتُ على الطريق الصحيح.. أدركتُ الآن أنني خاسر لكل شيء.. دنياي التي لم أنلها وآخرتي التي سأُعذِّب فيها دون توقُّف.. صوت صُراخهم يقتُلني.

وصلنا بناية داخل صخور ضخمة.. دخلنا لممرات داخلية فارغة.. لا أحد هنا غيرنا..

- مع الوقت ستعتاد وستطلب الانضمام للراقصين وقت راحتك من العذاب.

- متى سأُعذب؟

- كُلٌّ له وقته؟ لا تتعجل.. ستستكشف ذلك بنفسك.

فُتِحَ أحد الأبواب الحديدية ودخلنا.. غرفة وسط الصخور.. إضاءتها حمراء.. ترك يدي حينها.. وقفت وسط الغرفة أتفحصها.. جدران طينية جافة متشققة.. مصابيح صغيرة بجوانبها وسرير من الزجاج شفاف يكشف ما تحته.. أسفله ذلك الوادي الممتلئ بالعذاب والصراخ والنيران.. وكأن النائم عليه سيهوي للأسفل.. وأي نومٍ سيأتي هنا؟ وأي عينٍ ستغفل وسط هذا العذاب؟ وشُرفة تطلُّ على الوادي نفسه.. وادي النار.

- جئتُك هنا بذلك المكان.. للعِلم، أنت هنا بعالم آخر خارج المقاييس الدنيوية.. قبل أن تسأل: هل نابشو قبرك سيجدون جثتك أم لا؟ نعم كل شيء بمكانه بالمقاييس الدنيوية.

أشار ناحية درجٍ أرضي زجاجي مستطيل يكشف جثتي بداخله.. يعلوه دولاب زجاجي به بعض الملابس.

- وتلك بعض الملابس يمكنك استخدامها.. وذلك الهاتف لتتواصل معنا.

أشار ناحية هاتفٍ زجاجي مُثبت بالحائط.

- نتمنى لك إقامة سعيدة.

هَمَّ بالخروج، ولكنني استوقفتُه مناديًا:

- عُذرًا.. لديَّ سؤال؟

- تفضَّل.

- متى سينتهي ذلك العذاب؟

- لن ينتهي.. هو مجرد صورة مُصغرة للغاية لعذاب الآخرة.

- أهذه ليست جهنم؟

- نعم.. قلت لك: إنه المُنتظَر.

تركني وخرج.. وكأنه ألقاني بموقدٍ أشتد سعيره وأغلق بابه.. رائحة النيران بكل مكان. نظرتُ إلى جثتي.. سالت دموعي دون توقف.. يوم لا ينفع البكاء شيئًا.. رُفعت الأقلام وجَّفت الصحف وسُجلت الأعمال.. وآنَ وقتُ الحساب.. آن وقتُ العذاب.. يا لحسرتي.. كنتُ عبدًا لعناد والدي.. كان سببًا لذلك بقسوته.. لو أنه عاملني بلينٍ وهوادةٍ.. لكنت الآن بمنتظر الجنة.. يا إلهي! اصفح عني واغفر لي.. أعرف أنك غاضب مني أشد الغضب.. وأنني عاصٍ كافر عنيد.. ولكنك غفور رحيم.. اعفُ عني وارحمني.

- إلهي ان كنت بمعذبي، فارجعني للدنيا أُطِعْكَ كما ينبغي، إلهي أنت خالقي بيديك، فأحسن نهايتي ومُستقري، أرجوك.. المغفرة.. المغفرة.. المغفرة.

بكاء لم ينقطع.. يمتزج بأصوات الصارخين بذلك الوادي القريب.. لو تخيلتُ نفسي لحظةً بذلك المكان من قبل لما كنتُ ارتكبتُ أيًّا من خطاياي اللعينة.. تلك الخطايا التي تُقيِّدُني وتُلقي بي بجحيمٍ لعين.. خرجتُ إلى تلك الشرفة.. نيران هائلة أسمعُ صوت حفيفها عاليًا تفزع له نفسي.. تتميز نارها بمن فيها.. وكأنها تنادي على وافدها الجديد.. عليّ.

التفتُّ حولي بكل مكانٍ مذعورًا.. لا مجال هنا للهروب.

كاذبٌ من قال إن الموت هو نهاية الرحلة.. فالرحلة لن تبدإ إلا بالموت.. بداية لعنة أبدية سأقعُ فريستها لا محالة.. صوت جديد ينضم ُّ.. شبيه بأصوات إنذارات الحريق بالفنادق.. صوت عالٍ أربكني.. دخلت للغرفة مُحاولًا إيجاد مصدر ذلك الصوت.. هالني ما رأيتُ.. عددٌ هائل من الديدان تخرج من الشقوق بالجدران.. شكلُها تقشعر له الأنفس.. وفُتح باب الغرفة ودخل أربعة رجال ضخام الجثة، حادو الملامح.. وقفوا ينظرون إليَّ شزرًا.

- لا تخف ذلك صوت جرس باب غرفتك.

قالها أحدهم..

- فلتتفضَّلْ معنا.

- إلى أين؟

- ليس مصرحا لنا بإخبارك بأي شيء.

- لا لن أذهب.. لن أذهب.. لن أتحمل ذلك العذاب.

انهرتُ بشدة تحت أقدامهم.. أدركتُ أنها لحظة البداية.. ما أشدها لحظة.. سأتذوق عذابًا لا يُحتمل.. صرختُ وبكيتُ مُتوسًّلًا إليهم:

- أرجوكم.. لا أريدُ العذاب.. اتركوني.

حملوني وخرجوا بي من غرفتي.. صراخي كان مُدويًا، يتردد بين تلك الصخور الشاهقة.

- اتركووووووووووووووووووووووووني.

وكأنني فريسة يعدُّونها للشواء.. يجهزونها لمصير حتمي.. بئس المصير.

وبعد عدة دقائق.. ومن ممر إلى آخر.. دخلوا بي لمكانٍ شاسع وتركوني أرضًا وانصرفوا.. كانت الأرض طينية مُبللة.. لأول مرة ألاحظ أنني حافي القدمين.. فخروجي وراء جثتي سلبني عقلي.. حالة من الصمت المخيف تُحاصرني.. وقفتُ متلفتًا حولي.. كنتُ بغرفة زجاجية الجدران مستطيلة.. لها باب واحد مغلق وأضواء أرضية حمراء بجدران طينية بعيدة أراها بصعوبة.. وكأنني بغرفة داخل غرفة.. نظرتُ حولي.. لا شيء.. ذلك الصندوق الزجاجي مفتوح من أعلى.. صوت النيران ما زال بأذنيَّ، ولكن صراخهم

اختفى.. شخص ما لم ألحظه وقت دخولي بالغرفة نفسها.. رجل في الخمسين من عمره واقف عن بعد يُراقبني.. نهضتُ بمكاني أنظر إليه دون حركة.. بقي هكذا دقائق كثيرة.. صمتٌ مريع.. قطعه ذلك الرجل متحركًا ناحيتي.. كنتُ مرتعشًا على الرغم من الحرارة العالية للمكان.. رمقني عن قُرب.

- يحيى عبد النور بركات. السن ٢٥ عامًا، الديانة: مسلم.

هكذا دُوِّن ببطاقتك الشخصية.

خرجَ صوتي مرتعشًا يكاد تخنقه أحبالي الصوتية:

- أنا خائف.

- مرحى أيها الشاب، أتخاف وأنت ما زلت ببداية الطريق؟

- لا أريدُ العذاب.

- اهدأ.

- أنا خائف.

- سأُعرِّفك بنفسي أولًا.. أنا عدلي موسى السلحدار.. كنت مرشدًا سياحيًّا، ومُنقِّبًا عن الآثار بصورةٍ غير قانونية قبل أن آتي إلى هنا.

- تقصد قبل أن تموت.

- هذا موضوع يطول شرحه.

نَظَرَ بعيني طويلًا.. مربتًا على كتفي:

- كنتُ أعرف أنك ستأتي لا محالة. كل شيء هنا يُنبئ بذلك.. كل يوم يمرُّ عليَّ وأنا أرى جثتي لا تتحلَّل، ولا يقترب منها الدود يُخبرني بصحة النُّبوءة.

- أي نبوءة؟

- ستحلُّ اللعنة على مكتشفها ومُنْهِيها بنفس القبر.

- عُذرًا.. لا أفهم شيئًا.

تركني وترجَّل بعيدًا عني.. التفتَ إليَّ بعد بُرهةٍ من التفكير.

- أتدري أنك ما زلت على قيد الحياة؟

- ماذا؟

ألقاها بوجهي كقنبلة موقوتة.. كأملٍ التقطته روحي في الحال، وتشبَّثت به متمنية صحته مهما كان ذلك الشخص كاذبًا.. اقترب مني مبتسمًا وعيناه مُغرورقتان بالدموع.

- أنت حيٌّ ... مثلي تمامًا.

- اللعنة! ماذا يحدث لي بحقِّ الجحيم؟

- اللعنة! أصابتك اللعنة.

- أي لعنة؟

- اللعنة لها أصول بعيدة.. لعنة تتوارثُها الأجيال تحت الثرى.. مختبئة كذئب جريح، وينتظر من ينبش قبره ليخرج نابشًا مخالبه بكل ما تطاله يداه.. لعنة مفترسة.

- أرجوك.. أريدُ أن أفهم ما تقول.

- اسمعني جيدًا.. هذه قصة بدأت منذ عشرين يومًا.. حينما كنتُ أنقّبُ عن مقبرة فرعونية.

- أو هكذا تخيلتُ- بصحراء الفيوم فهذه مهنتي أبحثُ عن تلك القبور دومًا.. كنتُ بمفردي هذه الليلة على غير العادة.. توقّف الرجال عن الحفر، وفقدوا الأمل بإيجاد أي شيءٍ قبلها بيوم واحد.. ولكن هناك هاجس راودني تلك الليلة، جعلني أذهبُ لهناك وحيدًا.. حلم عجيب برجل طوله يتعدى الخمسة أمتار يُناديني:

- يا موسى، قَرُب المراد، فاذهب المقبرة تقترب. المقبرة تقترب. المقبرة تقترب.

ترددت كلماته تلك طوال طريقي إلى هناك.. تركتُ سيارتي وأكملتُ الحفر بشغفٍ كبير على إضاءة مصباح صغير كان بحوزتي.. وعلى بُعد مترين

لا أكثر تخلخلت الأرض من تحتي ووجدتُ بابًا ضخمًا له مقبض حديدي.. عرفتُ حينها أنه باب المقبرة المرتقبة.. كنتُ حذرًا للغاية.. فكرت كثيرًا هل أدخل بمفردي؟ أم أنتظر وأحضر رجالي يساعدونني بذلك؟ زيَّن لي شيطاني التمتع بخيرات المقبرة بمفردي دون تقسيم.. ومددتُ يدي لأفتح بابها المغلق منذ زمن بعيد.. ساعات وأنا أحاول زحزحة ذلك الباب العتيق.. وأخيرًا فُتح باب اللعنة.

- مقبرة فرعونية؟

- مقبرة عجيبة.. وجثة رجل ضخم طوله يقترب من الخمسة أمتار بحالتها.. تعجبت كثيرًا

وكأنه ماتَ للتوِّ.. راقبت ملامحه الحادة.. إنه الشخص نفسه الزائر لي بحلم تلك الليلة

التفتُّ حولي، وقفت بمنتصفها أراقب محتوياتها العجيبة.

- أي محتويات؟

- قمصان ضخمة من الجلد، وبعض الأدوات النحاسية الملقاة على الأرض، وبعض البرديات وصلبان تملأ حوائطها الترابية.

وتداخلت حكايته بتلك اللحظة بشيء عجيب.. لفت انتباهي حينها أن الحوائط الخارجية البعيدة تمتلئ بالصلبان، وكأن ما يحكيه يتجسَّد أمام

عيني.. شيء برقت له عيناي.. بَعُدَ صوتُه قليلًا.. وكأن كلماتَه تغيب عن أذنيَّ، ولكني جاهدتُ كثيرًا لأستمع له.. أكملَ حكايتَه:

- توقَّعت أنها لساحرٍ فرعوني.. فهذه الأدوات تُنبئُ بذلك، ولكن ما قصة هذه الجثة؟ هكذا تساءلت.. مددتُ يدي ممسكًا بتلك البرديات.. كانت مكتوبة باللغة السيريانية.

- ما هذه اللغة؟

- لغة قديمة مُشتقة من اللغة الآرامية.. الآرامية كان ينطق بها أهل سوريا ٥٠٠٠ عام قبل

الميلاد، وامتدَّت حضارتهم للكثير من البلدان.. وهذه اللغة الرئيسية التي كتب بها التلمود

.. ويُقال إنها كانت لغة المسيح.. ويقال أيضًا إن السيريانية هي لغة أبينا آدم.. وأنها اللغة التي سيتحدث بها الناس يوم القيامة فيما بينهم.. ولكن الثابت حقًّا أنها لغة اشتُقت من الآرامية، وانتشرت بحوالي ١٠٠٠ عام قبل الميلاد.

كانت الحوائط الزجاجية حولنا تمتلئُ بكتابات بارزة بلون الدم.. لم أستطع قراءتَها.. تركتُه وتحرَّكتُ ناحيتها.. مددتُ يدي لألمسها.. وكأن لا وجود لها.. أراها فقط.. حروف لا أفهمها.. اقتربَ مني ذلك الرجلُ العجيب:

- تلك حروف كُتبت بالسيريانية.. كتلك البرديات.

- ما معناها؟

امتلأت عيناه حينها بالدموع، وكأن هناك مَن يطبق على عنقه فخرج صوتُه مُرتعشًا:

- كتاب ملعون.. مجموعة أوراق صفراء قديمة وجدتُها بأحد جوانب المقبرة طُويت ككتاب واحد.. فتحته.. مكتوب باللغة نفسه.. مجموعة من التعاويذ السحرية، وكلمات لجلب الشياطين.. انتابتني رعشة فجائية لم أدرِ لماذا؟ كنتُ معتادًا ذلك، فأنا نابش قبور فرعونية متمرس.. ولكن هذه المرة تختلف كثيرًا.. اشتممتُ رائحة الدماء بهذه الأوراق البالية.. هذه الكلمات كُتبت بدماء أحدهم.. هكذا شعرت.. عدد كبير من التعاويذ بأوراق عدة، ويتبعها قصة.. كُتبت بالطريقة نفسها.. دماء تفوح رائحتها حتى بعد آلاف السنين.

- أي قصة؟

ابتعد عني قليلًا شاردًا مُنتحلًا شخصية شهرزاد وكأنها قصة من ألف ليلة وليلة.

- يومًا ما.. كان هناك ساحر يأتي له الزائرون من أطراف الدنيا ونواحيها، رجل خارق، أقسمَ معاصروه أنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى، كان

ذلك قبل عصر المسيح بزمانٍ بعيد، واختلطت الأقاويل، فلا يمكن أن تعرف أيها حقيقي وأيها أساطير.

كنتُ أحاولُ التركيز بكلماته كثيرًا.. يصعب على عقلي فَهْمُ كل تلك الأحداث بوقتٍ واحد.. تلك الكتابات على الحوائط الزجاجية مرعبة.. مكتوبة بدماء تتحرك.. وتتساقط بعض قطراتها على الأرض مُحدِثةً صوتًا رتيبًا يخطف القلب.. وهذه الصلبان العجيبة بالحوائط الخارجية تختفي رُويدًا رُويدًا بضباب كثيف يزداد.. وكأن هناك من يملأ بين الغرفتين بدخان لا نهاية له.. وبلحظات معدودة أصبحت غرفتنا سابحةً ببحر من الضباب.. والعجيب أنه لا يتسرب من ذلك السقف الغائب.

- عاش هذا الرجل وحيدًا تسعين عامًا، لا أهل ولا ولد، ولا يعرف له أمًّا ولا والدًا، وكأنه نبت شيطاني ترعرع بقريتهم.. قالوا عنه إنه تزوج جنيات كُثُر.. كانوا يستمعون لمعازف وضحكات نسائية تتردد بصومعته فوق جبل على حافة قريتهم.. وحينما يدخلون عليه يجدونه وحيدًا يقرأ بمفرده.

سَرِقَ سمعي حينها صوتٌ لضجيج يتعالى.. صوتُ أنين ممتزج لعددٍ لا نهائي من الناس.. وبدأ الضباب بالزوال.. ورأيتُ العجب العُجاب.. أُناسًا يرتدون الجلود على أجسادهم ويملؤون ذلك الفراغ بين الغرفتين.. أناسًا أطوالهم تقترب من الخمسة أمتار.. جميعهم يبكون.. تتساقط دموعهم

كأنهار لا تتوقف.. وتمتلئ أرضية الغرفة بنهر دموعهم.. ذلك النهر الذي يعلو رُويدًا رُويدًا.. كنتُ مبرقًا العينين.. هل حكايته تتجسد أمام عيني أم ماذا؟ نظرتُ إليه.. ما زال مستمرًّا بروايته لي:

- وبإحدى الليالي جمعَ ذلك الساحر أهالي القرية أجمعين.. خطب فيهم خطبته الأخيرة..

«ياقوم.. ان أردتم الخلود دون موتٍ فعليكم بترك إلهكم الذي تعبدون».

كانوا يعبدون الشمس.. يسجدون لها نهارًا ويدعونها ليلًا.. أيتركون إلههم الذي يعرفون؟

«إن الفائز هو إبليس، فلغيره لا تنصتوا».

«إبليس هو الرابح الأعظم، فادعوه تنالوا الخلود دون موتٍ».

سَيَطَرَ على عقولهم أجمعين.. وسجدوا لإبليس دون رؤيته تاركين إلههم الذي هو ذاته من أقنعهم به.. فمنذ ثلاثين عامًا أخبرهم بخطبة مشابهةٍ أن الله هو الشمس، كان دجَّالًا عتيدًا.. يعلم أنه على الضلال، ولكنه يُخطِّط لأمر ما واضعًا يده بيد الشيطان.. ولكن حدث ما لم يتوقعه.. أيام ومرض هذا الساحر مرضًا شديدًا.. وساد الحزن كل أهالي القرية.. وتساءلوا فيما بينهم:

أيموت الرجل الحامي لهم والشافي لأولادهم؟ أيغدر به راعيهم إبليس؟ ألن يمنحهم الخلود؟

أخبرهم من ذي قبل أن قريتهم يحرسها الجان ليل نهار.. أيموت وتنتهي حياتهم بعده؟

بكاء ونحيب لا ينقطعان.. تضرعوا بالدعاء لإلههم.. استدعوا طبيبًا ليعالجه من قرية مجاورة.. مَرَّ يومان ولم يخرج الطبيب.. ألهذا الحد الأمر خطير؟ وببداية اليوم الثالث استمعوا لصراخ لا ينقطع ينبع من صومعته العالية .. صراخ ترتعد له قلوبهم.. وكأنه استغاثة من عذاب لا يُحتمل.. وكأن بابًا للجحيم فُتح على أهله الصارخين.. هُرعوا لصومعته محاولين فتح بابها دون جدوى.. حاولوا كسره.. محال.. ومرت ثلاثة أيام أخر لا هم يدخلون ولا ذلك الصراخ يتوقف.. بل يزداد عُنفًا وقوة.

بدأ حينها هؤلاء العمالقة بين الغرفتين بالصراخ.. كانوا يتصارعون للصق وجوههم بجدراننا الزجاجية بشكل يملؤه الذعر.. وكأنهم يُهربون من عذاب مُرتقب.. صراخ وأنين وعويل أشد هلعًا من أعتى أفلام الرعب بالعالم..

استكمل موسى حكايته متعاليًا بصوته على صراخهم وعويلهم:

- وفجأة.. صمتَ ذلك الصراخ.. وفُتح الباب بمفرده.. وامتلأت السماء بغيوم سوداء غاضبة.. أحكمت ظلالها على القرية بأكملها.. ترددوا بالدخول.. ولكن تشجَّع أحدهم

وما إن دخل حتى وجد الطبيب مُعلَّقًا بقرون ضخمة تخرج من الحائط، ودماؤه تُخضِّب الأرض أسفله.. ولا وجود لساحرِهم المريض.. خرج هاتفًا بهم:

- لا أثرَ له.. لا أثرَ له.. مات الطبيب ولا أثرَ له.

وفي اللحظة نفسها أعلنت السماء غضبَها عليهم.. وسقطت سيولٌ كبريتية من تلك السحب فوقهم.

وتجسَّدت حكايته حرفيًا.. وكأن أنابيب بالجدران الخارجية فُتحت فجأة وخرج منها سائلٌ لزجٌ بكميات مهولة.. وبلحظات قليلة مرعبة تحوَّل هؤلاء العمالقة لغرقى تذوب ملامحهم وأجسادهم بذلك السائل.. لحظة عصيبة، وأنا أرى آلاف البشر يموتون بتلك الطريقة البشعة.

- وبغمضة عين تحوَّلت القرية إلى مقبرة جماعية.. ذابت جثثُهم وابتلعتها الأرضُ بين أحشائها، واختفى أهالي القرية بأكملها تاركين بيوتهم على حالها.. تلك القرية التي كان يحرسها الجنُّ.. قرية الساحر.. مَن يمرُّ عليها

يتعجب.. أين ذهب أهلها أجمعون؟ وامتلأت الدنيا بالأساطير.. وتاهت الحقائق عبر الأزمنة.

كان ذلك السائل يتعالى بين الغرفتين.. كنتُ مرتابًا بشدة أن ينفذ لنا من سقفنا الغائب هذا.. نظرتُ ناحيته قاطعًا روايته:

- هل ترى ذلك السائل الكبريتي؟ إنه في طريقه إلينا.

- دعني أُكمل لك.. لم يعد هناك وقت.

- تكمل ماذا؟ ما علاقة كل ذلك بي؟ ولماذا أخبرتني أنني ما زلتُ على قيد الحياة؟ يبدو أنك مجذوب.. أخرجوني من هنا.

الغوووووووووووووووووث.

كنتُ أصرخُ مخبطًا على تلك الجدران بكل قوتي لعل أحدهم يسمعني وينقذني.. صرخ بوجهي بقوة:

- صه.. اصمت واستمع لي.

اقترب مني ممسكًا بكتفيي بشدة:

- هذه المقبرة التي اكتشفتها هي مقبرة ذلك الساحر، وتلك هي جثته على حالتها.. على حالتها دون تحنيط.. وما وجدته هي متعلقاته.. وهذا الكتاب كان بدمائه، وتلك كانت حكايته.

- وكيف عرفت ذلك؟

- تلك الكتابات على جدران المقبرة.

أشار حينها لهذه الكتابات الدموية على جدراننا الزجاجية وكأنه يقرؤها.. كان مرتعدًا مُرتعشًا يتحرك بينها سريعًا.

- ترجمتُها بسهولة كمخطوطه سرية.. جمل منفصلة تحمل معاني كثيرة.. سأموت.

واذهب للجحيم.. لعنة لا تُمحى.. أنا الساحر الكافر أحملُ ذنبًا لا يُغفر.. غدر الحليف.. خانني إبليس.. هذه الأوراق تحمل تعاويذ سخرت لي الجانَّ.. وانقلب السحر على الساحر.. من سيقرؤها ستصيبه اللعنة.. موت جزئي.. حي ميت.. يراك الأحياء ميتًا، ويراك الأموات حيًّا.. يدفنك الناس وتظلُّ روحك هاربةً مُعلقةً لا موت ولا حياة.. كلما زادت الخطايا زادت اللعنة.. اللعنة إن بلغت حِدَّتها سيتوقف الزمن وستتداخل الأزمنة وستهلك الأرض.. سيبقى الشَّرُّ إلى ما لا نهاية وسيكبُر وستُنبش القبور.. ولن تُمحى اللعنة إلا بطواف تحلُّ روحه بأجساد الخطائين.

تلك هي النبوءة.. رجل اسمه كاسمي وشكله كشكلي، لكنه ليس بساحر.. إن أتى.. عليه بإصلاح خطايا كل من تُصيبه لعنتي قبله.. وليحذر.. للكتاب الملعون هذا حُراس من الجان سيمنعونه بكل ما أوتوا من

قوة.. لتتحقق اللعنة لنهايتها وينتهي البشر.. إنها الفرصة الأخيرة.. النبوءة.. طواف يصلح الخطايا بعدها سيظهر كتابي الملعون له.. عليه بحرقه.. حينها ستنتهي اللعنة وتتحقق النبوءة وسأعود للحياة.. أنا وهو.

- ما هذا الهراء أنا لا أفهم شيئًا مما تقول.

كانت أنفاسه تتصارع دون توقف.

- واختفت تلك الكتابات فجأة، ودارات تلك الصلبان الواحد تلو الآخر.. انقلبت الصلبان، وبنفس اللحظة اختفت تلك الكتابات على الجدران الزجاجية، وانقلبت الصلبان وكأنها تُجسِّد كلامه بالحرف الواحد.. كنتُ أراها بوضوح بين بقايا جثثهم الغارقة.. ضوءٌ عجيب يخرج منها يخترق جيفهم، وكأننا بحوض أسماك تملؤه الأنوار.. واقترب ذلك السائل على الوصول لحافة تلك الجدران، وهؤلاء الغارقون مبرقو العينين يذوبون حولنا.. صرختُ مخبطًا على الزجاج.. بينما موسى يُلاحقني.

- الغوووووووووووووووث.

- هُرعتُ لتلك الأوراق البالية لعلي لم أكمل أيًا منها.. سطران لم أقرأهما: «رأيت قومي يذوبون بالكبريت.. وهربتُ وجثتي لأراضٍ بعيدة.. حملتُها على دابة نقلتنا ودُفنت بها منتظرًا تحقُّق النبوءة.. منتظرًا مكتشفها ومُنْهيها».

علا صوتُه وكأنه يصرخ هو الآخر ليُسمعني كلامه ولأتوقف عن الاستغاثة.

-تساءلت حينها: هل أنا المقصود؟ ووجدتُ اسمي واسمك.. مكتوبين بعد مكتشفها ومُنْهيها، أنا من اكتشفتُ تلك اللعنة، نبشتُ قبرها وأنت مَن سيُنهيها.. هكذا قالت النبوءة.

- اسمي أنا؟

توقفتُ عن الصراخ ناظرًا له بتعجُّب.. اقترب مني ناظرًا بعيني عن قُرب.

- يحيى عبد النور بركات.. ستظلُّ طوافًا بروحك بأجساد الخطائين قبلك. ومن وجدوا ذلك الكتاب بعدي.. هذا الكتاب تركتُه بخزنتي بعدما عدتُ لمنزلي، وأغلقتُ المقبرة متوترًا مرتجفًا.. وتفاجأت بموتي بالصباح ودفنوني هنا.. لم أنسَ تلك الكلمات من وقتها.. وكنتُ أعرف أنك ستصل إلى هنا لا محالة.

- ما معنى ذلك؟

- أنك ما زلتَ على قيد الحياة، وكذلك أنا وهذا الساحر.. وقد نعود للحياة إن تمكنتَ أنت من إصلاح خطايا من ستحلُّ روحك بأجسادهم..

هؤلاء من تناقلوا المخطوطة بعدي حينها ستجدُ ذلك الكتاب اللعين وتحرقه.. بيدك إنهاء تلك اللعنة وإلا ستهلك الأرض، وستتداخل الأزمنة إنذارًا بذلك.

- ما هذا الهراء؟

- بحثتُ عن ذلك الساحر كثيرًا هنا، ولكن يبدو أنه بمُنتظر آخر بعيد عنا.. فالمُنتظرات كُثر كما عرفتُ، أُدرك أنه ضرب من الجنون، ولكنه يتحقق فهأنا هنا بين الحياة والموت وجثتي لا تتحلّل مثله.. وأنت هنا بنفس المُنتظَر.

- كيف ذلك وأنا لم أرَ ذلك الكتاب بحياتي؟

- لا تفسير لديَّ ولا وقت لذلك.. كل ما أعرفُه أن ذلك الساحر رُهنت حياته بتلك اللعنة، لعنة تصيب أصحاب الخطايا الكبرى بشرط امتلاكهم الكتاب الممتلئ بتلك التعاويذ، وبيديك أنت فقط إنهاؤها

- أنت مؤكد مجذوب.. أخرجوووووني من هنا..

الغووووووووووووث.

- إنها فرصتنا الأخيرة للنجاة لنعود للدنيا ونصلح أعمالنا لننجو من ذلك الجحيم. أرأيتَ وادي النار؟ أرأيتَ ذلك الدود ومشروب الصَّديد؟ افعلْ كل ما بوسعِك لننجو.

- الغوووووووووووووووووووووووووووث.

وبلحظة واحدة امتلأت غرفتنا الزجاجية بذلك السائل الحارق.. عذاب منقطع النظير شعرت به حينها.. لعل الفارق فقط هو أنني لا أذوب مثلهم لأنني روح.. ولكنني أعاني الغرق.. أُغالِبُ أنفاسي المكتومة، ورائحة نيران تلتهمني.. كان ذلك الرجل المجذوب يصرخ بكل قُوَّتِه تحت ذلك السائل.. وأنا كذلك.. لا مَفرَّ من العذاب.. شعور بالموت لا ينتهي.. كأولئك المحروقين بوادي النار.. لا موت بعد الآن.. تمنيتُ حينها صِحَّة تلك القصة العجيبة التي رواها لي ذلك الرجل.. تمنيتُ الحياة.. حتى وإن كانت بأجساد الآخرين.

غبتُ عن الوعي وصرخته تتردَّد بأذني:

- طواف بأجساد الخطائين.. حراس الجان سيمنعونك... الكتاب الملعون.

***

النبشة الخامسة (غمُوض جَبْرِيّ)

إنها الثانية بعد منتصف الليل.. وكأن هذه الليلة تأبى الرحيل.. ليلة غاب عنها القمر ليغزو الظلام قلوب الساهرين، ويفتك بالخائفين تحت ستره العظيم.. صوت عقارب الساعة الرتيبة بحدٍّ ذاته أصبح لا يُطاق.. صوت يعلن بكل لحظة اقترابَ موتِك ومُضيَ حياتك وفناءها.. فما عمرك إلا أعداد من اللفات لتلك العقارب اللعينة.. كأفعى شرهة تحمل كامل سمها بذيلها وتنتظر الوقت المناسب لتغرزه بقلوب المقبلين على الدنيا وتجبرهم على الرحيل.. سُمٌّ لا ينتهي منذ فجر التاريخ.

جلس يعقوب إدريس شاردًا بتلك الساعة المعلقة على حائط المستشفى.. لم يستطع الذهاب لبيته هذه الليلة دون أن يمر عليها.. حبيبته القديمة.. كل من يُحيط به يعرف ذلك، ولكنهم يتجنبون الخوض بسيرتها معه.. يحاولون تضميد جرحه المستمر عن بُعد.. الكل يعرف قصة حُبِّه القديمة مع «دانا شمعون» جارته المتزوجة غصبًا بحكم والده الراحل.. دارت الدنيا وانفصلت عن زوجها بعد طول خناق.. انفصلت عنه بعد موت ابنها الوحيد بحادث سيارة وكأن الله يعاقبها على فعلتها القديمة وتخليها عنه، فلم تنسَ يعقوب قط.. كانت تتابعه عن بعد وتسأل عن أحواله دائمًا.. لطالما

وقفت متسللة خارج قصر والده بإيطاليا تتابعه عن بُعد بسجنه اللعين.. كانت تراه حزينًا صامتًا، مُحدد الإقامة تحت حراسة دائمة.. خاطرت بكل شيء لتراه ولو عن بُعد.. لم تخف من سلطان والده الجبار ولا من زوجها.. عذبها حاله.. تساءلت كثيرًا: ما هذا الدين الذي ضحى يعقوب لأجله بكل هذه التضحيات؟ ظنَّته مجنونًا.. صدقت ما قاله لها والدها بأن يعقوب أصبح مجذوبًا خطرًا، وأن ما يفعله والده هو خير علاج.. ولكن شَبَحَ حبهما ظلَّ يُطاردها دائمًا دون توقُّف.. حتى وهي بين أحضان زوجها.. ذنب كبير مُعلَّق برقبتها.. هكذا ظنَّت.. لم يكن عليها تركه مهما يحدث.. حبهما العتيق بقلبها يُؤنِّبها ليلًا نهارًا.. كان عليها المكوث بجواره ومحاربة الجميع.. فليسجنوها معه بعُزلته تلك الجبرية.. إن كان بيدها لبقيت عمرها تحت قدميه، ذلك الحبيب الذي لا يُنسى.. تبًّا لهذه الدنيا! تبًّا لعائلتها! لو كانت تتحمل مسئوليتها فقط لكان قرارًا واحدًا دون غيره.. العيش معه أو الموت، لا شيء سواهما.. مرت السنون وعرفت أنه رحل بعيدًا للقاهرة بعد موت سجانه.. زادت الخلافات مع زوجها حتى مات ابنها.. حينها أدركت أن عليها الرحيل.. انفصلت عنه دون رجعةٍ تاركةً كل شيء خلفها.. تركت خمسة عشر عامًا من العذاب.. آنَ لها أن تعيش برفقة حبيبها.. حزمت أمتعة آلامها ومعاناتها الجليَّة وهاجرت بحثًا عنه بوطنه البعيد.. يهودية إيطالية تبلغ

من العمر أربعين عامًا تهيم بشوارع القاهرة تبحث عن المجهول.. لا تملك من حُطام دنياها سوى صورته القديمة التي تجمعهما معًا بإحدى لحظات عشقهما الممنوع.. تائهة ببلد لا تعرفه.. حاولت الوصول إليه من خلال سفارتها بالقاهرة.. وهناك أخبرها أحدُهم بلغتها الإيطالية ساخرًا:

- هذا هو الروائي الكبير يعقوب إدريس .. هي صورة قديمة، ولكن ملامحه واضحة للغاية.. كيف لا تعرفينه؟

- عذرًا فأنا لا أتابع الحركة الثقافية.. ليست من هواياتي.

- كيف لي أن أخدمك؟

- أريدُ مقابلتَه.

وأخيرًا بعد طول عناء جاءت اللحظة المرتقبة.. لقاء طال انتظاره خمسة عشر عامًا.. لم يتوقعه يعقوب قط، فكانت حبيبته تلك ضمن أشلاء متبقية بقلبه تمتلك كل ذرة به.. لم ينسَها مُطلقًا مهما يحاول ذلك، ومهما تتغيرت دنياه وحياته الجديدة.. وقف الاثنان غير مصدقين ما تراهُ أعينهما.. أحقًّا ذلك؟ أهذا هو حبيب عمرها أمام عينيها؟ أهذه هي معشوقته المفقودة؟ سالت دموعهما بلحظتها، وارتميا بأحضان بعضهما البعض.. عناق دام ساعات.. بكاء لا يتوقف ممتزج بفرحة عارمة بهذا الدفء المجتاح لهما بغتةً.. كغارقين

ببحر عميق من الوحل يصبُّ بنهر رائق ضحل.. شعور بالأمان بعد ضياع سنين طالت.

حكت له وحكى لها.. تحدثا بلغتهما التي لا يفهمها غيرهما.. لغة العشق.. وكأنهما وُلدا من جديد وبُثت فيهما الروح من جديد لينبضا بالحياة معًا.. ليعيشا ما تبقى من عمرهما دون فراق.. قرَّرا وأد الماضي بكل ما فيه من ألمٍ وعذابٍ.. وعدها أن يعلمها اللغة العربية لتقرأ وتفهم ذلك الدين الذي غيَّر حياته.. أخبرته أنها تريدُه هو فقط دون أي شيء آخر غيره.. تريد أن تمكث ما تبقى من عمرها هنا بحضنه الدافئ.. إنه دينها وعقيدتها بهذه الدنيا.. حددا ميعاد زواجهما، وأعلن هو للجميع نبأ زواجه بها.. زواج الروائي الناجح يعقوب إدريس بفتاة إيطالية.. لم يلتفت أحد لديانتها.. أو بالأحرى هو من أخفى ذلك الأمر عن الجميع.. يعلم جيدًا حساسية البعض من اليهود وديانتهم على الرغم أنها لم تزر إسرائيل قط، ولكنه فضَّل الاحتفاظ بذلك بينهما.. فالناس بهذا الزمان لا تُفرق بين الصهاينة واليهود.. ولن يدخل بسجال بغير موعده.. حذَّرها من إخبار أحد بديانتها، وطاوعته دون أدنى تفكير فهو ربُّ حياتها وسعادتها.. جهَّز لزفاف أسطوري بأكبر الفنادق.. واشترى لها فستانها بنفسه.. كان ذلك منذ عامين تقريبًا.. ولكن القدر دائمًا يُلاحقهما بأسوأ الأشياء، يقذفهما بسهامٍ مُميتة.. وكأنه ينتقم منهما طوال العمر.. فقبل

حفل الزفاف بأيام معدودة اتصلت خادمة يعقوب به هاتفيًا وهي متوترة مرتعشة الصوت، وقد كان بندوة لمناقشة كتابه الجديد:

- سيدي.. السيدة دانا لا تصحو من نومها.

- ما معنى ذلك؟

أجابته باكيةً:

- لا أعرف يا سيدي، ولكننا حاولنا كثيرًا دون جدوى.

هُرع لبيته حينها تاركًا كل شيء.. وقف على باب غرفتها دامع العينين.

- لا.. لن ترحلي.

هَمَسَ بها وهو يخطو تجاه جسدها والطبيب بجوارها.. قد طلبه ليسبقه إلى بيته في الحال.. نَظَرَ إليه الطبيب.

- سيد يعقوب.. عليك بنقلها فورًا للمستشفى، فحالتها خطيرة.

ذبحة صدرية مُفاجئة.. ضعف بعضلة القلب.. هذا ما أظهرته الأشعة والتحاليل هناك.. سُحقًا لهذا الزمن.. أربعون عامًا ومرضها مختفٍ كمجرم ينتظر اللحظة المناسبة لتنفيذ مهمته.. وكأن سقمها هذا تحالف مع والده الراحل واتفقا على فراقهما مدى الحياة..

- كل التحاليل تُنبئ بأن الأمر غاية في الخطورة.. هناك عيبٌ خِلقي صغير بالقلب منذ ولادتها.. ويبدو أن المريضة مُدمنة شديدة للكحول، مما أدى لتفاقُم تلك الأزمة يومًا بعد يوم.

كانت تلك هي كلمات الطبيب له بغرفة العناية المركزة.. يعلم أنها لم تكف عن شرب الكحول لتحاول نسيان مأساتها.. كانت تقتل نفسها بيدها.. نظر للطبيب وهو يغالب دموعه.

- أهناك أمل؟

- ادعُ لها الله، فكل شيءٍ بيديه.

ومِن حينها وهي بالعناية المركزة بغيبوبة لم تُفِقْ منها قط.. غيبوبة دماغية.. أخبره الأطباء أن القلب قد يتوقف بأي لحظة إن فصلوا عنها الأجهزة المساعدة.. ذلك القلب الذي طالما تعذَّب وتوجَّع بسبب الفراق.. حتى هي لم يخطر ببالها أن تلك الآلام المهاجمة لصدرها بين الحين والآخر مرض قلبي.. كانت تُرجعه لعذابها وبُعدها عنه.. ارتعد من مجرد فكرة رحيلها مجددًا.. مأساة جديدة تنضم لحياته لتدمرها.. كان يبيت معها أيامًا لا تُعد تاركًا كل شيء.. يمكث بالشهور يُكتب هنا بجوارها بالمستشفى.. روايته الأخيرة التي رُشحت لجائزة نوبل كتبها بغرفتها تلك.. وروايته الأجدد

التي بدأها منذ عدة أيام يكتبها بجوارها أيضًا.. مكتب صغير عليه بعض الأوراق والكتب الخاصة به.. يجلس برحابها يُراقبها لحظة بلحظة.. وكأنها تصنع منه أديبًا عالميًا .. ويخرجُ من رَحِمِ الأسى كاتبٌ شهير تزداد شُهرته كل يوم.. عامان من الأسى ورغم ذلك ما زال الأمل يُراوده بين الحين والاخر على الرغم من تعجب الأطباء على إصراره لاستمرار تلك الأجهزة المساعدة لها.. حقًّا إن قلبها ما زال ينبض، والروح ما زالت تدبُّ بها، ولكن بمجرد إزالة تلك الوسائل المساعدة حتمًا سيتوقف القلب وستغادر روحها ذلك الجسد الهزيل معلنة وفاتها.. يومًا ما صرخ يعقوب بأحد الأطباء:

- إياك أن تطلب مني ذلك مرة أخرى.. دانا على قيد الحياة، وستظلُّ هكذا مهما أتكلفْ

كان يُصبِّر نفسه بكلماتٍ يهمس بها لنفسه:

- لو أن الله قدَّر موتها.. ستموت حتى ولو وضع لها ألف جهاز.. دانا ما زالت حية، ما زالت الروح تدبُّ فيها.. دانا لم تُتوفَّ دماغيًّا، هي فقط بغيبوبةٍ، وتلك الأجهزة ستساعدها حتى وإن بقيت هنا طوال عمرها.. سيأتي يوم تمتلك فيه الدنيا وما فيها.. متيقن من ذلك.

كان يحدثها بالساعات مُربتًا على وجهها براحتي يديه:

- لا تخافي يا حبيبتي.. سأمكث هنا بجوارك طوال حياتي، لا تخافي حاولي فقط استعادة وعيك.. أعرف أنك تسمعينني.. استجمعي قواكِ وغادري تلك الغيبوبة الدماغية اللعينة، وإن حكمت دنيانا بذلك سنبقى هاهنا على هذه الأجهزة المساعدة لقلبك المريض طوال الوقت، نعم.. سنعيش هنا بهذه الغرفة ما تبقى لنا من العمر.

ليالٍ عديدة تخضبت مُلاءتها بدموعه التي لا تتوقف.. وها هو يعود إليها مرتعدًا من تلك الإسرائيلية المأجورة التي أخبره عنها رئيس المخابرات.. ليس خوفًا على حياته.. بل على حياتها هي.. فرحيله عن هذه الدنيا يعني موتها.. من سيرعاها ويصرُّ على بقائها هكذا على قيد الحياة؟

جَلَسَ ينظرُ إليها ساعة كاملة.. يتابع صدرها الذي يعلو وينخفض بأنفاسها مُترقبًا عينيها المغلقتين كملاك نائم.. لربما تفتحهما بأي لحظة.. لطالما انتظر ذلك.. ترقب انتصاره على أولئك الأطباء.. ترقبها ليقصَّ عليها كَمَّ معاناته خوفًا من فِراقها.. اغرورقت عيناه بالدموع.. نهض من مقعده واتجه إلى حاسوب إلكتروني صغير وضعه بغرفتها حاملًا أغانيها وموسيقاها الإيطالية المُفضَّلة.. أطفأ أنوار الغرفة، وأشعل بعض الشموع بجوارها لتضفي بعض الأجواء الرومانسية التي تحبها مستمعًا لأغانيها القديمة.. كانت غرفتها مملكة خاصة بها يقترب إليها الأطباء بحذر شديد.

خطا بقدميه على أنغام تلك الاغنية راقصا على إيقاعها الإيطالي ناظرا لها وكأنه يرقص لها.. راقص تذبحه أشواقه إليها.. خبطات على الباب رقيقة تستأذنه بالدخول.. توقف ناظرًا ناحية باب الغرفة.. دخلت نسمة مختار على استحياء.

- نسمة! كيف عرفتِ أنني هنا؟

- توقعتُ ذلك.

- ألم أُخبرْكِ مُسبقًا أنني لا أحبُّ أن يدخل أحدٌ إلى هنا؟

- عُذرًا.. فقلقي عليكَ هذه الليلة فاقَ كل الحدود.

- هذا ليس مبررًا لوجودك هنا.. قلتُ لكِ: إن الشرطة ستتكفل بهذا المجرم.

اقتربت منه ومدَّت يدها لتمسح دموعه.

- يعقوب.. لا تخجل مني وتُداري دموعك.. أنا أحبُّك وأُقدِّر ذلك الحب بداخلك.. أُقدِّر رجلًا يبقى بجوار حبيبته القديمة حتى وهي بهذه الحال.

- ستفيق.

قالها صارخًا بها.

- ستفيق وستعود كما كانت.

- اهدأ يا حبيبي.. أتمنى لها ذلك.. أتعرف؟ ربما هذه هي المرة الأولى التي أخبرُك فيها بهذا، أتمنى أن أراكما بحفل زفافكما.. وأنا من ألبسها فستانها، وأشهد فرحتكما معًا.

- أنتِ؟

- منذ اليوم الاول وأنا أعرفُ قصتكما.. أعرفُ قَدْر حُبِّك لها، أعرفُ هذا الكَمَّ الهائل من الوفاء والحُبِّ.. عشق أنحني أمامه دون تفكير.

سادت لحظاتٌ من الصمت بينهما، والأغنية مستمرة خلفهما ذات طابع أوبرالي، اقتربت نسمة منه أكثر وأكثر.. ناظرة ناحيتها:

- حبيبتك جميلة كالملاك.

كانت تُربت بيدها على كتفيه وتقترب بشفتيها من شفتيه.. لهيب أنفاسها يهاجمه بمحراب حبيبته دانا.. فتاة متفجرة الجمال كنسمة تؤازره بمأساة لا تنتهي.. بقبلات لا تنقطع.. غاص بشفتيها الجميلتين مسلوب الإرادة.. ودفن حزنه بأحضانها المثيرة.

***

لهيبُ عِشقٍ مُستتر بين أروقة المقابر.. فارسه الوحيد ذلك الهارب الجديد من شُبهات جريمة لم يرتكبها.. هكذا توقع الغندور، ولكنه مفتاح لغز حتمًا سيوصله للجاني.. هناك سِرٌّ كبير وراء وجوده بمكان الحادثة لحظة تنفيذ الجريمة.. جاسر عبد الرسول.. ذلك الغامض العجيب.. ارتمى بأحضانها كالمعتاد.. ارتوى من عِشقها دون حدود.. فمن غيرها يهرب من تلال همومه وأحزانه إليها.. رفيقته منذ سنوات.. شادية بهلول.. فمنذ أن وطئت قدماه تلك المقابر الواقعة بأعماق المقطم وهي حبيبته.. فتاة وحيدة تعيش بمفردها بعد رحيل والدها.. يتيمة الأم والأب مثله.. وجدت نفسها محاربة وسط غابة من الذئاب.. ورثت مهنة والدها.. وجلست على أبواب إحدى الجبانات تنتظر الموتى الجُدد لتفتح لهم قبورهم وتجهزها.. مهنة شاذة بالنسبة لها.. فتاة تعمل بالمقابر.. دُرةٌ مدفونة بين أتربة الفقر المدقع.. جمالها أخّاذ ولكنه مُغلّف بالهموم والحاجة.. حاجتها تلك جعلتها عاملة مقابر.. وحكم ذلك على مظهرها كثيرًا.. فمن الصعب على أيٍّ من الناس إدراك أُنوثتها.. حتى شعرها الحليق ينبئ بذكورتها.. لم يكتشف جمالها سوى جاسر.. كمكتشف الدُّرر بأحشاء بحر الجبانات.. مقابر لم تجد سوى جدرانها ملجأً، فهي لم تخرج من هذه المنطقة منذ ولادتها.. فهناك بهذه الأماكن لا مكان للأحياء داخل القبور وخارجها.. كلهم موتى.. وهي واحدة منهم.. مجتمع موازٍ لا

يعرفه إلا من يعيش لياليه بداخله.. في سفح جبل المقطم وفي منطقة يصعب التعرف إليها أو الوصول إليها ووسط مقابر الغفير يقبع الكثيرون وسط منطقة تضمُّ بين جنباتها آثار أقطاب التصوف في مصر، والغريب أن تحتوي هذه المنطقة على عناصر مختلفة ومتباينة؛ بين مدافن ومسجد وبيت وقبة، بخلاف مساجد لطائفة البُهرة "إحدى طوائف الشيعة"، ويُطلق على هذه المنطقة القرافة الصغرى.. في سفح جبل المقطم يقع مسجد سلطان العاشقين عمر بن الفارض الذى يحتفي به الصوفيون كثيرًا، فصاحبه عمر بن الفارض، وهو واحد من كبار الشعراء الصوفيين، ويحفل بشعره الشعراء والدارسون، ويصف بعضهم ديوانه بأنه أرقُّ الدواوين شعرًا.

وقد تُوفي في سنة ٦٣٢ هجرية «١٢٣٥م»، ودُفن بالمقطم، وبعد أكثر من قرنين من الزمان، وفي سنة ٨٦٥ هجرية «١٤٦٠م» أقام الأمير برقوق الناصري الظاهري قُبة على قبره، وهي قبة صغيرة مبنية بالحجر، وهناك أيضًا قبة الأسباط.. وتُشير المصادر التاريخية إلى أن إخوة يوسف عليه السلام مدفونون تحتها، وهي في مُجملها غاية في الروعة والفن المعماري المتميز، ولكن للأسف صارت مقلب زبالة، كما تهدَّمت بعض أسقفها.. وهناك أيضًا قُبَّة جميلة هانم، ويُحيطُ بها سور وحديقة، ولها باب خشبي أثري، وللأسف أيضًا أصبحت في حالة يُرثى لها، بخلاف تربية الدواجن التي يقوم بها حراس

المدفن مما جعل المنطقة في غاية السوء.. ومسجد اللؤلؤة وهو مسجد أثري ينتمي لطائفة البُهرة، وترجع تسميته بذلك لأنه عند إضاءته مساء يصير مثل اللؤلؤة وسط الجبل، وهو مسجد خاصٌّ، ولا يدخله سوى البُهرة.

هناك تحت سفح المقطم، وبهذا المكان اختفى جاسر كل هذه السنوات دون أن يسأله أحد من هو ومن أين أتى؟ وهل يُسأل الأموات عن أصولهم؟ أفضل مكان يُمكنُك الاختفاء به هي القبور فزائروها من الأحياء يعميهم البكاء، فلا يلاحظون أيًّا من سكانها، ولا حتى ساكنوها يتتبعون بعضهم البعض.. كُلٌّ لاهٍ في ليلاه.. عاش جاسر آمنًا بهذا المكان.. دافنًا أسراره بأحضان معشوقته شادية بهلول.. وكأنها روحه لا يَخْفَى عنها شيء، وأصبح أملها الوحيد للخروج من هذه القبور للحياة هو جاسر عبد الرسول.. حبيبها المثقف.. لطالما وصفها بالأشعار التي كان يعشق قراءتها.. فغرفتُه التي استأجرها بتلك المقبرة تعجُّ بكتب الشعر.. تلك المقبرة المهجورة الواقعة على أطراف المقطم.. استأجرها من عجوز وحيد كان يعمل بها ومات بعدها ليرثه هو الآخر بالمهنة نفسها.. عامل مقابر.

كان فَرِحًا سعيدًا تلك الليلة.. نَهَضَ جاسر بعد انقضاء شهوته من مرتبته الصغيرة وتركها تُلملم أشلاء حُبِّه الملتهب.. نظرت له مبتسمة:

- أراكَ سعيدًا اليوم على غير العادة.

أشعل سيجارته ونفثَ منها بشراهة شديدة.

- الحُبُّ ما مَنَعَ الكَلامَ الألْسُنَا وألَذُّ شَكْوَى عاشِقٍ ما أعْلَنَا

ليتَ الحَبيبَ الهاجري هَجْرَ الكَرَى

من غيرِ جُرْمٍ واصِلي صِلَةَ الضنى

ضحكت شادية بمكانها.

- هذه الكتب التي تقرؤها جعلتك غير مفهوم بالمرة.

- هذا شعر للمتنبي.

- أنت تعرف أنني لم أتعلم لا القراءة ولا الكتابة.

- سأعلمك.. حتمًا سيأتي يومًا وسأعلمك.

- ألن تخبرني بسبب سعادتك؟

- اليوم وُعدتَ بانتهاء تلك المعاناة.

- ربما وعد زائف.

- كلا هذه المرة خاصة سيتحقق المراد.

نهضت واحتضنته من الخلف بدفء يحاصره:

- أحلم بذلك اليوم منذ سنوات.. أن ترافقني هناك بعيدًا خارج تلك القبور بدُنيا لا أعرفها، أراها فقط في الأحلام.. أشتمُّها برائحة أولئك الوافدين الدافنين لأعزائهم بمقابرنا. ألمحُها بسيارتهم الفارهة.. أتعرف؟ كنتُ دائمًا أشردُ ببكائهم وأتساءل: ماذا إذا تبدلت الأماكن وكنت أنا مكانهم هناك وهم مكاني؟ أيبكون حينها على موتاهم؟ كلا سيفرحون لأنها الوسيلة الوحيدة هنا للراحة.. الموت هو الفرار من عذابٍ لا ينتهي بهذا المكان.. الهروب من وحشٍ كاسر ينهش أجسادنا ليل نهار.. الفقر.. وحش ملعون..

التفتُّ ناحيتها ناظرًا بعينيها بحنانٍ شديد.

- أريدُك أن تساعديني بشيءٍ ما.

نظرتْ إليه مُنتظرة.. تحرَّك ناحية جانب من الغرفة.. أخرجَ ماكينة حلاقة وأشار ناحيتها

- ستزيلُ ذقنَك؟

- سأتخلَّص من كل شيء يجذبني لماضٍ لم يعد له مكان بحياتي بعد اليوم.

اقتربت منه برغبةٍ واغراءٍ شديدين.

- حتى أنا؟

التقمَ شفتيها بشغفٍ عارمٍ.. قُبلة عنيفة مُلتهبة.. احتضن جسدها الرقيق بأقصى ما لديه من قوة.. وبلحظة واحدة مد يده على تلك المنضدة بجواره ماسكًا بسكين حادٍ.. ذَبَحَ رقبتها من الخلف.. لوهلةٍ لم تصدق ما حدث.. نظرتُ له والدماء تتطاير منها، وروحُها تكافح بجسدِها.

- لماذا؟

- الموت لكِ راحة يا حبيبتي.. لن تستطيعي العيش هناك بدنياهم.

سقطت جاحظة العينين.. وسقطت دموعُه.. كان جسدها يهتزُّ كذبيحة تتعلق بالحياة.. جثا على ركبتيه مُربتًا عليها بحنانٍ ليستكمل ذبحها..

- لن أتركَكِ تتعذبين.

فَصَلَ رقبتها عن جسدها تمامًا بقسوةٍ شديدة وبكاء لا ينقطع.. رفع رأسها ناظرًا لها بحبٍّ وجنون حتى توقفت تمامًا عن الحركة..

- أحبُّك.. ارتاحي في سلامٍ.

وقبَّلها قبلةً طويلة.. قبَّلها وسط دمائها المنبثقة كخروفٍ غُدر به قبل موسم موته.. ذُبح قبل الأوان.. ترك رأسها فوق جسدها ونَهَضَ يُلملم بقايا نفسه المتنازعة.. وضع شريطًا بالمُسجل:

-اسمعي.. أعرف أنك تحبين هذه الأغنية.. فلنسمعها معًا.

خرج صوت موسيقا أغنية أنت عمري لأم كلثوم.. تمايَلَ معها وكأنه يُشاركها الرقص ناظرًا لجثتها:

- عشتُ معكِ أحلى الأيام.. كنتِ خير رفيقة بهذه المرحلة الفائتة.. صدقيني يا حبيبتي لن أستطيع مرافقتك هناك.. ولن تقوي على العيش بدوني هنا.. أعرفُ أنني كل حياتك.. لو مَرَّ يوم دون رؤيتي ستبحثين عني كالمجنونة.. فما بالك إن هجرتُك ورحلتُ بعيدًا! صدقيني هكذا أفضل.. تموتين على حبي.. وتدفنين معك هنا كل أسراري.

بدأت أم كلثوم أغنيتها وكأنها تردُّ على كلامه:

- رجعوني عينيك لأيامي اللي راحوا.. علموني أندم على الماضي وجراحه اللي شوفته قبل ما تشوفك عينيا.. عمر ضايع يحسبوه إزاي عليا.

جلس مُنزويًا بأحد جوانب غرفته ناظرًا لجثتها ودموعه لا تتوقف.. إنها ليلتها الأخيرة.. نظرته الأخيرة لوجهها الجميل.. كم سيشتاق إليها.. يدرك أنه شيطان دموي، ولكنه يحبُّها.. فكما قالت الحكمة المتوارثة لدى الهنود الحمر.. داخل كل منا معركة بين ذئبين متصارعين؛ واحد منهما هو الشر، هو الغضب، والحسد، والجشع، والكذب، والفوقية، والأنا، والآخر هو الخير،

هو الفرح، والسلام، والحب، والأمل، والتواضع، والتعاطف، والصدق. أي الذئبين ينتصر؟ الذئب الذي تُطعِم؟

ومنذ ذلك الظلم الواقع عليه بحياته قرَّر أن يعيش ذئب الشَّر بداخله فقط.. وليرحل ذئب الخير إلى غير رجعةٍ.. .همس مغالبًا دموعه ناظرًا لجثتها:

- الوداع.. الوداع يا حبيبتي.. الوداع.

***

تسلَّلت أشعة الشمس خلف سُحب كثيفة لتعلن بدء يوم جديد.. اليوم الأول بعد الجريمة.. التاسع من يناير.. صباح فاتر مُلبَّد بالغيوم.. تشعر بالسكون الحذر بكل مكان.. تراه بوجوه الناس، وكأن على رؤوسهم الطير.. وكأنهم يغطُّون بنوم إكلينيكي.. يتحركون في أثنائه مُغيَّبين.. فالناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا.. حديث مُتوارث عن النبي محمد.. .سكون ينذر بعاصفة على الأبواب.. أبواب فيلا حبيبة النجمة الراحلة.

صباح عجيب.. وقف محمود غندور مندهشًا وسط مسرح الجريمة في الساعات الأولى من صباح ذلك اليوم.. لم يكن بمفرده فساحة الفيلا تمتلئ بشباب وبنات يرتدون السواد.. ورجل طاعن بالسن بزي أزهري يقف على

درجات السُّلم السفلي.. متمايلًا بخشوع مُنشدًا أروع التواشيح التي تربَّى عليها الغندور بصغره على صوت النقشبندي.. كان والده رحمة الله عليه مُحبًّا لتواشيحه كل صباح قبل الخروج لعمله ضابط شرطة، فقد ورث الغندور كل شيء عن والده من قوة وسيرة عطرة وتفانٍ بالعمل.. تعالى صوت الشيخ العجوز مثيرًا لتعجب الغندور.

- مَولاي إنّي ببابك قَد بَسطتُ يَدي.. مَن لي ألوذ به إلاكَ يا سَندي؟ أقُومُ بالليّل والأسحار سَاجيةٌ، أدعُو وهَمسُ دعائي.. بالدموع نَدّى. بنُور وجهك إني عائذ وجلٌ.. ومن يَعُذْ بك لَن يَشقى إلى الأبد.. مَهما لقيتُ من الدُّنيا وعَارضها.. فَأنتَ لي شغل عمّا يَرى جَسدي.. تَحلو مرارة عيش في رضاك.

اخترق الغندور زحامهم.. كانوا يتمايلون برؤوسهم كالذاكرين العابدين، ولكن هيئتهم لا تطابق أفعالهم تلك.. فهم أقرب للمخمورين المخطوفين بحلقة ذكر على غير رغبتهم.. بنات كاسيات عاريات ما يستر أجسادهن سوى القليل.. وشباب تفوح الخمر من أفواههم.. ونجمة كبيرة بارزة مرسومة على الأرض تحتهم يقفون على حوافها مستمرين بالتمايل برؤوسهم على إنشاده .. اخترق نجمتهم مبرق العينين مقتربًا من العجوز.. إنه يعرفه جيدًا.. بحث بدروب ذاكرته حتى وجده.. هذا الرجل هو والد يحيى عبد النور بركات.. إنه هو.. إمام المسجد المتوفَّى.. لم ينسَ صورته المعلقة بصالة

بيتنا بالدور الأرضي حينما فتشه قبل اكتشاف موتي بالأمس.. كيف يراهُ على قيد الحياة.؟ وصورة كبيرة مُعلَّقة خلفه.. يحيى عبد النور بركات.. إنها لي.. صورتي بهذا المكان العجيب.. ما معنى ذلك؟ العقل الباطن للغندور يرسل إليه شفرات فُجائية.. يُخبره بحقيقة غائبةٍ عنه.. وكأنه يهمس بأذنه:

- لا تستبعد الموتى من الجريمة.

صَعدَ بعض درجات السُّلم، وما إن اقترب من ذلك العجوز الميت الحي.. استمع لموسيقا صاخبة تحوَّل إنشاده ذلك لإحدى أغاني الراب الراقصة.. وبدأ الشيخ بالرقص معهم على موسيقاهم اللعينة.. وكأنه اعتنق طريقتهم وسلك بكلمات كانت تقشعر لها القلوب لدرب لا رجعة فيه.. اللعنة! وتدثر الإيمان بغطاء الشيطان.. وتقوقع رُويدًا رُويدًا حتى بات مجهولًا ينكرونه.. التفَّ الغندور حينها.. تداعت على ذاكرته تلك القضية البعيدة التي حقق بها منذ خمس سنوات.. قضية عبدة الشيطان.. أولئك المتجمعون كل ليلة يتضرعون لمولاهم إبليس.. كانوا يتمايلون كمجاذيب خطرة.. إضاءة حمراء متلاعبة تملأ ساحة الفيلا.. وعدد لا نهاية له من أولئك الراقصين على حواف نجوم سداسية.. يذكرهم جيدًا حين تنكر بداخلهم منضمًّا إليهم عدة أيام ليُراقب ذلك المكان، واكتشف بالنهاية أنه مجرد ستار للاتجار بالمخدرات.. إنهم يتراقصون مثلهم بهيستريا.. ويُقَبِّلون بعضهم البعض بدون تمييز..

قبلات جنسية حادة.. تفوح رائحة شهوتهم وتمتزج محدثة فيضانًا من الشبق القذر.. لفت انتباه الغندور شخصان يمران بينهم يظهران بين الحين والآخر.. إنه جاسر عبد الرسول، وذلك البهلوان القاتل.. تخفيهما طقوسهم وضياؤهم المرتعش.. بحث عنهما بكل مكان بعينيه.. لا وجود لهما.. أيادي هؤلاء تعبث بأجساد بعضهم البعض بنشوةٍ جارفة.. صوت الموسيقا يتعالي.. صوت آخر يقترب لأذنيه مهاجمًا لهما.. وكأنه منشار كهربائي حادٌّ.. التفت سريعًا ناظرًا خلفه.. نَصْلُه كان قريبًا جدًّا من رقبته مقتربًا على اجتزازها.. كانت لحظة واحدة رأى فيها ممسكه يضحك أيضًا بهيستريا.. كان البهلوان القاتل موشكًا على قطع رقبته بطريقة موت حبيبة نفسها.. شعر بنصل حادٍّ يخترق رقبته.. صرخ الغندور:

- لاااااااااااااا.. ليس الآن.

انتفض محمود غندور منزعجًا.. نظر حوله.. كان كابوسًا عجيبًا.. إنه بمكتبه.

نَهَضَ مُتجهًا ناحية نافذة مكتبه مُستنشقًا هواء نقيًا مُتحسسًا رقبته.. صورة ذلك البهلوان لا تُفارِقُ رأسه.. وقف شاردًا يُفكر بهذه القضية المعقدة.. يُراجِع ذلك اليوم العجيب.. جريمة قتل لنجمةٍ شهيرةٍ بهذه الوحشية.. وشابٌّ يُتهم ويُبرّأ في أقل من ساعتين لموته.. ومُشتبه به متيقن

من عدم تنفيذه الجريمة.. ذلك الجاسر عبد الرسول.. ولغز وجوده بموقع الحادث.. ومراقبته الأديب يعقوب إدريس.. كل شيء ملبد بالألغاز.. وذلك الكابوس العجيب.. أهناك معنى له؟ تنهَّد مُشعلاً سيجارته مُحاولاً الإمساك بأي طرف لخيوط القضية دون جدوى.. فمنذ أمس وهو بمكتبه، لم يغادره.. راح في غفوةٍ صغيرة لم تتعدَّ الثلاث ساعات.. يشعر بأنه تائه بضباب يحاوطه على مدى البصر.. صوت يُناديه ليجذبه من غياهب عقلِه.

- سيادة المقدم.

التفت وراءه ليجد ماهرًا يُحدِّثه:

- ماهر!

- صباح الخير جنابك.

- صباح الخير.

- سيادتك لم تسترح منذ البارحة.

- وهل تجوز الراحة بمثل هذه الجريمة؟

- ولكن...

قاطعه:

- أهناك أي أخبار جديدة؟

- بناء على تعليمات سيادتك.. وصلت الحراسة السرية أمام بيت الأديب يعقوب إدريس، وراجعتُ كل كاميرات ندوته البارحة، وبالفعل وجدنا المدعو جاسر عبد الرسول بها، وقد غادر المكان بمجرد خروج الأستاذ يعقوب مباشرةً.

- يُحيرني أمر ذلك الرجل للغاية.

- من الجائز أنه يخطط لقتله كما قَتَلَ النجمة حبيبة.

- ولكنه لم يقتلها.. لم يقتلها.

- وجوده بموقع الحادثة ليس له تفسير آخر جنابك.

- ماهر.. لا تنظر للأمور بسطحية.. هذه القضية مُعقدة لأبعد ما يكون، وتحمل العديد من الأسرار.

- كما ترى سيادتك.

- هل وصل الرسام لأي شيء؟

- يقول إن ملامح وجه البهلوان مُختفية تمامًا وقد دسَّها باحتراف، وهناك مئات الاحتمالات لذلك الوجه.

- أريدُها بالكامل.. فليرسم كل الاحتمالات.

قطع حديثهما أمين شرطة:

- سيادة المقدم.. الصحفي بدر غانم بالخارج ويرغب بمقابلتك.

- فليتفضل.

دَخَلَ بدر غانم مُلقيًا سلامه عليهما.

- صباح الخير.

- أهلًا سيد بدر.

- يبدو أنك مُجهد للغاية يا سيادة المقدم.. ألم تنم جيدًا؟

نظر الغندور إلى ماهر مُشيرًا إليه بالخروج، فأدَّى له التحية العسكرية وخرج.

- ليس هناك أي جديد بالقضية إن كنت هنا لهذا السبب.

- الأخبار الجديدة معي أنا.

قالها بدر مُبتسمًا بثقة.. تابَعَ حديثَه:

- سيادة المقدم.. أريدُك أن تدرك جيدًا أنني بخدمة العدالة بالمقام الأول، وأيضًا أنني صحفي مُجتهد وأحبُّ عملي لأبعد الحدود حتى وإن كنت حصلت على مركزي هذا رئيسًا لقسم الحوادث بجريدة الخبر بالواسطة والمحسوبية، ولكنني أُثبتُ جدارتي من وقتها.

- سيد بدر.. أنا مُرهق وليس لديَّ وقتٌ لحكايات أخرى.

تنهَّد بدر ناظرًا إلى الغندور مُتوجِّسًا:

- أظنُّ أنني عرفتُ الجاني هذه المرة.

ابتسمَ له ساخرًا:

- أخبرني ما عندك.

- لا، لن أُخبرَك.. عليك بالمشاهدة.

أخرجَ حينها جهاز حاسوب إلكتروني صغير كان بحقيبته.. فتحه وأدار شاشته تجاه الغندور..

- اضغط زر التفعيل.

ضَغَطَ بيده على مفتاح التفعيل فبدأ مقطع مصوَّر يتتابع أمام عينيه.. بُهت الغندور مشدوهًا لما يرى.. مجموعة من مقاطع مُصوَّرة للنجمة حبيبة بغرفة نومها.. مقاطع جنسية كاملة دون حذف.. لقطات حميمية خادشة للحياء لها مع أربعة أشخاص، كلٌّ على حدة، ويبدو أن التصوير تم بشكل سري، فوضْع الكاميرا يُنبئ بذلك.. المدهش بالأمر هي شخصية كلٍّ منهم.. أربعة رجال من عِلية القوم بهذا البلد.. يعرفهم العامة والخاصة.. وجوههم واضحة لا

مجال فيها للخطأ.. فهناك لحظة بكل مقطع تؤكد شخصيتهم جيدًا.. أغلق الغندور حاسوب الغندور صامتًا مبهوتًا.. أشعلَ بدر غانم سيجارته ونفثَ دخانها بعمق.

- ممدوح الشراكي.. رجل أعمال وعضو مجلس الشعب، إبراهيم السلحدار.. رئيس نادي وعضو مجلس الشعب، شوقي دياب.. المخرج السابق، وعضو مجلس الشعب حاليًا. عوني عبد الرحيم .. رئيس مجلس إدارة قنوات الغد. أصغرهم تجاوز الخمسين عامًا.

- ما معنى ذلك؟

- سيادة المقدم.. لا تجعلني أشكُّ بذكائك.. واحدٌ من هؤلاء هو قاتل حبيبة الحقيقي.

- واحد أم اثنان أم ثلاثة أو الأربعة؟

- شوقي دياب هو أول مخرج أعطى حبيبة دور البطولة بأحد أفلامه أتذكر ذلك؟ حينما أطلت علينا هذه الفتاة المُثيرة لأول مرة عبر شاشة السينما، وتوالت بعدها أدوارها معه حتى توقَّف هو عن الإخراج واتَّجه إلى لسياس. والثلاثة الآخرون أيضًا كلٌّ منهم له علاقة مباشرة بحبيبة. عوني عبد الرحيم رئيس القنوات التي أنتجت اول برنامج قدمته حبيبة.. برنامج المنوعات

«مع حبيبة». والسلحدار والشراكي كانا يقضيان لياليهما بحفلاتها الساهرة دومًا.. حفلات تجمع صفوة المجتمع.

- كيف وَصَلَتْكَ هذه المقاطع؟

- طردٌ مُغلق مكتوبٌ عليه سِريٌّ للغاية وصلني على مكتبي بالجريدة، فتحتُه، ووجدتُ هذه الأسطوانة المدمجة التي تحمل كل هذه المقاطع، وحاولت الوصول لمصدرها دون جدوى.

شَردَ الغندور قليلًا مُفكِّرًا بهذه المعلومات الجديدة.. نَظَرَ إلى بدر بعينين لامعتين وكأنه اكتشف شيئًا مهمًّا:

- هذه الأسطوانة كانت بخزينة المجني عليها.. تلك التي خرج بها البهلوان القاتل بعد ذبحها.. خرج بها ليُسلمها لَمن حرَّضه على قتلِها.

- لَمن يخاف أن تصل هذه الأسطوانة للناس.

- ولكنها وَصَلَتْكَ.. أتدري معنى ذلك؟

- ليس لديَّ تفسير لهذا ولكن.. .

واختفى صوت ذلك الصحفي وكأنه والعدم سواء.. شرد الغندور بتلك الكلمات التي نَطَقَ بها ذلك البهلوان قبيل جريمته:

- لكُلٍّ منا سِرٌّ يُخفيه طوال حياته، ويحارب من أجل ستره مراتٍ ومرات، ولكن هناك مَنْ يختفي خلف ستار حياتك يرمُقُك بكلٍّ لحظة منتظرًا الفرصة المناسبة لفضحك حتى وإن كانت تلك الفرصة بعد إغلاق لحدِك، فاحترس، وامحُ كل أثرٍ لأسرارِك قبل موتِك.

- سيادة المقدم.. هل تسمعني؟

انتبَهَ حينها الغندور لبدر.. نهض وجلس أمامه مُشعلًا سيجارة جديدة.. وبعد لحظاتٍ من التفكير ومراجعة الأحداث هَمَسَ له:

- الجاني الحقيقي واحدٌ آخر غير هؤلاء.

- كيف ذلك؟

- إن افترضنا أن الخزينة المسروقة كانت حاوية أشياء أخرى غير هذه الأسطوانة، ربما لقطاتٍ جنسية أخرى لشخصيات أخرى.. فمن المستحيل أن يرسلها إلينا، لن يُدين نفسه.. قاتل ذكي يتقن اللعبة جيدًا. يُلاعبنا ببراعة، ويُريدُ تشتيت ذهننا لنبتعد عنه وننشغل بهؤلاء.. كلاعبٍ سيرك يتخفَّى خلف الستار، ويُحرِّك عرائسه الماريونيت التي يُقرِّر هو فقط متى وأين يُظهرِهم لنا.

- وجهة نظر تُحترم.

- غير أننا لا نملك أي شيء لإدانة هؤلاء الأربعة، فالجنس ليس تهمة.

- لكن لو كانت حبيبة هدَّدتهم بنشر هذه المقاطع لغرضٍ ما، فهذا سبب قوي لقتلِها والتخلُّص منها بالأخص أن كانوا شخصياتٍ عامة بمواقع حساسة بالبلد.

- تقرير الطبيب الشرعي والمعمل الجنائي لم يصلا بعد، وأتوقَّع أننا لن نجد إلا بصمات جاسر عبد الرسول بموقع الجريمة، وتوجيه الاتهام لهم لن يُثير إلا سُخرية الجميع.. علينا بإبلاغ القيادات بهذه المقاطع.

- حسنًا.

تنهَّد الغندور.

- نحن أمام قضية من العيار الثقيل.. ولكن السؤال: لماذا أُرسلت هذه المقاطع إليك أنت؟

- لأنني صحفي مُهتمٌّ بالقضية للغاية منذ الأمس، وربما أكون أول مَنْ نشر عنها.

- ربما.

نَظَرَ له الغندور بتوجُّسٍ وشكٍّ مريبين.. هكذا هو يشكُّ بكل من حوله.. الجميع متهمٌ حتى يثبت العكس.. لحظات من الصمت قطعها بدر:

- سأنشر هذه الأخبار مع حجب أسماء الأربعة.

- أتطلبُ ذلك أم أنك تُعْلِمني فقط بنياتك؟

- سيدي المقدم.. هذا واجبي.. أن أنقل الحقائق للناس كما هي. ولحساسية الموقف سأُخفي أسماءهم.. ثم إنه.. مَن يدريني أن هذه المقاطع لم تصل لغيري من الصحفيين؟ وربما يلجأ مُرسلها لنشرها على شبكة الإنترنت إن كانت نياته هي تشتيت تركيزكم وإدخالكم بحروبٍ فرعية كما تقول.

برقت عينا الغندور حينها.. ضغط على جرس بمكتبه فدخل جندي من الخارج مؤديًا له التحية العسكرية.

- أوامر جنابك.

- أريد النقيب ماهر.

خرج الجندي سريعًا وما هي إلا دقيقة واحدة حتى دخل ماهر:

- أوامر سيادتك.

- ماهر.. أريد مراقبة شبكة الإنترنت عامة ومواقع التواصل الاجتماعي خاصة، وترقُّب ظهور أي مقاطع مُصوَّرة جديدة للمجني عليها حبيبة.

- أي مقاطع؟

- مقاطع جنسية.. سخِّر أحد رجالنا لهذه المهمة.. كل خمس دقائق عليه بالبحث عن أي مقاطع جديدة تنشر لها، وإن وُجدت عليك بتتبُّع مصدرها فورًا وإبلاغي.

- عُلِم جنابك.

تركها وخرج.. نظر الغندور لبدر بريبة مقصودة.

- سنرى أيها البهلوان من منا سينتصر.

***

وغابت شمس اليوم الثاني دون ضجيج.. الجميع هنا وهناك بحالة ترقُّب لكارثة أخرى على وشك الحدوث.. فالغندور ينتظر أي مبادرة جديدة من البهلوان القاتل بلعبته القذرة ليحاول الكشف عن شخصيته.. وجاسر عبد الرسول واقف أمام مرآته المتآكلة بغرفته بالمقابر يرتدي بدلة أنيقة اشتراها قبل ساعات مستعدًّا لخطوته الأخيرة بلُعبة لا يملك منها شيئًا.. ويعقوب إدريس أيضًا يستعدُّ لحفل الناشر الكبير احتفالًا بنجاح روايته الأخيرة.. وصل قاعة الاحتفال بعد موعده متأخرًا على غير عادته.. الجميع كان بانتظاره، فهو نجم هذا الحفل بلا مُنازع.. كان مضطربًا قلقًا يشعر بدنو أجله بأي لحظة على الرغم من وجود رجال المخابرات المتناثرين بالحفل لحراسته، وكذلك قوات

الشرطة المتنكرة والمُتخفية بين رُواده.. وتلك المكالمة من رئيس المخابرات شخصيًّا قبل الحفل.

– سيد يعقوب اطمئنَّ، فمريم شاؤول تحت المراقبة الكاملة، ورجالي حولك بكل مكان.

حاول الفرار من اضطرابه ذلك بقراءة روايته الأخيرة منذ الأمس.. حتى وهو بطريقه للحفل كان يطالعها.. محاولًا الهروب بين سطورها.. كان يعرف أنه على موعد مع قاتلة إسرائيلية دون رغبته.. عيناه حائرتان بين الجميع يبحث عنها.. هل ستحاول قتله هنا أم ستستدرجه بعيدًا؟

بعدما انتهى رجالُ الصحافة والإعلام من الحفاوة به وكذلك مريدوه وقراؤه.. أعلنت نسمة مختار بدء الحفل بالفرقة الموسيقية العالمية التي جلبها ناشره خصيصى احتفالًا بنجاحهما معًا.. فرقة إيطالية يحبها يعقوب ويشيد بها دومًا.. واندمج الجميع بتلك القاعة الفاخرة على نيل القاهرة.. تلاعبت الأضواء الخلابة مع موسيقاهم الرائعة.. اقتربت نسمة من يعقوب هامسة له بابتسامة ساحرة:

– هل لي أن أُراقصك قليلًا؟

تشابكت إحدى يديها بيده، والأخرى وضعتها أعلى قلبه المنزعج.. واندمجا وسط الراقصين.. كانت تهاجمه بعينيها لتخبره عن مدى عِشقها له، ولكنه كان دائم الفرار.. همست له:

- الحبُّ دين العُشاق يا حبيبي، فلا مانع من اعتناقه بعض الشيء.

- لن أغفر لنفسي أبدًا ما حدث بيننا بالأمس.

- لم تكن أكثر من قبلة.

- نسمة.. لا تُهوِّني الأمور أكثر مما ينبغي.

- أتخافُ مني؟

قالتها بغنجٍ وسحرٍ شديدين.. نَظَرَ إليها بحدةٍ:

- أخاف من الله..

- هوِّن عليك.. فربما يأتي يوم ونتزوج وتصبح قبلتنا تلك مجرد بداية.. بداية لحياتنا.

- لا حياة بدونها.. بدون حبيبتي.. حتى قبل عودتها، كنت قد وهبت نفسي لذكراها واعتزلتُ النساء.

- وأنا قلتُ لك إنني أحببتُك لهذا.

- عليكِ بالابتعاد وبناء حياتِك مع شخصٍ آخر بمثل سنِّك.. شخصٍ بمُقتبل الحلم وليس بآخره.

- سعادتي بالقرب منك حتى وإن كنتَ لا تُحبني.

- الأمر ليس كذلك.

- أعرف.. أنتَ تُراقصني ببراعةٍ.

كان ينظر بعينيها صامتًا.. بحر يلهث وراءه الغارقون لتخرج أرواحهم بين أمواجه عن طيب خاطر.. لو أن الزمن يعود به للوراء.. لو كانت نسمة مختار هي حبيبته الأولى.. لربما كان أسعد رجال الدنيا.. هكذا القدر يفاجئك بالأشياء الثمينة بغير موعدها.. أيُمنح الموتى عيونًا رائعة حادة بعد الموت؟ كلا لن تفيد.. وهو ميت على قيد الحياة.. فرصته الوحيدة للنجاة هو عودة دانا شمعون الى جواره مرة آخري وليس غيرها.. همستْ بأذنه نسمة:

- الشرطة تملأ القاعة.. لن يفلت جاسر هذه المرة أبدًا.

قاطعتهما إحدى الفتيات بغتةً:

- أستاذ يعقوب إدريس؟

لهجتها عربية شامية.. التفتَ إليها يعقوب بقلق شديد.. وصحَّت شكوكه.. إنها مريم شاؤول.. هذه الفتاة الإسرائيلية المُنتظَرة.. أجابها متلعثمًا مُحاوِلًا الهدوء.

- نعم.

- أنا فاطمة عز العرب صاحبة دار الحرية بلبنان.

رَمَقَ بعينيه رجال المخابرات حوله.. كانت أياديهم تستعدُّ بأي لحظة بالتصويب على رأسها مباشرة.. إلى الآن كل شيء هادئ وعلى ما يُرام.. ابتسم لها ابتسامة صفراء:

- مرحبًا أستاذة فاطمة.

- هل لي بشرف التحدُّث معك قليلًا؟

همَّت نسمة بتركهما بمفردهما:

- فلتأذن لي.

أمسكَ بيدها وكأنه يستغيث بها

- نسمة.. انتظري معنا لا داعي للذهاب.. نسمة مختار هي مديرة أعمالي.

- أهلًا أستاذة نسمة، تشرَّفنا.. هل لي بمراقصتِك قليلًا؟ أتسمحُ لي؟

تركتهما نسمة مُبتسمةً.. وبلحظة واحدة كانت مريم شاؤول تُراقصه بجرأة متناهية.. فستانها الأسود المتلألئ وسط أضواء القاعة المتلاعبة يميزها بشدة.. ورائحة عطرها الجذاب يسلب العقول.. وجسدها المُثير البارعة في إظهار مفاتنه بذلك الفستان العاري الصدر والظهر يجذب إليها العيون.. ابتسمت هامسةً له:

- تلك هي المرة الأولى التي نلتقي فيها معًا، ولكنني أعرفك منذ روايتك الأولى: «صهيوني على ضفاف الحب»، رواية عبقرية أُحييك عليها.

- أشكرُكِ.

- نحن دار نشر لبنانية لها فروع بكل الدول، ونتَّجه الآن إلى تقنيةٍ جديدة سنتميَّزُ بها، ألا وهي إنتاج بعض أعمالنا سينمائيًا، ويتم التعاقد على ذلك منذ اللحظة الأولى فنحن نعرف جيدًا أيَّ الروايات يمكن أن يُحقق نجاحًا ساحقًا.

- جيدٌ.. جيدٌ جدًّا.

- ولذلك أنا هنا اليوم.

نَظَرَ إليها صامتًا مُتفرِّسًا فيها.. يعلم جيدًا أنها كاذبة.. حيلة ذكية.

- لا أفهم ما ترمين إليه.

- سيد يعقوب أنت روائي عظيمٌ، وستحققُّ الكثير والكثير الفترة القادمة.. ونحن نُقدِّر ذلك،

نريد أن نتعاقد معك على عملك القادم ونَنْشرَه ونحوله إلى فيلم سينمائي عالمي.

- عالمي؟

- نعم سيُنفَّذُ بأمريكا وبنجوم عالميين.

- عرضٌ لا يُرفض.

- وجميع ما تطلب اعتبره قد نُفذ لك.. يمكننا دفع أي مبلغ لإتمام ذلك الاتفاق.

- مَنْ أنتم؟

- عزيزي الأديب نحن دار الحرية بلبنان.

- عذرًا.. ففرحتي بعرضك أربكتني بعض الشيء.

- أنت تستحقُّ أكثر من ذلك.

- إذًا أنت تُوافق.

- بدون شكٍّ.

- لدينا شرط واحد.

- وما هو؟

- موضوع الرواية.. قصتها.

- سيدتي.. من قال لك إنني أكتب بتوجيهات.. لن أقبل ذلك مطلقًا.

- عفوًا سيد يعقوب.. نحن فقط نريد لفت نظرك لموضوع قد تُبدع فيه.

- أيُّ موضوع ذلك؟

- بالأمس قُتلت نجمة شهيرة تُدعى حبيبة، وقاتلُها أُطلق عليه البهلوان القاتل.

- نعم.

- لدينا معلومات أو لنقُل تكهُّنات أن هذه القضية ستحوي الكثير من المفاجآت والأطراف.. لعلك تُبدع برواية تدورُ أحداثها عن تلك الجريمة.

- ولكن...

- لا تعطِني قرارًا نهائيًّا الآن.. عليك بالتفكير جيدًا بعرضنا إليك، رواية بهذه القضية بخيال عبقري مثلك، وبعض البحث بتداعياتها، ودراسة لشخصية ذلك البهلوان سينتج عنها عمل متكامل الأركان، عمل هوليودي بديع.. سأُهاتِفُك غدًا ولنتفق على موعدٍ.

قبَّلته من خده الأيسر.. رائحة عطرها تُربكه.. فتحت حقيبتها الصغيرة سريعًا.. كتم يعقوب أنفاسه ناظرًا ناحية قناصة المخابرات حوله.. أخرجت قلمًا من الذهب وناولته إياه:

- هذه هدية.. قلمٌ من الذهب الخالص. أراكَ على خيرٍ.

تركتْهُ وهمَّت بالرحيل.. ناداها فالتفتت إليه:

- سيدة فاطمة.

- نعم.

كانت بجوار منضدة دائرية عليها بعض الكتب والروايات الخاصة بيعقوب.. يوزعها الناشر مجانًا بالحفل الضخم.. مَدَّ يدَه وأمسك إحدى تلك الروايات وناولها إياها.

- اقبلي مني هذه الهدية.. نسخة من روايتي الجديدة.. أحداث منتصف العالم. هذه نسختي الخاصة.. خرجت توًّا من المطبعة.. كنتُ أقرؤها اليوم.

- هدية غالية.. أشكرك.

ابتسم لها وهي تبتعد.. مرت ليلته بسلام.. ربما ستقتله فيما بعد.. تساؤلات عديدة تتردد على رأسه.. لماذا اختلقت هذه القصة العجيبة؟ مؤكد أنها فقط تريد إقناعه بمقابلة فردية تنفذ فيها جريمتها.. لن يمنحها تلك الفرصة أبدًا.

خرجت مريم شاؤول واستقلت سيارتها الخاصة.. العجيب أنها تعرف شوارع القاهرة جيدًا على الرغم أنها زيارتها الأولى لها.. ومعها رخصة قيادة باسم فاطمة عز العرب، وجواز سفر بنفس الاسم.. كل شيء محسوب ومُدبَّر بعناية فائقة.. مريم مدربة لأبعد الحدود، ولم يكن صعبًا عليها أن

تكتشف أنها مُراقبة من رجال المخابرات الذين يتتبعونها كظلِّها.. ابتسمت ناظرة بمرآة سيارتها وانطلقت تُناورهم بشوارع عديدة.. وكأنها تحفظها عن ظهْر قلبٍ.. نصف ساعة استطاعت فيها الفرار منهم دون حتى أن يشعروا أنها تقصد ذلك.. هروب عبقري منقطع النظير.. تدرك تمامًا أنهم سيعثرون عليها مجددًا، ولكنها أرادت أن تلقنهم درسًا.. وتُعلمهم بعضًا من مهاراتها.. وغابت مريم شاؤول عن أعينهم بانتصار مؤقت ملأ عينيها.. وقفتْ على حافة المقطم، وفتحت باب سيارتها.. ترجَّلت تنظر للقاهرة من أعلى.. كم جميل هذا البلد! تتمنى أن تعيش هنا بسلام يومًا ما.. لو أن ساكنيها يتغيرون.. يموتون ويأتي آخرون يحملون الحب لهم ولإسرائيل كافة.. حينها ستعيش هنا على هذه الأرض الخلابة.. استنشقت ذلك الهواء النقي بهذا المكان الخاوي إلا منها.. صوت خلفها يُربكها.. التفتت لترى شيئًا لم يكن بالحسبان.. شخصًا ما يرفع مسدسه بوجهها.. شخصًا ما مرتديًا قفازين سميكين، ويُعلن قُرب موتها خارج الخطة الموضوعة.. إنه جاسر عبد الرسول.. نائب عزرائيل.

***

النبشة السادسة (طواف تائه)

(ليلة التاسع من يناير -٢٠١٨)

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، والظلام حالِكٌ يُخيم على مقابر التونسي الواقعة بجنوب القاهرة.. تلك المنطقة المتناقضة المكتظة بالناس نهارًا والخاوية على ساكني قبورها وموتاها ليلًا.. فمنذ الحريق الهائل بسوق التونسي أمرت الحكومة بإغلاقه ونقل شاغليه لمكان آخر فاضطرَّ البائعون بشغل هذه المسافة الواقعة بين مقابر التونسي ومقابر الإمام الشافعي للبيع والشراء.. هناك بالمقابر، تتعالى الأصوات المتصارعة في كل صباح لجلب الزبائن، لن تستطيع أن تسير على قدميك سوى بالتدافع، يأتي الليل ليستريح الموتى قليلًا من الإزعاج الذي يسببه لهم البشر نهارًا.. ويعمُّ السكون المُريب.

ليلة فاصلة شديدة البرودة يحتمي الجميع بمنازلهم من قسوتها حتى ساكنو تلك الغرف بالقبور، فكلٌّ بغرفته يتدثر بأغطية مضاعَفة، فالبرد قارس هذه الليلة لأبعد الحدود.. وكنتُ أنا هناك.. مُلقًى بجوار أحد القبور.. فتحت عيني بصعوبةٍ، وآلام شديدة تُهاجم رأسي.. كناجٍ وحيد من طوفان هالك.. ظللتُ مبرقًا العينين كثيرًا غير مصدقٍ أنني خارج القبر.. أحقًّا ما تراه عيناي؟

إنها السماء.. وهذا الهواء الشديد البرودة يتحرش بجسدي.. قفز قلبي فرحًا بين ضلوعي، وكأنه يرقص من هول المفاجأة.. أدرك عقلي حينها أنني ما زلتُ حيًّا.. استنشقت الهواء حولي، وملأت رئتيي بكل ما لديَّ من قوة.. سقطت دموعي فرحًا بنجاتي.. نهضتُ ناظرًا حولي.. إنني بحوش جبانة صغيرة تحوي مقبرتين.. يتوسطه غرفة أنوارها مُضاءة، وينبعثُ منها صوت موسيقا راقصة.. وبابها الخارجي بين أسوار تحاوط تلك الجبانة مغلق بجنزير حديدي.. رأسي يؤلمني بشدة.. ولكن ماذا جرى لي بالفترة الماضية؟ وما الذي أتى بي إلى هنا؟ ربما كنت بكابوس عتيدٍ لم أفِقْ منه إلا الآن.. تبًّا لذلك! جريمة قتل بشعة، واتهام بها وموت، وقبر، ومُنتظر للجحيم، وألوان من عذاب لا يُحتمل.. وذلك الرجل العجيب موسى السلحدار وحكايته، وتلك اللعنة والكتاب الملعون.. كل ذلك كان كابوسًا.. ضحكتُ عاليًا بهيستريا مُتناهية، وتعالت ضحكاتي بين القبرين كطيرٍ وليدٍ تحملُه أجنحته ليطير لأول مرة.. سعادة لا توصف.. على الرغم أنني لا أجد تفسيرًا لوجودي هنا ولا أتذكر ما حدث لي قبل ذلك الكابوس ولكن بالنهاية أنا حيٌّ أُرزقُ.. صرخ قلبي فرحًا وكأنه يتراقَصُ.. وتراقصتُ معه على تلك الموسيقا المُنبعِثة من وراء هذا الباب المفتوح بالقُرب مني لهذه الغرفة.. ولكن حركتي بطيئة بعض الشيء.. أشعر بأنني أتحرَّكُ بصعوبةٍ على غير عادتي.. توقفتُ مُترقبًا صامتًا.. أراجع

تلك القصة التي جاءت بنهاية ذلك الكابوس.. وبحركة لا إرادية تحسَّستُ جسدي.. وكأنني شككتُ بشيء ما هَزَّ كياني.. .. لم أكن سمينًا يومًا ما.. ما هذه الترهلات التي أستشعرُها بجسدي؟ ترددت كلمات ذلك الرجل العجيب عدلي موسى:

- لن تُمحى اللعنة إلا بطواف تحلُّ روحه بأجساد الخطائين.. تلك هي النبوءة.. عليه بإصلاح خطايا كل من تُصيبه لعنتي قبله.. طواف بأجساد الخطائين.. طواف بأجساد الخطائين.. طواف بأجساد الخطائين.

صوتُه يملأ أُذنيَّ.. وصوت رنين هاتف يخرج من تلك الغرفة متعاليًا على صوت الموسيقا.. شعور بكارثة تقتربُ لا أريدُ تصديقها.. هل كل ما فات حقيقيٌّ وأنا عائد للحياة بجسد الآخرين؟ أقسم أن ذلك الجسد ليس لي.. ولكن كيف ذلك؟ شيء خارج العقل تمامًا.. بعيد عن المنطق.. مَنْ يصدق ذلك؟ شيء ما يجذبُني إلى تلك الغرفة.. صوت ذلك الهاتف لا ينقطع.. خطوتُ ناحيتها بحذرٍ.. خطوتُ لمجهول يُرعبُني.. وقفتُ على مدخل الغرفة مُتردِّدًا بالدخول.. لا أحد هنا.. رنين الهاتف مُستمر.. صورةٌ معلقة على الحائط لشخصٍ سمين وبرفقته شخصٌ آخر.. شخصان متعانقان.. كانت تلك الصورة هي أول ما وقعت عليه عيناي بتلك الغرفة.. دخلت إليها.. سرير بأحد الجوانب ومنضدة خشبية أرضية مستطيلة تتوسطها

وعليها طعامٌ شهي تفوح رائحته بقوة.. كباب وكفتة بكمية كبيرة، وزجاجة بيرة محلية الصنع، وأرغفة من الخبز.. ومجموعة من التحف المتنوِّعة، وتلفاز كبير، وبعض المتعلقات المتفرقة غير المناسبة لهذا المكان.. يبدو أن تلك الغرفة لسارقٍ.. هكذا توقَّعتُ.. وربما أكون أنا الآن بجسده.. بحثتُ بعيني عن ذلك الهاتف فلم أعثر عليه.. توجَّهتُ إلى ذلك المُسجل الصغير، وأغلقتُ تلك الموسيقا الراقصة، وبحثت عن مصدر صوت الرنين.. وجدتُ ذلك الهاتف تحت السرير الصغير.. ضغطتُ بيدي متردِّدًا على زر الإجابة.. صوتُ رجل بالجانب الآخر.

- مَنْ أنت؟ هذا الهاتف يخصُّني.. من أنت؟ وأين عثرت عليه؟

ألا مِن مُجيبٍ؟

لم أُصدِّقْ ما تراه عيناي بتلك اللحظة.. كان هناك مرآةٌ صغيرة بأحد جوانب الغرفة.. كنتُ واقفًا بعيدًا عنها، ولكنني أظهر فيها جيدًا.. اقتربتُ منها مُحدِّقًا تاركًا ذلك الهاتف من يدي ليسقط أرضًا.. شيء واحد أستمعُ إليه حينها.. صوت موسى السلحدار يملأُ كياني:

- طواف تحل روحه بأجساد الخطائين.

وليحذر.. للكتاب الملعون هذا حُراس من الجان سيمنعونه بكل ما أوتوا من قوةٍ.. سيمنعونه.

كنتُ شخصًا آخر.. وصحَّت ظنوني.. ما رأيتُه بالمرآة هو رجلٌ بالأربعين من عمره، سمينٌ مُترهل البطن، قصير القامة.. وجهُه يحمل الكثير من الشَّرِّ ونُدبة حديثة تحت عينه اليسرى.. يبدو أنها صنيعة مطواة حادة تركت أثرًا ليس ببسيط.. وشارب كثيف تحت أنفه.. هذا الرجل كان أمامي بالمرآة.. هذا الرجل هو أنا الآن.. روحي حبيسة لجسده.. إنها اللعنة.. همستُ ناظرًا إلى ذلك الوجه الجديد:

- طواف تحل روحه بأجساد الخطائين.

تلك هي النبوءة.. للكتاب الملعون هذا حراس من الجان سيمنعونه بكل ما أوتوا من قوة.

للكتاب الملعون هذا حراس من الجان سيمنعونه بكل ما أوتوا من قوة.

كنتُ مذعورًا للغاية.. مَن ذلك الرجل وما حكايته؟ إن هذه الغرفة له.. صورته المُعلَّقة على الحائط تنبئ بذلك.. إنه أحد الشخصين المتعانقين.. صوت رنين الهاتف يُعاود من جديد.. فجأة امتلأت جدران الغرفة بتلك الصلبان التي لم أنسَها قط.. تلك التي كانت بالحوائط البعيدة بالقبر.. الصلبان نفسها.. كنتُ راغبًا بالفرار.. الهروب من ذلك المصير المجهول بعيدًا عن هنا.. .صوت أقدام تقترب من الغرفة بإيقاع رتيب. الأرض تهتزُّ تحت قدمي.. تعالت نبضات قلبي وتسارعت.. وكأنه يصرخ عاليًا:

- الغوث.. أين المفر؟

.. نظرتُ ناحية الباب متوجسًا خائفًا.. فأنا الآن بحربٍ غير متكافئة.. مطلوب مني المستحيل.. إصلاح خطايا رجل حلَّت روحي بجسده ولا أعرفه مطلقًا، مُحاربًا كائنات غير مرئية، كالجانِّ سيحاولون منعي من شيء لا أعرف ما هو.. الغرفة تهتزُّ من حولي، وكأنه زلزال شديد.. وانقلبت الصلبان واحدًا تلو الآخر، وضوء عجيبٍ يختلط ويتجمع.. الأقدام تقترب أكثر وأكثر.. ولكنني لا أرى أصحابها.. وكأنني أُصعق من تلك الأضواء.. شعرتُ بأن الأرض ستنشق من تحتي.. رياح شديدة تزدادُ وتُهاجِمُ كل شيء بالغرفة، وكأنني بإعصار عصيب.. حاولتُ الإمساك بجانب السرير دون جدوًى.. كنتُ ومحتويات الغرفة نطيرُ بالهواء كتُلة من الريش بأعتى الأعاصير.. صرختُ عاليًا:

- النجددددددددددددددة.. الغوووووووووووووووث!

صوتٌ آخر مُخيف يندمج بمأساتي.. نباح كلب شرس لمحتُه بالغرفة وسط خضم ذلك الإعصار.. كلب هائج مُرعب.. وفجأة توقف الإعصار وسقطتُ أرضًا متوجعًا.. سكون لحظي.. التقطتُ أنفاسي ناظرًا حولي.. كل شيء بالغرفة بمكانه وكأن شيئًا لم يكن.. سُحقًا لما أرى.. ذلك الكلب يقترب مني بوحشيةٍ يلتقطم قدمي ليلتهمها.. حاولتُ ركْله بعيدًا بقدمي الأخرى..

كل شيء هنا يجري أسرع مما أتخيل.. وقف ناظرًا لي بحدة متناهية وكأنه يريد الانتقام مني.. وحش كاسر ضخم الجثة أسود اللون يهمُّ بافتراسي.. قَفَزَ عاليًا تجاهي وانقضَّ على جسدي.. نُباحه يخلع القلوب.. كان يحاول عضَّ رقبتي وقتلي.. صراع جسدي عنيف بيننا على الأرض.. وضعت يدي بين فكيه بكل قوتي.. نباه كسكينين حادين ينتظران لحظة اختراق رقبتي لتنتهي تلك الفرصة الأخيرة للنجاة.. سأموتُ إلى غير رجعة.. أنا وصاحب ذلك الجسد المرهون بصمودي لإنهاء تلك اللعنة.. صرختُ بأعلى صوتي:

- لن أدعك تقتُلَني.. أعرف من وراءك.. لن أمنحكم الفرصة.. سأعيشُ.. سأعيشُ.

كنتُ خائفًا من خؤور قواي.. ومذعورًا من هؤلاء الجانِّ المُخفين. أشعرُ بعيونهم ترقبني.. وكأنني على مسرح روماني ينتظر متفرجوه نهاية العرض.. أحدُنا سيقتل الآخر.. وهم مشجعوه ومحرضوه.. كافح ذلك الكلب كثيرًا مُحاولًا إنهاء أمري.. سكين طعام كان على تلك المنضدة الخشبية بالقرب منا.. التفَّت يداي على عنقه ضاغطًا بكل قوتي.. كلب شرس صعب المراس.. مددتُ إحدى يديَّ مُحاولًا التقاط السكين.. نباه يقتربان من رقبتي رغمًا عني.. إنه موشك على إنهاء فُرصتي الأخيرة.. وكأنني أستمع لصيحات تشجيعية للجانِّ حولي لحثِّه على افتراسي.

-اقتُلْه.. اقضِ عليه.

وبلحظةٍ خاطفة دبت ذلك السكين ببطنه فخارت قواه.. وسقطَ يُنازع بخروج روحه.. كنت بجانبه مُستلقٍ أرضًا مبرقًا العينين، ورنين ذلك الهاتف لا يتوقف.. ترى ذلك البركان القادم لاجتياحي بقوة، هل سأنجو منه أم سأحترقُ بأمواجه النارية؟

***

واقتربَ بزوغ الفجر ليعلن عن قُرب موكب الشمس الغائبة لأيام خلف سحب لا تنتهي.. اليوم الثاني بعد الجريمة.. ضباب شديد يُخيم على العاصمة.. وجثة مُلقاة بجوار سيارة فخمة أعلى هضبة المقطم.. .جثة مريم شاؤول غارقة بدمائها مفارقة الحياة بطلقٍ ناري بالرأس.. وهناك سيارة أخرى بالقرب منها بها شابٌّ وبجواره فتاة شبه عارية لا يكسوها إلا القليل.. يبدو عليهما القلق الشديد.. قوات الشرطة تملأ المكان ويتوسطهم الغندور الناظر لجثتها نافثًا دخان سيجارته الملتهبة.. وصل لتوِّه لمكان الجريمة بعدما أبلغه النقيب ماهر بها.. استقبله ليعطيه تقريرًا مبدئيًّا عن الحادثة.

- المعاينة الأولى تُنبئ بجريمة قتل لغرض السرقة، السيارة بدون مُسجل والمرايا الجانبية أيضًا سُرقت، والإطارات جميعها كما ترى جنابك.. القتل تم بعيار ناري بالرأس ولا وجود لسلاح الجريمة.. سيدة في العقد الثالث من

العمر تُدعى فاطمة عز العرب، وصاحبة دار الحرية للنشر والتوزيع، لبنانية الجنسية، وصلت أمس إلى مطار القاهرة، وذاك جواز سفرها..

ناوله إياه فتفحصه الغندور بينما أكمل ماهر تقريره:

- كانت بحفل السيد يعقوب إدريس أمس.. شاهدتُها بنفسي بكاميرات المراقبة تُراقصه لبعض الوقت ثم تركت الحفل، وهذا الشاب بالسيارة هو من أبلغ عن الجريمة.

نَظَرَ له الغندور صامتًا يفكر.. نفث سيجارته بعمق وترجل ناحية ذلك الشاب.. أطلَّ برأسه من شباكه.. ورمق جوانب سيارته الفارهة جيدًا.. فتح بابه وأشار إليه بالنزول.. .. حادثه الشاب متوترًا.

- أُدركُ أنكم تقومون بعملكم على أكمل وجهٍ، ولكنني أرى أنه لا داعي لوجودي الآن.

اقترب منه الغندور هامسًا له.

- ألا ترى معي أنه من العجيب وجودُ شابٍّ مثلك بصحبة فتاةٍ بهذه المنطقة المهجورة في هذا الوقت من الليل؟

- سيادة الضابط.. أنا مَن أبلغتكم وانتظرتُ حتى أتت قواتك ولم أهرب لحرصي الشديد على العدالة.

ضحك الغندور كثيرًا.. وأقترب منه أكثر ناظرًا بعينيه متسائلًا:

- ألديك بطاقة شخصية؟

- نعم.

ناوله إياها مُرتبكًا لينظر بها.

- مازن عبد الجليل عسران.. ٣٥ عامًا، طالب بكلية الحقوق.. أنت من المعمرين يا سيد مازن؟

- لم أُكمل دراستي حتى هذه اللحظة لظروف خاصة.

- سنعرفُها.. وسنعرف أيضًا سبب وجودِك هنا.

همس له مازن:

- لخدش الحياء العام.

- ماذا؟

- أنا أُصارحك بالحقيقة وعليك تصديقي، أنا شابٌّ تافه.. أحبُّ تجربة كل ما هو جديد، وجئت إلى هنا بصحبة هذه الفتاة لخدش الحياء العام فوق هضبة المقطم.. صديق لي أخبرني أن ذلك المكان ممتع للغاية.

لحظات من الصمت بينهما رَمَقَ فيها الغندور تلك الفتاة الجالسة بالسيارة، فهمس له الشاب مرة أخرى:

- عاهرة.. عاهرة تُؤجر بالساعة.

تنهَّد الغندور ناظرًا إليه بحدة.

- هل شاهدت الجاني؟

- لا.

- هل شاهدت أيَّ شيء؟

- لا شيء إلا المجني عليها.

- ولماذا لم تهرب بعدما تفاجأت بهذه الجثة؟

- لأنني خِفتُ.

- مِمَّ؟

- من تلفيق تلك التهمة لي.

- كيف؟

- سيادة المقدم.. سوء الحظ اقتاد العديد من الأبرياء لغرفة الإعدام، من الجائز أن يكون القاتل هنا حولنا.. قد يقوم بتصوير سيارتي وأنا أهرب.. وقد يُتابعني ويدسَّ لي سلاح الجريمة ببيتي أو بسيارتي أو أي احتمال آخر.. لذلك قررتُ إبلاغكم والانتظار أفضل كثيرًا من الهروب من شيء لم أفعله..

وأقنعتُها بذلك فبقيت معي.. لسنا مجرمين.. وهأنا أقولها لك.. أنا سكير.. أنا تافه.. . ولكنني لست بقاتل.

لم يصدقه الغندور.. كان بارعًا في قراءة عيون الآخرين.. وهذا الشاب مُريب بعض الشيء.. ذلك الارتباك والقلق بعينيه ينذران بذلك.. عليه احتجازه بعض الوقت حتى ينتهي التحقيق والكشف عن شخصية القتيلة... ابتسم له مُربتًا على كتفه.

- سنحتاج إليك قليلًا معنا لنكمل المحضر بالمديرية.

- والفتاة؟

- معك.. خطوة بخطوة.

- سيادة المقدم.. ما أخبرتك به لك أنت فقط.. لن أنطق به بالتحقيق.

تَرَكَهَ وتحرَّك بعيدًا عنه.. وقف يفكر بمفرده بالهواء الطلق.. تساؤلات عديدة تتردد على رأس الغندور بنفس اللحظة.. هل لهذه الجريمة علاقة بمقتل الفنانة حبيبة؟ شعر بأن هناك رابطًا ما بينهما.. جاسر عبد الرسول الموجود بمسرح أحداث الجريمة الأولى.. يُراقب الروائي يعقوب إدريس بنفس اليوم.. وهذه الضحية الجديدة كانت بالحفل الخاص به باليوم التالي.. وقُتلت بعدها بساعات.. هل هي مجرد مصادفة؟ ما الرابط بينهما إذًا؟ إنه

يعقوب إدريس.. الرابط المشترك بين الجريمتين.. إحساس دفين يدفعه للتفكير بخطين متوازيين بهذه القضية منذ بدايتها.. أحدهما يتصدره جاسر والآخر ذلك البهلوان القاتل.. معسكران منفصلان.. متباعدان كلاهما يصارع الآخر نحو هدفٍ ما.. حرب ضروس بالخفاء يبذلان كل الجهود للانتصار بتلك المعركة المُلتبسة.. .أحدهما يراقب يعقوب إدريس.. والآخر يتقمص دور دون كيشوت مُحاربًا طواحين الهواء.. ولكنه يُضفي عليه الدموية كصبغةٍ ملائمة للعصر.. فيقتل حبيبة بوحشية أمام الجميع.. مُشيرًا بعدها للبعض من عِلية القوم الذين يمارسون الجنس معها، وكأنها تهمة قوية تستوجب القبض عليهم من وجهة نظره.. مَن يرتكب الخطايا فليمت أو ليسجن.. تلك هي رسالته.. أهذا يعني أنه سيقتُل هؤلاء الأربعة المُرسل لفضائحهم الجنسية إن لم يتحقق ما يريده بتوريطهم؟ كل شيء جائز.. هذا ما أخبرَه به اللواء منذر ياقوت مدير الأمن العام حينما أطلعه على تلك الملفات الجديدة بالقضية.. طلب منه البحث بسرية تامة دون توجيه لأي تهمة لأصحاب المقاطع الجنسية وتأمين حياتهم سرًّا دون حتى أن يلاحظوا هم ذلك.. هناك هاجسٌ برأسه يصرُّ على علاقة خفية لكل ما يحدث بذلك المتوفَّى يحيى عبد النور بركات.. حكاية تجبرُه على التفكير كثيرًا.

– من الممكن جدًّا أن يكون هناك مَن ينتقم ليحيى لما جرى له بحياته.

هذا ما هَمَسَ به الغندور لنفسه.. .قضية شائكة لا يدري الى أين ستؤول به الأمور، ولكن عليه تتبُّع كل شكوكه لعله يصل للحقيقة.. الحقيقة وراء البهلوان القاتل وجاسر عبد الرسول.

***

كنتُ مَشدوهًا وكأنني أول مولودٍ خرج من رَحِم الجحيم هذه الليلة لحياةٍ مرهونةٍ بصفقة حتمية لا مفرَّ منها.. عائدًا من الموت غارقًا ببحور لعنة لا أعرف شطآنها ولا مرساها.. متعلقًا بعرق خشبي وسط محيط حالك الظلام.. دروب جبرية عليّ خوض معركتي داخلها، وأنا مغمض العينين دون سلاح.. معركة مستحيلة للنجاة بحياتي وحياة الآخرين ممن اقترفوا الخطايا المجهولة، وأنا فقط من تتعلق آمالهم بي لغفرانها، والبدء من جديد هروبًا من مُنتظر الجحيم.. ذلك العذاب الهائل البغيض.. بيدي أنا إنقاذهم هم والساحر القديم.. ذلك المعلق بين الحياة والموت بلعنة هو بادئها منذ آلاف السنين.. لنشكل حزبًا جديدًا لم يكن يومًا ما بهذه الدنيا منذ خلقها الله.. حزب العائدين من الموت.. الناجين من اللعنة.. .. أمطار غزيرة لا تتوقف وكأن السماء ترغب بمساعدتي لتغسيل خطاياي بمائها الطاهر ولكن هيهات.. ليت كل الخطايا تنتهي هكذا بسهولة.. كنت كالمجذوب تائهًا بين شوارع عدة.. لا أعرف وجهتي ولا أقوى على التفكير بأي شيء.. وذاك

الهاتف الذي لا يكفُّ على الرنين أغلقته ووضعته بجيبي.. لا أعرف لماذا احتفظت به.. لعلي فكرتُ برابط بيني وبين تلك الغرفة اللعينة التي هربت منها قبل أن يقضوا عليّ وسط المقابر فمن يدري ماذا بعد ذلك الكلب الشرس الذي تركته غارقًا بدمائه.. من أين أبدأ؟ ذلك هو السؤال اللعين.. مطلوب مني إصلاح خطايا أُناسٍ سأحلُّ بأجسادهم، وهذا أولهم.. ذلك السمين القصير الساكن بغرفة وسط المقابر ممتلئة بالمسروقات.. أتكون مهمتي هي ارجاع تلك المسروقات لأصحابها؟ وكيف لي أن أعرف أصحابها؟ أأُسلمها للشرطة وأُمكنهم من القبض عليّ؟ وإن فعلتُ ذلك كيف لي أن أتمكن من إكمال مهمتي؟ يا إلهي.. سحقًا لما وُكلت به.. أي ذنبٍ أقترفته لأتحمل أوزار الآخرين؟ صوت أذان الفجر يمتزج بصوت الأمطار.

الله أكبر.. الله أكبر
أشهد أن لا إله إلا الله
أشهد أن محمدًا رسول الله
حي على الصلاة
حي على الفلاح
الصلاة خير من النوم
الله أكبر الله أكبر
لا إله الا الله

وكأن الله يناديني لأتدثَّر بأحد بيوته.. لطالما سمعتُ ذلك النداء وأعرضت عنه بكل ما لديَّ من قوة عندًا وكبرًا.. كنتُ أظن أن بالعمر متسعًا لذلك.. خدعني شيطاني بوسوسته البغيضة.

- ما زلتَ شابًّا صغيرًا، اهجر بيوت الله وشعائره كما يحلو لك وعُد إليها شيخًا.

بئس ما فعلت.. لو كان أبي أخذني باللين والرفق.. لكنتُ الآن بمكان آخر.

وقفتُ على باب أحد المساجد الصغيرة.. ترددت بالدخول.. لم أقرب أي مسجد منذ أكثر من أربعة أعوام.. وقبلها كنت أخطو بداخله منافقًا كذوبًا.. سُحقًا لتلك الأيام التي وقفتُ فيها بين أيادي الله مُختالًا غرورًا.. قضيتُ سنوات عديدةً أُصلي ظاهريًّا كآلة حديدية لا روح فيها تفعل ما يطلبه منها صاحبها.. وصاحبي كان أبي إمام المسجد القاسي القلب.. قهرني مئات المرات حتى تمردت عليه وعلى صلاته التي أجبرني عليها طوال عمري.. لطالما انتظرنه على باب المسجد لأخبره أنني انتهيتُ للتوِّ من الصلاة، وخرجتُ وأنا لم أركعها مطلقًا.. من عظيم الذنب أن تتحول شعائر الله لقضية عناد بين أب وولده.. أين هو الآن؟ فليأتِ وليتحمل أوزار هؤلاء الخطائين معي.. فإن كانت خطيئتي ترك الصلاة فخطيئته ترهيبي وإبعادي عن رحاب الله بقسوة قلبه.. مددتُ قدمي لأتجاوز باب بيت الله.. إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بحاجتي إليه.. تتساقط المياه مني دون توقف مختلطة بدموعي المنهمرة.. كنت حافي القدمين.. لاحظت ذلك للتوِّ فمنذ عودتي

للحياة بجسد آخر وأنا كذلك.. تائب بعد فوات الأوان.. والله لو نجحت بمحو تلك اللعنة لأعيش باقي حياتي أكفر عن ذلك الذنب.. لأصلي ليل نهار وأقوم الليل وأُغيث المحتاج.. لأكونن أصغر عابد تائب على وجه الأرض حتى أبلغ شيخوختي.

كان مسجدًا خاويًا إلا من إمام طاعن في السن.. لا أحد غيره.. اقتربت منه مترددًا وصوته القارئ للقرآن يرنُّ بأذنيَّ وتخشع له كل حواسي:

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

وما إن رآني حتى توقف عن القراءة ناظرًا لي بفرح شديد..

-بارك الله فيك يا بني.. بارك الله فيك.

وَقَفَ ليؤذن لبدء الصلاة.. كنتُ بمفردي خلفه مسلوب الإرداة.. وكأنني موثق بآلاف الذنوب لا أقوى على الحركة.. بكيت كثيرًا وعلا صوت حسرتي.. فروحي تريد الصلاة، وهذا الجسد يمتنع.. يا ليتني كنتُ ترابًا! يا ليتني ما وُلدت ولا جئتُ لدنيا خسرت بها كل شيء! الحياة والآخرة كلاهما لم أنعم بهما.

فَرَغَ ذلك العجوز من الصلاة ونظر ناحيتي مُتعجبًا.. ظَلَّ صامتًا لدقائق ثم اقترب مني.. ربت على كتفي بحنان شديد.

- اجلس يا بني.. اجلس.

وجلس أمامي يُواسيني:

- لا تحزن فالله رحيم بعبادِه.

- أحملُ ذنوبًا كثيرة.

- إن الله يغفر الذنوب جميعًا إلا أن يُشرك به.

خرج صوتي مُرتعشًا يسأله خائفًا مرتعدًا من إجابته:

- وإن مات أحدهم وانقطع عمله من الدنيا هل يُغفر له؟

- يا بني.. قَالَ رسول الله ﷺ : «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».

يا لحسرتي! فلا عِلمَ لي ولا ولد ولا صدقة جارية.. فأنا كشجرة خاوية على عروشها فَقَدَت كل الآمال بخروج أوراقها من جديد.. لم يبقَ سوى أملٍ واحدٍ بعيد يقترب إلى المستحيل.. نظرت إليه بعينين تملؤهما الدموع متسائلًا:

- لو كان هناك رجل سجين بمكان لا يقوى على الخروج منه. وحيد حزين يملك ذنوبًا لا حصر لها.. ويعترف بها كاملة ويندم عليها، حبيس بجحيم نفسه قبل سجنه.. فهل يغفر الله له؟

- الله غفور رحيم..

- حتى وإن أُغلق باب التوبة؟

- ماذا تعني؟

- إن كان هذا الرجل وهو بسجنه هذا، خرجت الشمس من مغربها، وشعر بذنبه وندم عليها أشد الندم، فهل تُقبل توبته؟

-إذا خرجت الشمس من مغربها يُغلق الله باب التوبة يا بُني.

وأنا شمسي خرجت من مغربها بموتي فهل لها أن تعود كما كانت.. سؤال يذبحني.. كنت منهارًا لا أتوقف عن البكاء لحالي.. ربت على كتفيَّ ذلك العجوز مُتحدثًا لي مبتسمًا..

- أخبرنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقصة رجلٍ يدخل النار ويخرج منها إلى الجنة فيقول: إني لأعلمُ آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة: رجل يخرج من النار حبوًا فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها، فيُخيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ، وجدتُها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ، وجدتُها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو لك عشرة أمثال الدنيا، فيقول: أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك؟

قال عبد الله بن مسعود راوي الحديث: لقد رأيتُ رسول الله ﷺ ضَحِكَ حتى بدت نواجذه، فكان يقول: ذلك أدنى أهل الجنة.

يا بني إن الله غفور يحبُّ عباده ويرحمهم، وقد يُخرِجُ من أهل النار أُناسًا ظنوا أنهم هالكون أبدًا، وبرحمته هو فقط يدخلون الجنة بعد طول عذاب.

- أحقًّا ذلك يا شيخ؟

- إنه الله.. الله يا بني.. الحنان المنان.

كانت كلماته تلك كطوق النجاة بالنسبة لي.. أمل جديد ينضم لروحي.. ربما أكون واحدًا منهم.. هؤلاء المعتوقون من النار بعد عذاب غير معلوم، ولكن بنهايته جنة.. سأبذلُ كلَّ ما بوسعي لإنهاء تلك اللعنة والنجاة.. سأعودُ إلى الحياة، وأصيرُ أقومُ خلق الله على الأرض.. الله الحنون.. دفء عجيب يحاوطني بهذا البرد الشديد.. ابتسامة ذلك العجوز توقف ارتعاشاتي..

.. بادلتُه نفس الابتسامة وتركته ناهضًا وخرجتُ دون كلمة واحدة.

***

الساعة السابعة صباحًا.. العاشر من يناير.. الغموض يكتنف كل شيء بهذه القضية، وكلما مَرَّ الوقت زادت ألغازُها.. وقف النقيب ماهر على باب فيلا الروائي يعقوب إدريس بهذه الساعة المبكرة طالبًا مُقابلتَه لأمرٍ مهمٍّ

بتكليف من المقدم غندور.. مكث دقائق بغرفة مكتبه منتظرًا إياه مُرتشفًا فنجانًا من القهوة صنعه خادم يعقوب باقتدار.

دَخَلَ يعقوب إلى مكتبه مقطَّب الوجه مُرهقًا، فلم يستطع النوم ليلته السابقة.. خوفه الشديد على حبيبته دانا شمعون ومصيرها يُدمي قلبه ليل نهار بالأخص بعد لقاء البارحة بتلك الإسرائيلية المتنكرة.. سؤال واحد يساوره منذ معرفته بذلك.. ماذا يريدون منه؟ هل يريدون التخلص منه أم يريدون تجنيده للعمل لحسابهم؟ بكلا الأمرين هم ثُلة من المجاذيب والأغبياء.. فلا هو فريسة سهلة المنال ولا هو خائن يُشترى بأموالهم القذرة.. مَدَّ يده ليصافح ذلك النقيب الزائر دون ميعاد مسبق بابتسامة صفراء.

- أنا النقيب ماهر من إدارة...

قاطعه يعقوب

- أعرفُك.. رأيتُك البارحة بالحفل تُباشر مجموعة المراقبة والتأمين.

- حسنًا.. أعتذر عن زيارتي لك بذلك الوقت المبكر.

- تفضَّل بالجلوس..

جلسا بالكراسي الأمامية للمكتب أمام بعضهما البعض.. أشعلَ يعقوب سيجاره الفخم.. نظر بعدها إلى ماهر السائل له:

- سيد يعقوب.. هناك امرأة كانت بالحفل الليلة الماضية راقصتْكَ بعض الوقت ثم انصرفت، نريد بعض المعلومات عنها.

نَظَرَ إليه صامتًا.. لعله يقصدها.. فذلك الأمر سريٌّ للغاية، وغير مُباح له بالخوض بتفاصيله حتى مع رجال الشرطة.. هكذا اتفق مع مدير المخابرات.. أخرج ماهر صورة لها مأخوذة من كاميرا مراقبة الحفل، وما إن شاهدها يعقوب حتى صحَّت ظنونه، فهو لم يُراقِص هذه الليلة غيرها، ونسمة مختار، لا ثالث لهما.

- هذه السيدة فاطمة عز العرب صاحبة لدار الحرية للنشر والتوزيع بلبنان.

- هل قابلتَها قبل اليوم؟

- لا، تلك هي المرة الأولى التي أراها فيها.

- مَنْ دعاها للحفل إذًا؟

- يا سيادة النقيب أنت تعلم جيدًا أن بحفل كهذا الدعوة عامة لكُلِّ رُواد الفكر والثقافة، ولا تحديد للحضور أبدًا حتى وإن أردت ذلك فلن تُمنع سيدة مثلها من الدخول.

- هل يمكن أن تُخبرني عن الحوار الذي دار بينكما؟

- كانت تعرضُ عليّ التعاقد مع دار الحرية التي تُمثلها على أحد أعمالي المستقبلية.

- حسنًا.. لا شيء غير ذلك؟

- الغريب بالأمر هو تحديدها لموضوع الرواية التي تُريد التعاقد معي على كتابتها، وتحويلها إلى فيلم عالمي بنجوم هوليوديين.

- أي موضوع؟

- رواية عن البهلوان القاتل للنجمة حبيبة.

- ماذا؟

كانت مفاجأة كبيرة للنقيب ماهر.. سيدة لبنانية تطلب من أديب مثل يعقوب كتابة رواية عن جريمة لم تظهر ملامحها بعد، وبالمصادفة هذه السيدة تُقتل بنفس الليلة، والأكثر من ذلك أن ذلك الأديب حياتُه مهددة من جاسر عبد الرسول المشتبه به الثاني بنفس الجريمة.. لا بد أن هناك معنًى لذلك.

-قالت إن لديها معلوماتٍ أو تكهنات - على حد قولها - بأن هذه القضية ستحوي العديد من المفاجآت والأطراف، وأن رواية عن هذه القضية بالتحديد ستحدث ضجة شديدة.

- سيد يعقوب.. هذه السيدة عُثر عليها مقتولة بطلق ناري بالمقطم.

برقت عيناه غير مصدقٍ لما تستمع إليه أُذناه.. ماذا يحدث بحق الجحيم؟

- قُتلت؟

- نعم وسنقوم باستدعائك رسميًّا لاستجوابك لأنك من أواخر منّ قابلتهم.

- ليس لديَّ شيءٌ لأقوله أكثر من ذلك.

- سيد يعقوب.. تقديرًا لمكانتك فقد جئتُ إليك لأُبلغك بذلك بنفسي.

رنَّ هاتفه المحمول فقطع حديثهما.. أجاب يعقوب بشغفٍ وقلقٍ.

- نعم.

أَغْلَقَ الهاتف بعدها، واغرورقت عيناه بالدموع.. نهض من مكانه سريعًا متوترًا:

- عليّ الخروجَ الآن.

- ما الأمر يا سيدي؟

نَظَرَ إليه يعقوب بحدةٍ شديدة، وهُرع بالخروج.. تَبِعَه ماهر بسيارته.. يبدو أن هناك أمرًا خطيرًا يتعرض له ولا يقوى على الإفصاح عنه.. حاول ماهر إبلاغ الغندور بنتائج المقابلة الصباحية، وبهذا الهاتف الفجائي الذي

قلب حاله بلحظةٍ واحدة، ولكن هاتف الغندور مغلق.. ربما اقتنص ساعة للنوم بمكتبه.. فمنذ تلك الجريمة لم يبرح أحدهما منزله إلا قليلًا.. كان ذلك عادة غير مريحة لضابط مثل ماهر.. وكأنه موظف حكومي ضَلَّ طريقه ووجد نفسه بالمكان الخطأ فجأةً، ولم يحاول يومًا تعوُّد تلك الحياة الشاقة.. يعلم جيدًا أنه حينما سيخبر الغندور بما دار في مقابلته تلك التي كلفه بها سيسأله عن ذلك الهاتف وما جاء به.. فلذلك عليه بتتبعه تجنُّبًا لعصبية ذلك المقدم النشيط.. إن كان عليه هو فليعُدْ إلى منزله ويغلق جميع هواتفه ويغطّ بنوم أيامًا.. تبًّا لهذه القضية التي لا تنتهي! يبدو حقًّا أن هناك علاقة ما تربط قتل تلك اللبنانية بجريمة قتل حبيبة.. ستصحُّ ظنون الغندور.

وصل يعقوب بسيارته أمام أحد المستشفيات، ونزل منها جريًا وتَبِعَه ماهر.. وكانت المفاجأة الجديدة التي طعنت يعقوب بقلبه.. خطفت حبيبته دانا من غرفتها مجموعةٌ مسلحة وملثمة وورقة صغيرة تُركت على سريرها مكتوبًا بها: «حبيبتك معنا بخير حتى تُنفذ المطلوب».

صرخ يعقوب بطاقم الأطباء والعاملين بالمستشفى مُنهارًا:

- كيف يحدث ذلك بمستشفى محترم؟ أين أمن المستشفى؟ ما هذا الهراء؟ سأغلقُ لكم هذا المستشفى من بابها.. سأسجنكم جميعًا.

- اهدأ يا سيد يعقوب.

حاول ماهر تهدئته مُربتًا على كتفه.. أشاح يده بقوة:

- اتركني.. كيف لمريضةٍ مثلها أن تُخطف هكذا؟ كيف؟ كيف؟

كان كالثور الهائج.. قلبه يزداد اشتعالًا لذلك.. لم يستطع أحد تبرير أي شيء له.. التزم الجميع الصمت وقدروا حالته.. اقترب ماهر من أحد الأطباء وسأله:

- هل هناك كاميرات مراقبة هنا بالمستشفى؟

- طبعًا يا فندم.

- أنا النقيب ماهر غزلان من مباحث العاصمة.. هل لي أن أطَّلع على تسجيل تلك الكاميرات؟

- بالطبع.. تفضَّل معي..

تحرَّك ماهر تاركًا نحو يعقوب ثائرًا حزينًا يكتوي بنار الفِراق.. فمن يدري هل سيلتقيان مرة أخرى أم لا.

جلس ماهر غزلان مُطلعًا على لحظات الهجوم والاختطاف بتسجيل الكاميرات.. خمسة ملثمون مدججون بأسلحة نارية يعرفون وجهتهم جيدًا.. بدقائق معدودة قاموا باختطاف المريضة على سرير طبي، وسرقة

تلك الأجهزة المعلقة بجسدها كما هي، وكأنهم حريصون على إبقائها حية والحفاظ على حياتها.. وسيارة نصف نقل مغلقة كانت بانتظارهم أمام المستشفى.. سيارة دون أرقام.. كان هناك رجل يتقدمهم ويعطيهم الأوامر.. قام ماهر بتثبيت الصورة عليه.. عرفه على الرغم من ذلك الغطاء الذي يُخفي نصف وجهه.. إنه جاسر عبد الرسول.. نفس أبعاد الجسد والعينين.. جريمة جديدة تتعلَّق بيعقوب إدريس.. تنهَّد ماهر هامسًا لنفسه:

- تبًّا لذلك! ماذا يريدون من ذلك الروائي؟ ومن هم هؤلاء؟

***

يحيى عبد النور بركات.. تائه في جسد آخر كمهاجر لبلاد خاوية لا شمس فيها ولا بشر.. ليل يقاتله الظلام ويسلب هدوءه زارعًا الخوف والرعب بين دقائقه التي لا تمر ولا تنتهي، مسجون يتوق للحياة، وهي تتبختر أمام عينيه ولا يراها.. مخنوق يلتمس ولو نسمة هواء تمرُّ على رئتيه البائستين ولا يشتمها.. كأرض جافة تتمنى هطول المطر ولو لحظة، وسماء دنياها تمتلئ بالسحب الركامية الحابسة لمائها لأبد الدهر.. أخطو بقدمي غيري بحذاء مُستهلَك أعطاني إياه شيخ المسجد العجوز بين شوارع أعرفها ووجوه اشتقتُ إليها.. لا أدري لماذا ذهبتُ إلى هناك.. إنها المنطقة التي تربيت فيها طفلًا وصبيًّا وشابًّا.. وخرجتُ منها جثمانًا يحملونه لمثواه الأخير.. مثواه

اللعين.. قلبي يذرف دمعًا على كل لحظةٍ قضيتُها بعيدًا عن ذلك المكان.. لو كنتُ أعلمُ نهايتي تلك لكنتُ هجرتُ النوم وارتميتُ بأحضان أختي غادة.. حبيبتي الوحيدة التي تعاني لفراقي.. كُتب عليها الوحدة منذ وفاة والدتنا.. وبعدها والدي منذ عام تقريبًا ثم أنا.. كم أتمنى أن تزول هذه اللعنة، وأعود للحياة فقط لأبقى بجوارها بقية عمري.. هذه الملاك التي لا تستحق ما تعايشه.. فقر ويتم لا يحتملان.. ومع ذلك تجدها مبتسمة، حنونًا تقاوم بماكينة خياطة صغيرة تساعدها على استمرار الحياة.. لم تُكمل تعليمها لضيق ذات اليد، واكتفت بالحصول على الثانوية العامة والبحث بعدها عن عمل تساعد بها والدها وتساعدني.. ولكنها لم تتحمل مشاقَّ تلك الأعمال التي تنقلت بينها، وقررت العمل بالمنزل تخيط ملابس لجيرانها، وتُصمم لهم الفساتين والعبايات مقابل بعض المال، والرضا يملأ نفسها الملائكية.. لم أنسَ تلك الليالي التي جلسنا فيها معًا بغرفتي بالسطوح بعيدًا عن والدي نختلس عمرًا تمنينا عيشه.. تلك الغرفة التي شهدت أحلامنا وحنانها وعطفها.. شهدت أحضانها التي تلفحت بها بعيدًا عن قسوة أبي وفقدان أمي.. غادة عبد النور بركات.. أمي الثانية.. ذات مرة اشتريتُ لها هديةً لم تتوقعها.. كانت غادة تعزف بآلة الكلارينت بحفلات مدرستها دون أن يدري والدي ذلك.. كانت أمي تُشجعها حتى سِنِّ السابعة.. ومنذ رحيلها لم تشترك بأيٍّ

من تلك الحفلات، وكأنها فَقَدَت ذاتها بموت الأم.. وتحولت إلى أمٍّ بديلة ترعى أخاها الذي يصغرها بعامين.. زَهِدَتْ بكل شيءٍ بدُنياها.. ذات ليلةٍ ناولتُها كلارينيت اشتريتُه لها.. امتلأت عيناها بالدموع وكأنها تتذكر حياتها قبل رحيل أغلى الناس.. سقطت دموعها ودموعي وأنا أُقبِّل وجنتها وسط أصوات هديل الحمام.

- أريدُ أن أستمع لعزفك يا حبيبتي.

تناولتْها وبدأت بالعزف متذكرةً رُويدًا رُويدًا ما تعلمته عليها.. فقد مَرَّ أكثر من عشر سنوات على هجرها لذلك.. كان ذلك منذ ٩ أعوام تقريبًا.. وعزفت بفمها الجميل معزوفة حزينة لم أنسَها مُطلقًا.. واختلج قلبانا بكاءً وحُزنًا.. كنت أراها أميرة ضلت طريق مملكتها، ولم يعد لديها رغبةٌ بالعودة أو البحث عن أي شيء يسعدها.. كل ما يهمُّها هو أخوها وحاله.. وانتهت من عزفها وقبّلتها مرة أخرى من خديها واحتضنتُها هامسًا لها:

- لا تبكي يا أختاه.. لا تبكي يا عمري.. لا تبكي يا أمي الثانية.

وابتسمت حينها لتُهون عليَّ.. تحاول خداعي.. مدَّت يدها مرة أخرى لتعزف مقطوعة جديدة يغلب عليها بعض الفرح، ولكن دموعها لم تجف.. فضحتها وكذلك أنا.. واختلطت دموعُنا بأحضان بعضنا البعض.. كلانا

يعرف أن غياب الأم كارثة لا تُعوَّض.. شعور اليُتم لا مثيل له.. وجع يغتال القلب طوال العمر.

كنتُ واقفًا على بابها بهذه اللحظات.. أعلم أنها تستيقظ مبكرًا لتبدأ يومها بأعمال الخياطة.. فتحت غادة باب شقتنا، ونظرت لي دون أن تعرفني.. فأنا بجسدٍ آخر لم تَرَه من قبل.

- خيرًا.

- صباح الخير يا سيدتي.

- مَن أنت؟

سؤال يؤلمني.. هل لي أن أرتمي بأحضانها الآن وأُخبرها بكل شيء؟ هل ستصدقني؟ بالطبع لا.. أعادت سؤالها مرةً أخرى:

- هل تسمعني؟ مَن أنت؟

أجبتُها مُتلعثمًا مُغالبًا دموعي:

- أنا صديق.. صديق للمرحوم يحيى.. البقاء لله.

كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، وكأنها كانت مستغرقةً بالبكاء قبل مجيئي.. ابتسمتْ لي ابتسامةً حزينة.

- شكر الله سعيك.

- هل تسمحين لي بالحديث معك قليلًا؟

- تفضَّل.

أشارت إليَّ بالدخول، وتركت الباب مفتوحًا.. كنتُ مترددًا بالدخول بذلك المنزل الشاهد على مراحل عمري الماضي.. وقفتُ بمنتصف الصالة صامتًا والدموع لا تتوقف بعيني.. أشارتْ إليَّ بالجلوس:

- تفضَّل بالجلوس يا؟

- إسماعيل.. اسمي إسماعيل.. كنت صديقًا للمرحوم.

- ولكنني أظنُّ أنك قد تجاوزت الأربعين من عمرك.. كيف تجمعكما صداقة مشتركة؟

- كان يعمل معي بفترة غيابه هنا عن المنزل.

- نعم.. خيرًا.

- لا شيء، أُريد فقط الاطمئنان عليك.

- أنا بخير الحمد لله.

كنتُ أتمزق وأنا أراها كذلك.. تمنيتُ لو مددتُ يديَّ ومسحتُ دموعها.. تمنيتُ احتضانها والتهوين عليها.. شيء ما لفت انتباهي لم أتوقعه.. ذلك

الكلارينت الذي أهديتُها إياه منذ تسع سنوات.. لم يخرج من غرفة السطوح قط.. أبت أن تصطحبه إلى هنا حتى لا يراه والدي وكانت من حين لآخر تعزف عليه بالأعلى كلما اشتاقت إلى ذلك.. وجدتُه أمام عيني هنا بالمنزل.. لا أتذكر هل أخذته بعد موت والدي أم بعد موتي.. هذه الفترة لا أتذكرها مطلقًا، وكلما حاولت ذلك أفشل.. ابتسمت لها ونهضت ممسكًا لهذه الآلة الحبيبة ونظرتُ إليها.

- هذه هدية يحيى لك.

نظرتْ إليَّ متعجبةً.

- كيف عرفتَ ذلك؟

- قلتُ لك يحيى صديقي وأخبرني عنك الكثير.. هل لي أن أطلب منك تلك المعزوفة التي

طالما عزفتِها له بغرفته الممنوعة بسطوح بيتكم؟

نظرتْ إليَّ كثيرًا والدموع تتساقط من عينيها.. لا تقوى على الردِّ.

- أرجوك.

مدَّت يدها وعزفت مقطوعتها المميزة.. هذه التي عزفتها أول ليلة أهديتُ تلك الآلة إليها.. كنا نسميها مقطوعة الألم والعذاب.. بكينا معًا

مُجددًا.. ولكن هذه المرة رجلًا بالأربعين غريبًا عنها ووجهه ينبئ بالإجرام، والشَّرُّ يبكي مشاركًا لها حزنها.. وجه مجرم وعينان باكيتان.. شريكان غير منسجمين.. وانتهت من عزفها.. صوت ثالث ينضمُّ لنا.. شخص ما يصفق واقفًا عند باب البيت.. نظرنا ناحيته.. إنه المقدم محمود غندور يتفرس بوجهي.. ما زلتُ أتذكره يوم مماتي وهجومه على البيت هنا وغرفتي بالأعلى.. اقترب ناحيتنا بخطوات ثابتة مترقبًا

- عزف رائع.

***

النبشة السابعة (سيد جبران)

(العاشر من يناير ٢٠١٨)

دخولٌ مفاجئ غير مُتوقَّع لضابط شرطة حاد الطباع عاشقٍ لعمله.. رأيتُ ذلك بعينيه جيدًا.. كان واضحًا للغاية، إنه من ذلك النوع المشاكس الذي لا يهدأ حتى يعرف الحقيقة.. لا أدري ما صلتي بقضية قتل النجمة حبيبة وليس لديَّ تفسير منطقي ينفي قيامي بالجريمة إلا موتي.. هذا أكبر دليل ولكن ما يقلقني حقًّا.. ماذا لو نجحتُ بمحو تلك اللعنة، وعُدتُ للحياة من جديد؟ سأجد تلك التهمة بانتظاري.. ذلك الشرك العظيم المُجهز لي لأعلق بأزمة جديدة تنتهي بالإعدام.. حظٌّ عاثر.. أُصارع لعنات غيري لأنجو من موت غامض لأعود لحياة أول ما ينتظرُني بها الإعدام شنقًا.. يا لسخرية القدر! لن يصدقوني مهما أأقسم لهم بصحة حكايتي.. كنتُ ميتًا وعدتُ.. كاذب لا محالة.. طوقان فقط للنجاة لا ثالث لهما.. إما أن يجدوا القاتل الحقيقي قبل عودتي للحياة.. وإما أن أعود خفية دون علمهم.. أن أظل ميتًا بعيونهم.. السؤال الأبرز الآن: هل سأنجح بالرجوع حقًّا؟

اقترب مني ذلك الضابط متفحصًا وجهي متسائلًا:

- مَنْ أنت؟

لاحقته غادة بنفس السؤال:

- أظنُّ أن الأنسب هو سؤالك أنت.. مَن أنت لتقتحم منزلي بتلك الطريقة؟

- أي طريقة؟ أنا لم أقتحم منزلك.

كان يتفحص كل شبرٍ بالمنزل وكأنه يتوقع شيئًا لحلٍّ لغز الجريمة بين جنبات ذلك المنزل.

اقتربت منه غادة بحدةٍ متناهية:

- فلتجِب عن سؤالي أو لتتفضَّل.

- مهلًا يا آنسة غادة.. أنا المقدم محمود غندور.. ألا تتذكرينني؟

- عذرًا.. أي خدمة؟

- تقابلنا يوم اكتشاف جثة أخيكِ، أريدُ التحدث إليك قليلًا، ولكن أولا فليُجِب ذلك الرجل.. مَن أنت ولماذا أنت هنا بذلك الوقت المبكر؟

كان يلقي أسئلته تجاهي وكأنني متهمٌ يُحقق معه بشراسة متناهية.. أعلم أن ذلك الوجه الجديد فوق هذا الجسد الساجن لي يُثير الريبة.. فمن الوهلة

الأولى للنظر لي تعتقد أنني مجرم عتيد الإجرام.. همَّت غادة بإخباره ولكنني قاطعتها مبتسمًا:

- أنا صديق.. صديق للمرحوم يحيى، وكنتُ أؤدي واجب العزاء.

- صديق؟ ولكن...

قاطعته.

- كان يعمل معي بموقف السيارات، وجمعتنا صداقة العمل ليس إلا، ولم أعرف بموته إلا أمس، فهُرعت لمواساة أخته.

- شكر الله سعيك يا سيد إسماعيل.

مدَّت غادة يدها تجاهي لتُنهي ذلك التحقيق المضاد لرغبتها.. لا تدري ماذا يريد ذلك الضابط السمج.. صافحتُها وهو يرمقني بسؤاله الأخير:

- اسمك إسماعيل؟

- نعم.. إسماعيل أبو اليزيد.. منادي سيارات على باب الله.

- حسنًا.

- البقاء لله.

خرجتُ بعدها تاركًا لهما على غير رغبتي.. لو كان بإمكاني طرده من منزلنا لفعلتُ.. ذلك الضيق الذي تراءى لي بعيني أختي جعلني كالثور الهائج، ولكنني للأسف مُقيَّد بقيود لا حصر لها.. قيود مجهولة.. كل ما فكرت به وقتها هو رغبتي بإزالة تلك القيود وعودتي بجوار حبيبتي وأختي لأحميها.. ذلك الملاك البريء بمفرده بدنيا لا ترحم.

أمام بيتنا التفَّ الأطفال حول ذلك الحاوي العجوز وقرده وزوجته الممسكة بطبل كبير تدقُّ عليه بيديها المرتعشتين.. منذ صغري وأنا أشاهد ذلك الرجل أسبوعيًّا بنفس الميعاد.. لم ينقطع عرضه قط طوال تلك السنين.. يأتي إلى هنا ويلتف حوله المارة.. كان ينادي كعادته:

- قرب قرب قرب.. هنا العجب العجاب.. قرد يرقص بالقبقاب. قرب قرب قرب.. شوف هنا واتفَرَّج.

تراقَصَ القرد بنعلٍ خشبيٍّ صغير، كان يؤدي بقدميه ويديه رقصته المعتادة والجميع يصفق له.. تعوَّد ذلك، وربما لا يستطيع خلع ذلك القبقاب أبدًا، فصاحبه طواف بأحياء القاهرة منذ عقود وهو عرضه الوحيد.. مرات عديدة شردت بذلك القرد بعد انتهاء رقصته.. وجدتُهُ صامتًا هادئًا على غير عادة القردة مثله.. ربما تنازَلَ عن طبيعته مقابل الطعام.. ليحيا دون عذاب الجوع والحرمان.. بهذه الدنيا كثيرون مثلهم مثل القرد.. يضحون بالكثير

مقابل لقمة العيش.. يتراقصون كأمهر العارضين بسيرك الحياة.. فالقردة أنواع.. هناك القرد السياسي والقرد الرأسمالي، القرد قليل الحيلة والقرد الطامع بالمزيد، القرد العاهر والقرد المتاجر بالدين.. القرد الدبلوماسي والقرد الديكتاتوري.. كلٌّ يتراقص لأجل شيء واحد.. المال.. آفة حياتنا تلك هو المال.. لو أنه اختفى لما كان هناك قتلٌ ولا سرقة ولا بهتان.. لما كان هناك جريمة.. لعشنا جميعا بسلام.. لتحقَّقت الأحلام تلقائيًّا.. لقُلبت الدنيا جنة.. شعوب واحدة متساوية.. لا غني ولا فقير.. لا ملك ولا مملوك.. لا فرق بين الناس حينها سوى الأخلاق.. وكلٌّ ومنزلته.. بعمري الماضي قابلتُ راقصين من شتى الأنواع.. مَن يتراقصون ليحصلوا على قوت يومهم.. ومَن يتراقصون لتزداد ثرواتهم.. وغيرهم.. حتى أنا تراقصتُ كثيرًا على كل الموائد لأحقق حلمي دون جدوى.. الكل راقص.. الكل يغني على ليلاه.. كلنا قردة بعرض لا ينتهي.. وكأن الله مسخ البشر أجمعين.. قردة خاسئين.. هكذا نحن.

مددتُ يدي لأُخرج ذلك الهاتف المغلق من جيبي الذي وجدتُهُ بتلك الغرفة القابعة وسط المقابر بالليلة الماضية.. فتحتُه لأتصل بذلك المُلِح بالاتصال بالأمس.. لأضع قدمي على أول طريق المجهول.. حدثني قلبي بأنه آن الأوان لبدأ ذلك التحدي المستحيل.. سأبذلُ كُلَّ جهدي للعودة للحياة مرة أخرى وأدافع عن براءتي بتلك القضية التي لم أرتكب جريمتها

أو على الأقل أبقى هاربًا، ولكن على قيد الحياة، وليس معلقًا بين حياةٍ وموتٍ أبد الدهر.. صوت نفس الرجل بالجهة الأخرى للاتصال والقرد يتراقص أمام عيني دون توقّف.

- هذا الهاتف يخصُّني أرجوك.

- أتعرفُ صاحبه؟

- نعم، إنه لأخي الراحل، وآخر ما تبقى منه كذكرى لي.. أرجوك. أريد هذا الهاتف بأي ثمن تريده.

- ما اسم أخيك؟

- سيد جبران.. سيد عفيفي جبران.

- فلنتقابَلْ.

- حسنًا.. كلك ذوق والله.

والآن عرفتُ اسمي الجديد.. سيد عفيفي جبران.. ذلك الجسد الذي أشغله بروحي لأطهره من خطاياه.. أشعر بأن القدر يُساعدني بمهمتي.. خطوتُ خطواتي الأولى لمصارعة تلك اللعنات الخفية.. ترى ماذا ينتظرني؟ سنرى.

***

جلسَ محمود غندور بغُرفتي وسط أغراضي كما طلب من أختي غادة.. غرفة كئيبة لم أحبّها طوال حياتي.. كتب دراسية وآيات قرآنية فقط هي المسموح بها على الحائط الآيل للسقوط من كثر شقوقه.. غرفة بلا نافذة كمقبرة.. لطالما عبرت عن استيائي منها لوالدي دون جدوى.. كان يصرخ بوجهي بحدة:

- هناك مَن يتمنون مثلها ولا يملكون من حطام الدنيا إلا ملابسهم المُهترئة.

- وهناك مَن يسكنون القصور ويغيرون ملابسهم الجديدة كل ساعة.

- كيف تجرؤ على محادثتي بهذه الطريقة؟ والله لأضربنَّك حتى تستقيم.

للحقِّ كنتُ أُصارِعُه بالرد بوقاحةٍ مقصودة.. كان ينادي بالرضا بما قسمه الله لنا وأنا كنت أنادي بالتغيير.. من حقنا أن نعيش ونستمتع بالحياة التي حرمنا إياها تواكله وخموله.. حتى حينما رغبت بالخروج من ذلك القبر والبحث عن طوق النجاة الوحيد بالنسبة لي حينها كان أول من وَقَفَ بطريقي مُتحججًا بحرمانية ما أصبو إليه.. وكأن الفن سُبة في جبين الأمة لا تُمحى.. ذنب لا يُغتفر.. العجيب بأن حلمًا كهذا نما وترعرع ببيت حرّم عليه التلفاز، وكأنه جرثومة حاربها طوال عمره.. ولكنَّ للفن بريقًا يسلب العقول جذبني وسيطر عليَّ رويدًا رويدًا بحفلات مدرستي التي كنتُ أشتركُ فيها

دون علمه.. وكانت غادة أول جماهيري.. لم أنسَ لهذه اللحظة أول عرض مسرحي اشتركتُ فيه، وأول لحظة وطئت فيها قدماي خشبة المسرح.. إدمان لا يُعالج الا بتصفيق الجمهور.

انتهى الغندور من قصِّ حكايتي الصغيرة على مسامعها كما رواها له الصحفي بدر غانم.. كانت تُصغي له بتحفُّزٍ شديد.. وما إن فرغ من حديثه حتى نهضت واقفةً.

- أهذا كل ما تريد قوله؟

- لماذا تحدثينني بهذا التحفُّز؟

- لأنك لا تراعي ما أمرُّ به.. أنا فتاة خسرت كل شيء، الأب والأم والأخ.. فتاة وحيدة.. عذرًا سيادة المقدم، فمن يمتلكون السلطة مثلك لن يفهموا ما أشعر به أبدًا.

نهض واقفًا واقترب منها ناظرًا بعينيها الممتلئتين بالدموع.

- أُقدِّر حزنك وألمك.

تركها وترجَّل بعيدًا عنها متجهًا ناحية مكتبي الصغير متصفحًا كتبي بعشوائية.

- هل تعلمين أنني يتيم مثلك.. رَحَلَ والدي وأنا طفل في الثامنة من عمري، عانيتُ كثيرًا بعد رحيله، ولم تستطع والدتي تعويضي عن حنانه الجارف، كان رجلًا عظيمًا.

نظر ناحيتها فوجدها صامتة تنظر له بنفس الحدة فابتسم لها:

- ما زالت نفس الحدة بعينيكِ.. حسنًا.

اقترب منها مرة أخرى.

- هل كنت تعرفين بوجود أخيك بالغرفة العلوية؟

- كلا.. يحيى كان يقضي مدة عقوبته بالسجن، ولم أعلم بهروبه.

- أيعقل ذلك؟

- سيادة المقدم ما أحدثك به هو الصدق أرجوك لا تمارس هذه اللعبة الكريهة معي.

- أي لعبة؟

- التشكيك في كل شيء.

- ألم تأتِ قوة من الشرطة بعد هروبه وفتَّشت البيت هنا.

- نعم.. هنا وبالأعلى.. ولكنهم لم يجيبوا عن استفساري عن سبب وجودهم.

- أكانت الغرفة العلوية مفتوحة؟

- كلا.. هي دائمًا مغلقة بقفل ومفتاحه معي.

- معك فقط؟

- ومع يحيى قبل سجنه.

- هل كان يعرف مكان ذلك المفتاح.. أقصد نسختك أنت.

- نعم.. احتفظ بها في درج مكتبه.

- ولماذا لم تسألي عن سبب التفتيش؟

- سألتُ ولم أحصل على أي إجابة.

- ألا تتابعي الجرائد.. التلفاز؟

- لا.. كما ترى لا تلفاز هنا.

- ولكنني رأيتُ تلفاز بالغرفة العلوية.

- هذه الغرفة ليحيى، ولطالما كانت سببًا للخلاف بينه وبين والدي، ذات مرة حطمها تمامًا لرغبته بعدم انفصال أخي عنا والإقامة بها، وبعدها أغلقها يحيى، وأعاد ترتيبها خلسة عنه حتى تفاقمت الأوضاع بينهما، وترك البيت تمامًا.

- هل تظنين أن أخاك قد قُتل؟

- دكتور جوزيف قال إن الوفاة طبيعية.

- ولكن ألا ترين معي أنه من الغريب أن يأتي إلى هنا ويصعد للأعلى دون رؤيتك؟

- ربما كان خائفًا عليّ أو كان يخطط لذلك، ولكن الموت داهمه قبلها.

- حسنًا.. برأيك هل يستحق أخوك هذه النهاية؟

- لا أفهم ما ترمي إليه؟

- نهاية درامية قاسية لشابٍّ كان يحلم بالحياة والشهرة وسُلب منه كل شيء ببداية الطريق.. إن كانت هذه النجمة حبيبة ومخرجها أعطوه تلك الفرصة لكان حيًّا الآن أو على الأقل مات سعيدًا.

- يحيى تعذب كثيرًا.. ولكن أمر الله فوق رقابنا جميعًا.

- ونعم بالله.. ألم تفكري ولو لحظة بالانتقام؟

حالة من الصمت بينهما.. كان يرمقها بعينين متفحصتين ودموعها لا تتوقف.. اقتربت منه متلعثمة محاولة التغلب على بكائها:

- هل تعتقد يا سيادة المقدم أن فتاة وحيدة مثلي تستطيع الانتقام بهذه الطريقة الإجرامية البشعة؟

- وكيف عرفتِ طريقة موت حبيبة؟

- منذ موته وأنا أقضي بعض الوقت بغرفته العلوية التمس روحه حولي بين أغراضه.. وشاهدتُ تقريرًا كاملًا عن القضية التي تحقق فيها بالتلفاز.

- إن كنت مكانك لاشتعلت نفسي ورأسي ولن أهدأ حتى أنتقم له.

ضحكت حينها كثيرًا.. ضحكات ممتزجة بالبكاء.. تعجَّب الغندور متسائلًا:

- ما يُضحك فيما أقول؟

- لأنك تصرُّ على اتجاه واحدٍ في بحثك عن الجاني.

- كيف؟

- تظنُّ أنني رأيتُ أخي يموت وتركتُه يومين بمكانه جثة هامدة وذهبتُ لأُدبِّر الانتقام له، ودخلتُ فيلتها وقتلتها وعدتُ لهنا وانتظرتُ حتى يكتشف الجيران رائحة جسده.

- أُهنئك على ذكائك.

- فليكفِ.. أهناك أيُّ اتهام آخر؟

تحرَّكت ناحية باب الغرفة.. نظرت ناحيته بنفس الحدة وكأنها تطرده:

-كلا.. وآسف لما تمُرين به، وإن احتجتِ أي شيء عليك الاتصال بي.. هذا رقم هاتفي.

أعطاها كارتًا صغيرًا مكتوبًا به أرقامه.. وهمَّ بالخروج، نادته بعد بُرهةٍ:

-سيادة المقدم.

-نعم.

-برجاء عدم ذكر اسم أخي أكثر من ذلك بوسائل الإعلام.

فيكفيه الموت.. أليس كذلك؟

-حسنًا.

تركها وخرج.. لتعاني مرارة الوحدة بقية حياتها.. تنفست الصعداء، وجففت دموعها بصعوبةٍ لتستعد لاستقبال زبائنها بيوم جديد.. عليها المُضي بالحياة حتى وإن كانت لا ترغبها.

***

واقتربت الحربُ الخفية.. على بُعد خطوات من صهيل خيولها.. وحتمًا سأمتطي أحدها لأخترق ساحة المعركة وسط الغيوم والضباب.. وسط الظلام الحالك باحثًا عن بقعة ضوء واحدة مُحتمَلة بطريق يملؤه الدم

واللعنة وخطايا لا أعلم عددها ولا أصحابها.. شارة البدء سيعلنها ذلك الشخص المُنتظِر لي ليتسلم هاتف أخيه.. ليكتشف أنه ما زال على قيد الحياة.. استجمعت كل حواسي للمجابهة.. فالحرب لا رجعة فيها.. ولا هزيمة تُستبدل مرة ثانية.. ولن يأتي من يُعيدني للحياة إن فشلت.. فرصة واحدة لا بديل عنها.. النجاة من الموت.. عليّ الكشف عن خطايا هذا السيد جبران.. ولذلك أحببتُ أن تكون البداية من هذا المكان المقدس.. وكأن حربي تلك مولود جديد يستشرف الحياة.. حينما طلبت مقابلته أخبرته أن يأتي لي أمام مجمع الأديان بمصر القديمة.. لم أنسَ هذا المكان منذ صغري.. فقد زرتُه مرة واحدة مع أمي الحبيبة وأختي.. كنت طفلًا لم أتعدَّ ٤ سنوات من العمر.. ما زلتُ أتذكر حكايتها عن هذا المكان ووصفها له.. بقعة واحدة تجمع مسجد وكنائس ومعبدًا يهوديًا.. عندما تقف بين جنبات ذلك المكان تشعر وكأن هناك حوارًا دائرًا بين الزمن والأديان، فهنا تجد الكنائس تحتضن المساجد، فتتداخل أصوات أجراس الكنائس مع صوت الأذان، في تناغُمٍ داعيًا إلى الوحدة الوطنية والتراحم، معلنةً أن الدين لله والوطن للجميع.

ذلك المكان الذى يجمع الأديان السماوية الثلاثة الإسلام والمسيحية واليهودية، ويضمُّ مجمع الأديان جامع عمرو بن العاص وهو أول مسجد بُنِيَ في مصر وإفريقيا، ورابع مسجد بُنِيَ في الإسلام بعد مساجد المدينة

المنورة والبصرة والكوفة، بجواره توجد مجموعة من الكنائس والأديرة التي شرفت بوجود المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام والسيدة العذراء خلال رحلتهما في مصر، وبجانب هذا وذاك نجد المعبد اليهودي، الذي شاهَدَ عبادة موسى عليه السلام لله الواحد الأحد.. ما زالتْ كلماتها تتردد بأذنيَّ وكأنها بالبارحة.. رحمة الله عليها.. ترجَّلتُ ناحية المسجد.. توقعت أن أجده واقفًا أمامه كما طلبت.. عرفته من تلك الصورة المعلقة بغرفة المقابر.. واقفًا بجوار دراجته البخارية.. كنتُ أقترب منه رُويدًا رُويدًا متوقعًا ردَّ فعله.. كلما اقتربتُ زادت دهشته وبرقت عيناه من المفاجأة.. وهأنا الآن أقف أمامه مباشرة.. حاول تكذيب عينيه ولكنها الحقيقة.. أخوه الميت أمام عينيه حيًّا.. همس مشدوهًا:

- سيد؟ سيد أخي.. كيف ذلك؟

ربت على كتفيه مصطنعًا تلك الشخصية الجديدة عليَّ:

- كيف حالك؟

- أيعقل هذا؟ سيد أخي حي.. الله أكبر.

احتضنني بشدة فرحًا كالطفل الصغير المتعلق بوالده ليلة العيد.

- لم أصدقهم والله حينما علمت بموتك.. كنتُ أبكيك ليل نهار.. وما زاد من آلمي هو عدم حضوري دفنتك.. لولا وصيتك لي بالبُعد عنك إذا

جرى لك أيٌّ مكروهٍ لكنتُ أول من يوصلك للقبر يا حبيبي.. كنتُ سأموت حُزنًا عليك يا أخي.

نظرت إليه مبتسمًا بسخرية:

- نعم حزن بوطل من الكباب وزجاجة بيرة وموسيقا راقصة، أليس كذلك؟

نظر إليَّ قليلًا متعجبًا صامتًا.. وكأنه لا يجد ما يُبرر به وقاحته أمام أخيه.. أينسى الناس بعضهم البعض هكذا بهذه السرعة؟ أيقطع الأخ دابر ذكرى أخيه بعد موته.. همس بصوت مرتعش:

- هل زرتني بالأمس؟

- أين؟

- بغرفتي بالمدافن.. ظننتُ أن هناك شخصًا حاول سرقتي بالأمس وهاجمه كلبي الوفيُّ فقتله وفَرَّ هاربًا.. العجيب أنه لم يسرق مني أي شيء.. أكنتَ أنت هناك؟ ولكنك لا تعرف شيئًا عن هذه الغرفة.. وكيف عثرتَ على ذلك الهاتف؟

- مهلًا يا أخي.. فقد تعرضت لأمور جسام الفترة الماضية جعلني أُصاب ببعض فقدان للذاكرة.

- ماذا؟

- لا تقلق.. لم أنسَ كل شيء.. ولكن حياتي أصبحت بالنسبة لي ضبابية.. لم أتذكر غيرك.

- أنا لا أفهمُ أي شيء.

- أريدُك أن تخبرني كل شيء عني.. حياتي.. عملي.. كل شيء. هذا هو الأمل الوحيد لأستعيد ذاكرتي كما كانت.

أَخَذَ يتفحص وجهي كثيرًا.. يُربكه تغيير ما بوجهي.. أو لنقل بوجه أخيه.. ابتسمتُ له.

- ما بالك تتفحصني هكذا؟

- لا أُصدق ما يحدث.

- تعالَ.. تعالَ لنترجَّل هنا بهذا المكان البعيد عن الأعين.

وترجَّلنا معًا بين أروقة مسجد عمرو بن العاص.. وتحدَّث وكنتُ أنا مستمعه الوحيد.

- يا الله.. وكأنك كنت ترى المستقبل يا أخي.

- ماذا تعني؟

- آخر مرة كنا معًا تمنيتُ أن تفقد الذاكرة لتعود كما ولدتنا أمُّنا.. بلا ماضٍ.

- حدثني عن نفسي يا أخي.

- أنت تكبرني بثلاث سنوات.. والدنا صعيدي وارث لدم أبناء عمِّه.. هربنا وأمنا من بحور الدم تلك التي لا تتوقف.. بعد قتل والدنا نزحنا إلى القاهرة.. كنتُ أنا وأنت وزوجتُك وابنتك وأمُّنا..

- ألديَّ ابنة وزوجة؟

- ضحكة سيد عفيفي جبران.. أجمل طفلة رأتها عيناي. كنت أحبُّها وكأنها ابنتي أنا.. النظر بوجهها كان بالدنيا وما فيها.

- كم عمرها الآن؟

امتلأت عيناه بالدموع حينها.. نظرت إليه متأثرًا:

- ماتت.. ماتت منذ شهر تقريبًا.

- كيف؟

واغرورقت عيناي أنا الآخر بالدموع.

- زوجتُك لم تحتمل الفقر وقلة المال.. عِشنا كلنا بغرفة واحدة أعلى بناية بمنطقة شعبية بدورة مياهٍ مشتركة لكل سكان الدور.. ضيق ذات اليد

جعلها تهجرك وتترك لك ضحكة، يومًا ما صحونا ولم نجدها.. حينها جُن جُنونك.. وبحثتَ عنها بكل مكان.. وكأنها طعنتك بخنجر مسموم بقلبك.. كنت تحبُّها كثيرًا وتزوجتها عن حُبٍّ كنا جميعا نشهد عليه بقريتنا.. ولكن الحاجة والفقر والعوز قتلوا كل شيء بقلوبكما.. لعنت الدنيا وقسوتها.. عذبك سؤال ضحكة كل لحظة عن أمِّها وأنت لا تجد أيَّ ردٍّ لسؤالها.. وعثرت عليها.. كانت تعملُ راقصةً بملهى ليلي.. صورتها على باب الملهى فضحتها.. باعت جسدها لتنجو من الفقر، جسدها وزوجها وابنتها.. وبليلتها كانت جثة هامدة.. قتلتها وطهرت عارها بيديك، وأصبحتَ طريدًا للعدالة.. مع أنها هي الجاني الحقيقي.

كانت حكايته تُعذبني، فكيف أُصلح خطايا تتعلَّق بقتل إنسانة رحلت عن الدنيا.. شردت بعيدًا عنه.. أهذه خطيئته أم أن هناك المزيد؟ وهل قتل خائنة كهذه تستحق العقاب؟ استكمل قصته متنهدًا:

- بعدها تغيرتَ كثيرًا.. أصبحتَ إنسانًا آخر.

- كيف؟

- وضعتَ الدنيا تحت قدميك.. انتزعتَ قلبك وقتلتَ ضميرك مع سبق الإصرار والترصُّد، وبغمضة عين أصبحتُ أنا وأنت نُخطط ونسرق

بالإكراه، وإن لزم الأمر قد نقتل لحساب الغير، نفعل أي شيء مقابل المال.. أنهكتنا الدنيا.. خضعنا لحاجتنا للمال.. لا أدري كيف كانت البداية.. فقط أصبحنا قُساة القلوب، غلاظ الطباع.. عمليات كُثر لأناس خُفاة كنت أنت من تتواصل معهم.. وكم من زبائن تشتري ضميرنا الميت!

- قاتل بأجر!

قلتُها متحسرًا على استحالة مهمتي.. فهل أُعيد للحياة من قتلهم للتغلب على لعنته؟ محال.

- أنتَ طريد الحياة، وأنا الفقير التابع لأخيه.

انفجرتُ فيه صارخًا بعصبية شديدة..

- ولماذا لم تنصحني لأبتعد عن هذا الطريق؟

- وهل يجوز أن أنصح أخي الكبير وقدوتي بالحياة؟

- كاذب.

- نعم، كاذب.. الفقر يقتل كل بذور للخير والأخلاق.. لا تسألني عن شرف يخنقه الجو والحرمان.

- وبعد؟

- مرضت ضحكة.. سرطان بالمخ.. وغابت ضحكة حياتنا بشهور عدة. وماتت أمي حزنًا عليها.. ودخلت أنت بحالة نفسيةٍ سيئة للغاية.. كنا نجهز لعملية جديدة وقتها مقابل مبلغ مالي ضخم.. وقررتُ أنت أنها العملية الأخيرة وسنسافر بعدها بعيدًا لنضمد جراحنا معًا.. وأبلغتني بتفاصيلها وأعطيتني ذلك الهاتف لأفتحه يوم التنفيذ لأتلقى عليه تأكيد تنفيذ العملية.. ولكن الشرطة استطاعت القبض عليك بتهمة قتل زوجتك.. فهربت أنا بعدها لهذه الغرفة بالمقابر بعيدًا عن الأعين وانتظرتُ يوم التنفيذ لأكمل المطلوب بمفردي وأقوم بدورك ودوري.. فكرتُ كثيرًا بإلغائها خاصة بعد موتك في أثناء هروبك من السجن، ولكنني ضعفت وخفتُ على حياتي فقد أصبحت وحيدًا بعدك وأحتاج للمال.. خاصة أنني لا أعرف زبائنك.. حتمًا إن رفضت سيقتلونني.. أنت أخبرتني أنهم على علمٍ بأنني شريكك بالتنفيذ.. أنت طلبت منهم ذلك لأساعدك.. وبالأمس خرجت لأستقبل صديقة لي لا تعرف الطريق.. كنتُ أجهزُ سهرة تنسيني حزني عليك لأستعد للعملية.. عدتُ بصحبتها ووجدتُ الغرفة مقلوبة، والكلب مقتولًا، ولا وجود للهاتف.. كان بجيبي طوال اليوم، ولكن يبدو أنه وقع مني بمكان ما.. توترت كثيرًا لأن اليوم هو يوم تنفيذ العملية، وليس هناك أي رابط مع أصحابها سوى ذلك الهاتف.. كيف وصل إليك؟

- ما هذه العملية؟

رَنَّ الهاتف حينها برقمٍ سري.. نظر لشاشته «رقم سري يتصل بك».

- اغتيال السفير الأمريكي في أثناء افتتاحه لمصنع في تمام الثانية ظهرًا.

برقت عيناي من هول المفاجأة.. صرخت فيه ممسكًا يده لأنظر بساعته.. إنها الحادية عشرة ظهرًا.

- أريدُ كل التفاصيل عن هذه العملية سريعًا.

***

هدوء نسبي بشوارع القاهرة.. كسكون يسبق عاصفة ماكرة.. ونهار ضبابي حار بعد ليلة شديدة البرودة، وأمطار لم تتوقف حتى الصباح الباكر.. أجواء متقلبة كحياتنا.. عاصفة توشك على الخروج، ولن تُبقي شيئًا بمكانه.. هذا ما كان يترقبه المقدم محمود غندور.. يشعر به بداخله دون أن يفصح لأحد.. العاصفة المُسترة.. ما حدث بتلك القضية كان مجرد بداية.. الأمر مُثير للريبة.. تلك الأسطوانات الجنسية، وأسماء أصحابها تُنبئ بدهاء مُرسلها.. ليس مجرد قاتل اعتيادي.. وتنذر أيضًا بعلاقات القتيلة المتشعبة ومن يدري؟ من يكون البهلوان القاتل؟ ومن مُحركه؟ من المايسترو الخفي لما يحدث؟ قتل حبيبة ومحاولة توريط هؤلاء ومراقبة يعقوب إدريس ولماذا؟

قرون استشعاره الأمنية لم تغلق باب الشك بعائلة يحيى عبد النور بركات.. كل الظواهر تنفي ضلوع أيَّ من طرفي الجريمة بغرض الانتقام، ولكنه لا يصدق ذلك.. تعلم الغندور بمهنته تلك حرفة الشك.. كل الأطراف مذنبة وقيد المراقبة إلى أن تنتهي القضية.. إلى أن يكتشف شخصية الجاني.. البهلوان القاتل.. أو لنقل البهلوان القاتل وآخرين.

وَصَلَ الغندور لمكتبه بمديرية الأمن.. استقبله أمين شرطة مؤديًا التحية العسكرية المعتادة:

- سيادة النقيب ماهر اتصل بجنابك أكثر من مرة على الهاتف الأرضي، وأخبرني بضرورة الاتصال به، وأن سعادتك لا تُجيبه على هاتفك الخاص.

- حسنًا.. أريدُ كوبًا من القهوة.

- أوامر جنابك.

هَمَّ بالخروج ولكن غندور استوقفه مناديًا:

- محمد.

- أؤمر جنابك.

- وجبتك الصباحية بعد إذنك.

- رغيفان من الفول ورغيف من الطعمية.

- نعم.

- أوامر جنابك يا باشا.

تناولَ الغندور هاتفه المحمول من فوق مكتبه.. تركه بشاحنه الكهربائي وخرج.. لم يستطع النوم- على الرغم من إرهاقه الشديد - كما قال للنقيب ماهر طالبًا منه الذهاب ليعقوب وسؤاله عن قتيلة الفجر ليقتنص هو بعض الساعات من النوم .. ولذلك تعجب كثيرًا من اتصال ماهر.. لا بد أن الأمر خطير يتطلب إيقاظه.. همّ بطلب رقمه، ولكن أمين الشرطة دخل مكتبه بعد استئذانه، ومعه كوب من القهوة وطعامه وظرف بيده ناوله إياه.

- سيادة المقدم.. تقرير الطبيب الشرعي وصل لتوِّه.

وضع أرغفته أمامه وخرج.. فتح الغندور الظرف بشغفٍ كبير.. وما إن بدأ بقراءة سطوره حتى برقت عيناه.. حينها دخل النقيب ماهر مبتسماً:

- حمدًا لله بأنك هنا جنابك.

- كنتُ على وشك الاتصال بك.

- كنتُ سأنتظرك بمكتبك قبل التصرف بمفردي. أهذا تقرير الطبيب الشرعي بجريمة النجمة حبيبة؟

كان يتحدث بلا مبالاةٍ قابلها الغندور بعصبيةٍ شديدة:

- ماهر.. أخبرني ما في جعبتك سريعًا.

جلس بالكرسي الأمامي لمكتبه.

- لديَّ أخبار عدة.. ولكن أهمها.. الأسطوانات الجنسية.

- رُفعت على شبكة الإنترنت؟

وكأنه توقَّع ذلك.. أشار له ماهر مبتسمًا.

- نعم.. ورصدنا مكانه بالتحديد.

هَبَّ الغندور من مكانه سريعًا.

- ماذا تنتظر؟ حَضِّر قوة حالًا.

- ألن تتناول فطورك؟

- هيا يا ماهر.. هيا.

سباق مع الزمن.. طُرق متعددة متوازية نهايتها واحدة.. الموت.. كلٌّ يتسابق بطريقته.. فمنا من يخطو برفق وهوادة وهناك من يعدو بقوة.. صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ.. هكذا أغلبنا.. غافلون عن نهاية حتمية.. سباق الحياة.. وأحدهم مُمسك ببوق ضخم ينادي ببداية كل طريق لحظة ولادتنا:

- على المتسابق فلان الفلاني البدء بالسباق.

صراعٌ مُتوارث مع الزمن، ودائمًا هو الرابح ونحن الخاسرون إلا قليلًا منا، من يدركون نهاية السباق ويعمَلون لتلك اللحظة.. من يمحون خطاياهم قبل فوات الأوان ومن يمنعونها من الأساس.. يفرون من بين أنياب الزمن.. وحش كاسر يلتهم البشر منذ بدء الخليقة، وأجيال متتابعة غافلة لا تدرك قدر غبائها إلا بلحظة الرحيل.. صارخون دون جدوًى:

- يا ويلتي! يا ليتني كنتُ ترابًا! ربِّ ارجعون لعلي أعمل صالحًا.

يوم لا ينفع مال ولا ولد.. يوم ينتهي دورهم بالرحلة، ويبدأ الحساب عمَّا جنت أنفسهم .. يوم الهزيمة.

ولكن هناك عضو جديد من نوعه بهذا السباق.. يحيى عبد النور بركات.. أنا المعلق بين الحياة والموت.. الشاهد على عذاب الآخرة بمنتظر الجحيم والممنوح فرصة وحيدة للعودة.. المصارع لخطايا الآخرين ممن أحلُّ بأجسادهم لأمحوها لي ولهم.. هذا قدري.. متسابق يحمل أوزارًا تكفي أمة.. وهذا أولهم.. سيد جبران.. قاتل بأجر.. ولعلها الفرصة المناسبة لمحو خطاياه.. عليَّ منع تلك المصيبة قبل وقوعها.. فاغتيال السفير الأمريكي يجلب مصائب لا حصر لها.. أدركتُ ذلك بعد استقبال ذلك الاتصال المجهول أمام مجمع الأديان وكلمة واحدة من المتصل:

- نفِّذ المطلوب بموعده.

وانتهى الاتصال.. كان ورائي الهلال يعانق الصليب بوجود نجمة داوود.. هكذا رأيتُها وكأن قوة روحية تنطلق منهم لتساعدني على مهمتي المستحيلة.. من هنا يبدأ التحدي.. من منبر الأديان الثلاثة.. من هذا البقعة بأرض مصر سأنطلقُ لإنقاذ نفسي وآخرين، وكذلك إنقاذ العالم أجمع.. لم أنسَ كلمات ذلك السلحدار بمنتظر الجحيم.. ما زالت تتردد بأذنيَّ مرارًا وتكرارًا.

- كلما زادت الخطايا زادت اللعنة.. اللعنة إن بلغت حدتها سيتوقف الزمن وستتداخل الأزمنة وستهلك الأرض.. ولن تُمحى اللعنة إلا بطواف تحل روحه بأجساد الخطائين.

أخبرني بعدها الأخ الأصغر لجبران بتفاصيل تلك العملية كافة.. نظرتُ له بحدة ممسكًا كتفيه بقوة..

- عليك بحرق تلك الأموال التي جمعناها من تلك العمليات.

- أجننتَ يا أخي؟

- هذا المال ملوث.. ستموت أنت أيضًا إن لم تتخلص منه.

- لا.. لن أفعل ذلك.. لن أغدو فقيرًا مرة ثانية.

- الفقر أم الموت؟

- لا أدري.. لا أدري.

اقتربتُ منه ناظرًا بعينيه مربتًا على كتفيه بحنان مُصطَنع:

- استمع لي يا أخي.. هذه الأموال مزورة.. نعم مزورة. كانوا يعطونها لي بكميات كبيرة لأقوم ببثها بالأسواق المالية دون علمي.. وكأنني فأر تجارب.. وحينما أدركتُ خِستهم وطالبتهم بحقي وألا سأفضح عمليتهم الأخيرة.. بلغوا الشرطة عني وساوموني بعدها على صمتي مقابل مساعدتي على الهرب، وفعلًا هربت، ولكنهم وحاولوا قتلي بعدها .. لتُمحى جريمتهم لولا عناية الله لكنت الآن بين عداد الأموات.

- لا أصدق.. ماذا تقول يا سيد؟ أعادت الذاكرة لك الآن لتلقي بوجهي هذه الأخبار الشؤم؟

- أخي العزيز.. لا وقت الآن.. ربما يكتب لنا القدر لقاءً آخر. تخلَّص من هذه الأموال.. احْرِقْها.. وسافر بعيدًا، وعِشْ بالحلال يا أخي.. اهربْ قبل فوات الأوان، سيصلون إليك ويقتلونك أنت أيضًا.

- وأنت؟

- سأواجه جزاء أعمالي.

كنتُ مضطرًّا لخداعه.. هذا ما أملك.. لعله يتطهر هو أيضًا.. ظننتُ أن التخلص من ذلك المال جزء من إصلاح خطايا سيد جبران.. عانقته وانطلقتُ.. كانت عيناه مغرورقتين بالدموع.. شعرتُ أنه سينفذ ما أبتغيه منه.. لعله حقًّا يفعل ذلك.. كان ذلك الهاتف الملعون بجيبي وأنا بطريقي للمصنع المرصود.. فوق دراجته البخارية التي طلبت منه استخدامها نازعًا أرقامها.. راكضًا بسباقي مع الزمن.. سباق الحياة.. ولكنني غير أغلب مرتاديه.. فلستُ أصمّ ولا أَبْكَمَ ولا أَعْمَى.. كنت أعرفُ أهدافي جيدًا وأصارع لأجلها.

وكذلك المقدم محمود غندور.. كان بطريق آخر بنفس السباق.. يُصارع المجهول ليصل للحقيقة.. ليمنع جرائم جديدة.. ليعاقب الجناة ويطبق القانون والعدل.. الغندور من أولئك القلائل المُدركين لنهاية السباق العاملين للحظة الرحيل.. كلانا يُهرع لمبتغاه.. وجهان لعملة واحدة.. أنا العائد المضطر لمحو الآثام، وهو الباغي للعدل لمعاقبة مرتكبيها.. هدف واحد بطريقين مختلفين.

مقهى إنترنت بنزلة السمان.. تلك كانت وجهة قوة "بوكس" الشرطة وعلى رأسها المقدم الغندور وبجواره النقيب ماهر.. كان متربصًا مُتجهمًا مستعدًّا لالتقاط طرف مهمٍّ بالقضية وربما الجاني قد أخطأ لغروره، فلكلٍّ

مجرمٍ خطأ يكشفه.. أخبره ماهر بالطريق عما دار ذلك الصباح مع الروائي يعقوب إدريس وطلب المجني عليها الثانية فاطمة عز العرب منه بالأمس بكتابة رواية عن البهلوان القاتل.. حدَّثه عن خطف حبيبته دانا تلك المريضة بالقلب من المستشفى وهرعه وراءه ليكتشف أن الخاطف كان جاسر عبد الرسول.. تداعت كل الأحداث على رأس الغندور.. حاول ترتيبها تباعًا.. رابط خفي يجمع كل هذه الأحداث.. سأله ماهر قاطعًا شروده:

- أهناك جديد بتقرير الطبيب الشرعي؟

- الوفاة حدثت نتيجة الذبح بمنشار كهربائي، ولكن شَقَّ الصدر وانتزاع القلب حدثا بعد الوفاة بنحو سبع دقائق، وبسلاح آخر حادٍّ ومختلف.

وكأن الغندور يفكر بصوت عالٍ شاردا:

- ما معنى ذلك؟

برقت عيناه ناظرًا لماهر.

- كيف لم ألحظ ذلك من قبل؟

جاسر عبد الرسول خرج بعد خمس عشرة دقيقة من خروج البهلوان، وعلى جبينه آثار دم ومعه حقيبة سوداء، ولم تلتقطه كاميرا بوابة الدخول إلا وهو خارج فقط، هذا يعني أنه دخل مُتسلِّلًا من سور الفيلا لغرض ما،

وتصارع بالداخل مع شخصٍ ما ربما كان ذلك هو البهلوان، تصارع الاثنان، وتغلَّب عليه البهلوان بضربة قويةٍ برأسه، فَقَدَ الوعي، ونفَّذ البهلوان جريمته وخرج.. عاد جاسر لوعيه ووجد القتيلة بجواره.. شَقَّ صدرها وحصل على قلبها، وأخفاه بحقيبته السوداء، وخرج مضطربًا خائفًا من باب الفيلا.

جاسر عبد الرسول هو من قام بشق صدر حبيبة.

- ولماذا يفعل ذلك سيادتك؟ وإن كان هدفه هو قتلها من الأساس فلماذا تصارَعَ مع البهلوان ولهما نفس الهدف؟

- سؤال لا يجيب عنه غيره.

- أتعرف جنابك.. أشعر أحيانًا أن جاسر والبهلوان هما نفس الشخص، خاصة أن تقرير المعمل الجنائي يفيد بوجود بصمات جاسر عبد الرسول فقط بمسرح الجريمة.

- لا أظنُّ ذلك على الإطلاق.. فإن كان بذلك الذكاء فمن باب أولى إخفاء شخصيته كجاسر نهائيًا من المشتبه بهما.

تذكر جيدًا تسجيل البهلوان لحظات ذبح حبيبة ستجده مرتديًا قفازين بيديه.. هما شخصان متصارعان لا محالة.

- إن كان الأمر كذلك فربما يكون ذلك الصراع بعد قتلها. أي إن جاسر شاهده وهو يقتلها واعترض طريقه في أثناء خروجه.

- رائع يا ماهر هذا احتمال آخر.. اعترض طريقه ليحصل على خزينتها.

- فضربه وعندما عاد لوعيه شَقَّ صدرها.

- ولكن لو كان هدفه الخزينة فقط.. لماذا شَقَّ صدرها وحصل على قلبها؟

- تصرف عجيب سيادتك.

- وإن ربطت ذلك بمطاردته ليعقوب إدريس وخطفه لحبيبته المريضة بالقلب.

توقف الغندور حينها عن الحديث مُبرقًا العينين.. خطر بباله هاجس غريب.

- ماهر.. أريدُ كل المعلومات عن دانا.. حبيبة يعقوب إدريس المخطوفة، أريد تاريخ حياتها كله.

- أوامر جنابك.. ولكن ما علاقة كل ذلك بطلب تلك القتيلة فاطمة عز العرب بكتابة رواية عن البهلوان القاتل وخطف الأخرى لنفس الطلب تحديدًا؟

- لا أدري الآن، ولكن هناك صراع خفي بين اثنين يعملان بالظلام، أيديهما ظاهرة لنا بمسرح الجريمة.. جاسر والبهلوان.

يبدو أن ظهور البهلوان كان فجائيًّا.. ولذلك الطرف المحرك لجاسر يريد معرفة شخصية البهلوان.. يريدها حربًا مُعلنة الأطراف.. ربما يريد ما كان بالخزينة.. وهي بيد الطرف الآخر الخفي.. تلك الخزينة التي وصلنا منها الفتات.. تحوي المزيد والمزيد.. هذه القضية معقدة للغاية.

***

الساعة الحادية عشرة وخمس وأربعون دقيقة.. كنتُ واقفًا على الباب الخلفي لمصنع الحديد والصلب الجديد بمنطقة السادس من أكتوبر ناظرًا بساعة يد الأخ الأصغر لسيد جبران.. صوت أخي المؤقت يتردد بأذنيَّ.

- ستجد أمام الباب الخلفي دورة مياه ببناء خشبي مستطيل، ادخلها وابحث عن حقيبة بلاستيكية زرقاء ستجدها بأول دورة مياه داخل خزان المياه.. ستجد فيها زِيَّ العمال الكامل.. عليك ارتداءه سريعًا.

كنتُ أُنفِّذ كل شيء بالحرف الواحد.. وبغمضة عين قمت بتغيير ملابسي وارتداء زي العمال.. وخرجتُ..

- ستدخل بعدها من البوابة الخلفية بسهولة دون أن تلفت الأنظار، لا تخف فهذه البوابة لا أمن عليها، فالمصنع ما زال قيد التشغيل، ولكن العمال يستخدمون دورة المياه تلك دائمًا، فالمسافة كبيرة إلى دورة المياه الرئيسية داخل المصنع؛ ولذلك الباب مفتوح.. واحذر إذا وصلت بعد الثانية عشرة ظهرًا فلن تستطيع الدخول؛ لأن الشرطة ستقوم بتأمين زيارة السفير بدءًا من الثانية عشرة ظهرًا وحتى انتهاء زيارته.

كنتُ أتحرَّك مترقبًا خائفًا من وصولي متأخرًا، ولكنني لم أرَ أيًّا من قوات شرطة التأمين أمام عيني؛ ولذلك دخلتُ من الباب الخلفي بيسرٍ وانتهت الخطوة الأولى بنجاح.. ولكن تردد على ذهني سؤال واحد:

- من هؤلاء المنظمون لتلك العملية الإرهابية؟ وكيف اخترقوا الجهاز الأمني لهذا الحد لدرجة معرفة مواعيد تحرُّك القوات؟

ما زال صوت الأخ الأصغر يتردد وكأنني لا أسمع غيره:

- بمجرد دخولك ستجد على الجانب الأيسر للبوابة سيارة ربع نقل بها ثلاثة صناديق، الصندوق الأوسط يحوي قنبلة شديدة المفعول.. كل مهمتك هي قيادة تلك السيارة ومهاجمة المكان الموجود به السفير لحظة التفجير الساعة الثانية ظهرًا بالتمام.. ولوقتها عليك الاختباء بأي مكان.. بعدها انجُ بنفسك بطريقتك.

مهمة صعبة.. وكأن ذلك السيد جبران يُلقي بنفسه إلى التهلكة مقابل المال.. ألهذا الحد يبيع الناس ضمائرهم ويخاطرون بكل شيء مقابل ذلك المال؟ كنتُ واقفًا أمام ذلك الصندوق الأوسط بعدما تيقَّنتُ من وجود القنبلة بداخله مرتبكًا حائرًا.. صوت عدادها مرعب للغاية.. خاصة على شاب مثلي في العقد الثاني من العمر وكل اهتماماته الماضية فنية بحتة .. عليَّ مجابهة الوضع الراهن.. أنا الآن لستُ يحيى عبد النور، بل أنا سيد جبران القاتل بأجر.. شخصية قوية جامدة القلب مخاطرة.. سأساعده على التوبة ومحو خطاياه.. عليَّ قيادة تلك السيارة بعيدًا عن هنا لأي مكان بالصحراء وينتهي الأمر.. ما زال هناك أكثر من ساعتين تقريبًا.. ولكن القدر لم يمهلني حتى بالتفكير بذلك.. قوات من الشرطة والأمن المركزي وصلت للمكان وحاوطت الباب الخلفي، وانتشرت بسرعة خاطفة.. سمعتُ أحد الضباط يُحدِّثهم:

- لا دخول ولا خروج حتى تنتهي الزيارة، مفهوم؟

- مفهوم يا فندم.

***

وصل الغندور وقوته الشرطية للمكان المرصود.. وما إن ظهر «بوكس» الشرطة حتى فَرَّ شخص ما بعدما ناداه أحد الأشخاص مُحذِّرًا:

- الشرطة يا موهبة.

ماجد الغطاس وشهرته موهبة يبلغ من العمر ثمانية وعشرين عامًا، ويُدير مقهى الإنترنت هذا طوال اليوم.. فرار اضطراري.. ظَلَّ يعدو بكل سرعته، ولكن هيهات، لم يتركه صقر الداخلية المقدم الغندور.. وبين الأزقة والحواري كان سباقهما.. حاول موهبة الهروب بكل ما أُوتيَ من قوة، وكان الغندور دؤوبًا متربِّصًا به دون أن يكل أو يشعر بأي تعب.. نصف ساعة من مطاردة لا تنتهي.. الخوف بعيني الفريسة يدفعها للعدو أكثر وأكثر والإصرار بقلب صائده يقسم بالقبض عليه مهما يكن.

دخل المدعو موهبة بيتًا صاعدًا سلالمه لأعلى.. خبطات متتالية مغموسة برعب منقطع النظير.. فتحت له سيدة عجوز ممتلئة الجسم.. هالها حاله وأنفاسه المتعاقبة:

- ماذا حدث يا موهبة؟

- الشرطة ورائي يا أمي.

صرخت الأم لاطمةً على صدرها فخرجت أخواته من غرفهن المتهالكة الحوائط بهذا المنزل الآيل للسقوط والممتلئ بأطفالهن بكل مكان فيه.. تشتمُّ الفقر بين جنباته.. كان موهبة يبكي وأخواته وأمه يصرخن.. خبطات على الباب كسرته.. دخل الغندور حاملًا سلاحه بوجههن.

- مَنْ أنت وما قصتك؟

- أنا ماجد الغطاس يا باشا.

- لماذا تهرب يا روح أمك؟

- والله يا باشا لو قبضتوا عليَّ مئات المرات سأهرب بكل مرة. الرحمة يا باشا.. كلهن معلقات برقبتي ولا عائل لهنَّ غيري، وأخي جاحد هجرنا وتركهن لي.

اقتربت أمه من الغندور متوسلةً:

- اتركه يا باشا.. والكعبة الشريفة سنموت جوعًا بغيره.

- ما علاقتك بالبهلوان؟

- عمَّن تتحدث يا باشا؟

- إن لم تنطق بما أريد سأقتُلك بمكانك.

زاد صراخُهنَّ جميعًا.. وزاد رعبه صارخًا هو الآخر:

- اقتلني يا باشا.. اقتلني قبل أن تقبض عليَّ.

كان مرتعشًا مُحتميًا بأخواته.. نظر إليه الغندور صامتًا يفكر بعض الشيء.. تأثر ببكائهنَّ بعض الشيء.. طبيعي أن تدافع الأخوات والأم عن عائلهنَّ، حتى وإن كان مجرمًا.. أخرجَ من جيبه حينها هاتفه المحمول وفتح صورة

لجاسر عبد الرسول وأشار لموهبة:

- هل تعرف ذلك الشخص؟

اقترب منه بحذر متوترًا ناظرًا بتلك الصورة:

- لا، لم أرَه من قبل.

- ما علاقتك بمقهى الهرم للإنترنت؟

- مصدر رزقي يا باشا.. أعمل فيه من الصباح الباكر حتى الواحدة مساء.

- هل تعرف كل رُواده؟

- مُحال يا باشا.. المنطقة سياحية ويتغير رُوادها من الحين للآخر، ولن أسأل - سعادتك -

كل الزبائن عن أسمائهم وعن هويتهم.

- هل هناك كاميرات مراقبة بالمكان؟

- لا.

- هناك مقاطع جنسية رُفعت منه اليوم صباحًا.

- والله يا باشا أنا مخطئ وأعترف بذلك لأنني لا أراقب زبائني، وأقضي أغلب الوقت جالسًا أمام النادي مع أصدقائي، ولكن أعِدُك من اليوم

سأمارس عملي على أكمل وجهٍ والكعبة الشريفة، وأرجوك لا تخبر صاحب المقهى حتى لا يطردني.. أرجوك يا باشا.

- ولماذا هربتَ إذًا؟

- لأنني هارب من التجنيد جنابك.

- هارب من التجنيد.

تنهد الغندور ممسكًا بجهازه اللاسلكي ناظرًا إليه.

- ما عنوان هذا البيت؟

طلب الغندور من ماهر تفتيش مقهى الإنترنت بعناية، وكذلك تفتيش بيت المدعو موهبة، ولم تعثر قواته على أي شيء.. خابت مساعيه.. إنه حقًّا يُجابه شخصًا ذكيًّا يدرس خطواته جيدًا،.. وكما توقَّع.. إن لم توجه لهؤلاء تُهمة قتل حبيبة كما يريد مُرسل تلك المقاطع سيرفعها بنفسه على شبكة الإنترنت.. ولن يستطع أحد السيطرة على هذه المقاطع الجنسية بعد الآن.. ومؤكد أن من قام بذلك هنا يد خفية له.. تأكد أن القضية مُتشعبة ولها أطراف عِدة.. أولها أولئك المفضوحون.. ساعات على الأكثر وتصبح فضائحهم على كل الموائد.. ولكن هذا لا يشغل بال الغندور، فمن يرتكب الإثم يتحمل توابعه.. ويعرف جيدًا أنهم سيفرون خارج البلاد اليوم قبل الغد.. كل ما يشغله هو ذلك الجاني الطليق كالأخطبوط.

- أوامر جنابك؟

سأله ماهر بذلك البيت المتهالك بعد انتهاء التفتيش بنتيجته السلبية.. نظر الغندور إلى موهبة وأسرته:

- اتركوه

- أوامرك.

وانصرفت القوات وامتلأت عيونهن بالفرحة العارمة.. اقترب موهبة من الغندور مُحاولًا تقبيل يدَه:

- لن أنسى لك هذا الجميل مُطلقًا يا باشا.

- لا تبقَ هاربا هكذا.. تقدَّم بأوراق تفيد بأنك عائلهم الوحيد ولا تَخَفْ.. سأساعدك.

أخرج حينها مبلغًا ماليًا من جيبه و«كارتًا» به رقم هاتفه الشخصي وناولهما إياه.

-اتصل بي.

حاول تقبيل يده مرة أخرى.. وانطلقت ألسنتهن بالزغاريد.

ابتسم لهنَّ الغندور وانصرف.. فعلى الرغم من شدته وصرامته المعروفة ورغبته المُلحَّة بسريان العدل والقانون فإنه المعتنق الأول لروح القانون..

هكذا يكون ضابط الشرطة.. مثالًا يُحتذى به.. يكفيه تلك النظرة بعيون هؤلاء المساكين قليلي الحيلة.. نظرة عرفان بالجميل وفرح لا مثيل له.

استراحة جبرية بالسباق يسترد فيها الغندور طاقته ليكمل المسيرة فطريق الحق شاقٌّ وشائك وعاجلًا أم آجلًا ستتكشف الحقائق وينال المجرم عِقابه.. تلك معتقداته الراسخة التي لا تتزعزع.

بينما كنتُ أنا بطريقي بنفس السباق أحملُ كارثة لا أعرف كيف أتخلَّص منها.. الوقت يمرُّ سريعًا ولا فرار.. أقسمتُ على محو الخطايا وتلك الخطيئة الأولى تُحيرني.. لو أنني سلّمت تلك القنبلة للشرطة سيعتقلونني، ولن أستطيع إكمال مهمتي فتحقيقهم معي سيُدين صاحب الجسد تمامًا، أو سيعدمونني أو سيقتلني مدبر هذه العملية الإرهابية.. وإن كنتُ حتى الآن لا أعرف كيفية التنقُّل بين أجساد الخطائين.. ولكنني لا أضمن خروج روحي لجسد آخر أو لمنتظر الجحيم مُعلنةً فشلي بفرصتنا الوحيدة بالنجاة من الجحيم.. وقد يكون هناك بديل آخر لجبران يُراقبني خفية ويستعد إن فشلت العملية للتدخل وقتلي ويُكملها هو.. حيرة لا نظير لها.. كنتُ كالأعمى دون عصاه.. غارق ببحر من الظلام أبحث فيه عن أي بصيص من الضوء ليثبت لي أنني ما زلتُ أُبصرُ ولا فائدة.. تحركتُ بالسيارة ربع النقل بعيدًا عن البوابة لداخل المصنع الكبير الممتلئ بالعمال.. كنتُ مشفقًا عليهم، فإن وضعتها بأي

مكان بأطراف المصنع سيكون هناك ضحايا بلا شكٍّ.. خفتُ من أن يُفتضح أمري لكثرة ذهابي وإيابي بتلك السيارة.. .. حملتُ الصندوق واختبأتُ بدورة المياه الرئيسية بمنتصف المصنع.. فكرتُ كثيرًا ناظرًا لعدادها المُعلن عن قرب انفجارها.. خطرتُ لي فكرة.. يمكنني تسلُّق أيٍّ من أسوار ذلك المصنع أو البحث عن مخرج آخر بعيد عن عيون الشرطة.. أخرجتُها بحذرٍ شديد، ولففتُها حول خصري بلاصق الصناديق الثلاثة.. حولتها لحبل متين يحاوطها من أعلاها وأسفلها تحت ملابسي.. كنتُ خائفًا من قوات الشرطة المنتشرة بالمصنع تؤمِّن كل شبرٍ فيه بحرفية شديدة.. وكأننا قطٌّ وفأر لا يجوز مقابلتنا وجهًا لوجه تحت أي ظرف.. بهذه الطريقة سأتحركُ بحرية أكثر وعلى خصري جحيمٌ من نوع خاصٍّ.. قد يحوِّلني لأشلاء مُشتعلة بأي لحظة.. محاولات عدة للفرار والعدو بحذر بين جنبات المصنع باحثًا عن أي منفذٍ للفرار وإنقاذ الأرواح تلك من الموت دون جدوى.. كل الأسوار بجوارها عمال سيعوقون تسلقي.. وجميع المخارج مُؤمَّنة.. لا منفذ ولا مخرج لي.. نظرت بساعة يد الأخ الأصغر بيدي.. إنها تقترب من الثانية ظهرًا.. مرَّ الوقت سريعًا.. واقتربت ساعة الصفر.. ووصل موكب السفير الأمريكي ورجال حراسته بسيارة دبلوماسية فارهة.. وكان بعض رجال الأعمال بشرف استقباله.. يبدو أنهم مالكو هذا المصنع الضخم.. تصفيق حاد

مصطنع من العمال.. وبدأ السفير بزيارة كل شبر بالمصنع.. متنقلين بسيارات صغيرة تسمح لهم بتغطية تلك المساحة الكبيرة للمصنع.. وبعض المهندسين يصاحبونه بموكب حافل، وبعض وسائل الإعلام حولهم.. حاولتُ البقاء بعيدًا عن تجمُّعهم قدر الإمكان مُختبئًا حتى لا يظهر وجهي بكاميراتهم.. أو بالأحرى وجه سيد جبران... العجيب أنه لم يوقفني أحد العمال لسؤالي عن شخصيتي طوال تلك المدة.. ربما ذلك بسبب حداثة ذلك الكيان الصناعي.. كنتُ مضطربًا للغاية.. لا وقت لديَّ.. صوت عدادها يصم أذنيَّ على الرغم من الصوت العالي لماكينات المصنع.. أقلُّ من ثلاث دقائق وأُصبح في عِداد الأموات مرة أخرى.. تبًّا لذلك! لن أسمح بالفشل يتسرب لنفسي.. عدوتُ بعيدًا ناحية السيارة ربع النقل.. جلستُ بها حائرًا لا أجد مفرًّا لتلك الأزمة الشنيعة.. هل أصرخُ بالجميع أن هناك قنبلة وأتركها وأجري؟ هل أنطلقُ بالسيارة مخترقًا الحاجز الأمني للخارج؟ هل أقِفُ بمكاني ها هنا مستسلمًا لفشلي؟ الدقائق تمرُّ.. وموكب السفير يقترب.. أقل من دقيقة وينتهي الأمر.. سقطت عيناي حينها على طوقٍ مُحتمل للنجاة.. غطاء حديدي قريب فوق الأرض يبدو أنه موصل بشبكة المجاري تحت المصنع.. حل عبقري.. هُرعت ناحيته وحاولت إزاحته بكل طاقتي.. كان ثقيلًا للغاية، ولكن عزيمتي هزمته.. ونجحت بإزاحته باللحظات الأخيرة.. بئر عميقة مظلمة.. كانت السيارة بجواري أختبئُ بها عن العيون.. خلعت ذلك الحزام المتفجر عن

وسطي وألقيتُه باللحظة الأخيرة بتلك البئر.. إنهم يقتربون.. وكأن الزمن يُبارزني بسيف حادٍّ.. وانفجرت بعد عدة ثوانٍ مُحدثة دوِّيًا عظيمًا، وطِرْتُ أنا بالهواء مع تلك السيارة.. كنتُ فرحًا بتلك اللحظة.. وكأنني أنتصر بالجولة الأولى.. تمنيتُ أن أنجحُ في إنقاذهم حقًّا، وسقطتُ فاقدًا للوعي تمامًا.. غارقًا بدوامات من الضباب الممتزج بالسواد المهاجم لعيني قبل إغماءتي تلك بلحظات معدودة.. وتحوَّل المكان لموقعٍ جريمة جديدة اهتزت لها جميع الأوساط المجتمعية، وامتلأت شاشات القنوات الإخبارية العربية والعالمية بالأخبار.

«انفجار قنبلة محلية الصنع واسعة المدي بمصنع الحديد والصلب الجديد بأكتوبر بحضور السفير الأمريكي».

«محاولة اغتيال السفير الأمريكي بمصر».

«حالة من الفزع بالشارع المصري ومواطن: نشعر بالخوف على أولادنا».

«هل أصبحت مصر مرتعًا للإرهاب؟»

«الرئيس الأمريكي يعرض المساعدة على لنظيره المصري للحفاظ على أمن مصر واستقرارها».

وانتقلت قوات الشرطة لمكان الحادثة التي لم تُسفر عن أي جرحى، ولا تلفيات تُذكر سوى تلك السيارة التي تطايرت بفعل الانفجار.. تحقيق شامل وسريع لمعرفة كيفية دخول تلك القنبلة للمصنع، وإحالة الضباط المسئولين عن تأمين زيارة السفير للتحقيق.. ولم يُعثر لي على أي أثر أو بالأحرى لسيد جبران وكأننا والعدم سواء.

وقف محمود غندور وسط قوة الشرطة وقيادات عدة بمكان الانفجار شاردًا.. فعلى الرغم من أهمية تلك القضية ومساسها بالأمن الوطني للدولة، ولكنه يفكر بالقضية الأخرى التي تشغل باله ليلًا نهارًا.. لم يدرك حينها أن القضيتين متصلتان بعضهما ببعض.. هُرع ماهر تجاهه ليُلقي بوجهه قنبلة جديدة:

- سيادة المقدم.. مفاجأتان غير متوقعتين.

- خيرًا.

- وجدنا بدوره المياه هذه الملابس.

كان بيده حقيبة بلاستيكية بها قميص وبنطال.. نظر إليه الغندور منتظرًا مفاجأتيه.

- وكان بصحبتها هاتف محمول كشفنا على صاحبه. مسجل باسم جاسر عبد الرسول متولي..

برقت عينا الغندور هامسًا:

- جاسر عبد الرسول! والمفاجأة الثانية؟

- التحريات عن قتيلة الفجر فاطمة عز العرب.

فاطمة عز العرب سعدون لبنانية الجنسية وحيدة ولم تتزوج، ماتت بحادثة سير منذ ثلاثة أعوام.

- ماذا؟

- هذه القتيلة انتحلت شخصيتها ودخلت البلد باسمها.

- ومَن تكون هذه إذًا؟

- أأنت مستعد للمفاجأة، سيادة المقدم؟

- انطقْ يا ماهر.

- اسمها الحقيقي مريم شاؤول، مراسلة بالقناة الأولى بالتلفاز الإسرائيلي. استطاعت تحرياتنا التوصُّل لشخصيتها الحقيقية سريعًا.

تداعت كل الأحداث على رأس الغندور، وكاد يفقد صوابه مشدوهًا.

- إسرائيل!

***

النبشة الثامنة: جزيرة الدم

فتحتُ عينيَّ مُتألمًا.. أنفاسي المُختنقة تنذر بموتٍ مُحقَّق.. كنت مُعلقًا ببحر من الدماء ساكنًا لا أتحرك.. جثث لا حصر لها حولي تذوب ويزداد الدماء، ووجوه شاخصة الأبصار تتآكل.. وكأنني ما زالت بتلك الغرفة الزجاجية بمنتظر الجحيم.. دماء متجلطة مختلطة رائحتها تجزع لها الأنفس.. صارعت بكلتا يديَّ مُحاولًا التَّشبُّثَ بالحياة كاتمًا أنفاسي.. فأنا الوحيد الذي لا أتحلل بهذا البحر الكبريتي.. صرخاتي لا يسمعها أحد.. ذُعر منقطع النظير.. أشلاء متعددة تهاجمني وأنا لا أفهم أي شيء مما يحدث لي.. أصوات تصم أذنيَّ، وتزيد من رجفاتي.. صرخات ممتزجة تخلع القلوب لملايين البشر.. هل عدتُ للجحيم مرة أخرى؟ هل فشلتُ في إصلاح خطايا الآخرين من أول محاولة؟

شيءٌ ما يجذبني للأعلى مخترقًا أشلاءهم.. حاولت بكل ما لديَّ من قوةٍ الفِرار.. لعل هناك منجًى من العذاب.. صرخت بصوتٍ مكتوم:

- أريدُ فرصة أخرى.. لقد منعت التفجير وطلبت من أخيه التخلُّص من المال الحرام. ليس بوسعي أكثر من ذلك.. النجددددددددددة.

وبلحظة طفوتُ على السطح.. نسماتُ الهواء البارد تقتحم رئتيَّ بعد عناء.. كأرض جرداء تلتهم قطرات المطر بعد طول جفاف.. التقطت أنفاسي ناظرًا حولي.. بحر شاسع لا نهاية له على مدى البصر.. جثث حولي بكل مكان تطفو على سطحه، وأشلاؤها ممتزجة بدمائهم.. صرخات مجهولة المصدر تزداد.. سماء ملبدة بغيوم محتقنة ونهار مُعتم لا شمس له ولا ضياء.. وكأنه ليل بغير موعده.. عاودت الصراخ بأعلى صوتي:

- النجدة.. النجددددددددة.

سالت دموعي أنهارًا، ورجفاتي لا تنقطع بل تزداد.

لمحتُ بعيني على مدى البصر أرضًا عالية أخفتها الغيومُ الضبابية.. رَقَصَ قلبي بين ضلوعي.. سأنجو.. ضربتُ بيديي تلك الأمواج العاتية الحاملة لبقايا بشرٍ لا حصر لهم.. شربت دماءهم رغمًا عني بطريقي للنجاة.. كلما اقتربتُ من تلك الأرض ظهرت ملامحها أكثر وأكثر وتيقنتُ أنها حقيقية.. إنها جزيرة عالية ممتلئة الأشجار المنزوعة أوراقها.. خرجتُ على شاطئها مُرتميًا على رمالها السوداء سعيدًا بالنجاة.. ما زالت أصوات الصرخات مستمرة، ولكن هناك أصواتٌ أخرى تتداخل معها.. لم تكن هذه الجزيرة خاوية من الناس فقد لمحت العديد منهم وأنا أقترب.. أصوات ضحكات خليعة وطبول وتواشيح دينية وموسيقا راقصة تتمازج بنشازٍ عجيب مع

الصرخات.. وقفتُ على قدميَّ وبحر الدماء خلفي ناظرًا للجزيرة.. عجبًا لما أرى.. ترجلتُ أكثر على تلك الأرض السوداء.. أعداد غفيرة من البشر في تجمُّعات منفصلة وكأنهم لا يرون بعضهم البعض.. كلٌّ منشغل بحاله.. بعضهم يتراقَصُ على طبول بإيقاعٍ واحدٍ رجالًا ونساء، كأولئك الأفارقة بحفلات زواجهم.. حُفاة عراة لا يكسو أجسادهم شيءٌ.. مختلفو الأعمار، حتى إنني رأيت بينهم أطفالًا تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة تقريبًا.. والعجائز متهدلو الأثداء ورجالهم الراقصون بصعوبةٍ.. يتمايلون بأردافهم العارية.. لم يكن ذلك ما يثير الدهشة فقط.. كلا، هناك المزيد والمزيد، كلما اخترقت أرض تلك الجزيرة.. على أحد جوانبها أعلام سوداء ترفرف وتحتها رجال يتمايلون برؤوسهم على تواشيح دينية.. رجال كثيفو اللحى، ونساء منقبات بالسواد تشاركهم.. وكأنهم لا يرون أيًا من العراة، ولا يسمعون طبولهم.. ويصيحون دون توقُّفٍ:

- الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

وبجانب آخر هناك رجال تدقُّ الدفوف بإيقاع أشبه بزارٍ، ونساء يرتدين جلاليب فضفاضة يتمايلن ويصرخن، وآخرون يقذفون عليهن الدماء، ورجل كحيل العينين يصرخ بهنَّ:

- أقسمتُ عليكِ يا عاينة يا بنت إبليس بحقِّ الاسم الذي نزل على الصخرة ففتتها، وعلى الليل فأظلم، وعلى النهار فأضاء.. بحق "بعلسلطيل بالعلا بكهو شل بظلمغش بروفيروش بستطقوعن دكلبش عيلوش"، أجيبيني أيتها الملكة عاينة.. أجيبيني.. أجيبيني.

وهناك بالقرب منهم جانب تُمارس فيه كل ألوان المتعة الحرام.. بقسمين منفصلين.. بأحدها نساء متغنِّجات لا يسترهن الا القليل.. وبالقسم الآخر رأيتُ ما لا تحتمله الأنفس.. شيء مثير للغثيان والقيء.. رجال كالنساء في أفعالهن.

كنتُ مذهولًا، لا أفهم ما أراه.. أهذه هي الدنيا التي أريد العودة إليها.. أهذه من أحارب من أجلها؟ دعارة ولواط وعراة وشيوخ يحملون الرايات السود كعرائس الماريونت، لا فائدة منهم ولا رجاء.. فقط يتمايلون برؤوسهم ويطلقون اللحى، ولا تمتدُّ أياديهم لإصلاح أي شيء.. وهناك الأعجب من ذلك.. مجموعة أخرى تقف بأحد الجوانب حول منضدة مستطيلة كبيرة الحجم يأكلون.. للوهلة الأولى لا تدرك ما يأكلونه.. ولكنك حينما تُدقِّق النظر تتمنى أن تصاب بالعمى بهذه اللحظة.. إنهم يأكلون أناس أحياء، مقيدين، مُعذبين، صارخين، ممتدين على منضدتهم.. منهم من يهوي ببلطته الحادة على أجساد الآخرين، ومنهم من ينهمك بالأكل فقط.. وهناك من

فارق- من هؤلاء الصارخين -الحياة واللذة بآكليهم تثير الرهبة، وكأنهم يتناولون أشهى طعام على الأرض.. الآن أصبحت بمنتصف ساحتهم.. أرى الجميع بوضوح شديد.. هناك بعض من أصحاب اللحى يتحركون بين المجموعات الأخرى وكأنهم يحرسونهم.. بعضهم يحمل بيده شيء ما.. تبًّا لذلك! إنها قنابل مماثلة لتلك التي ألقيتُها ببئر شبكة المجاري بالمصنع.. يثبتونها بكل مكان.. هكذا يرون طريقة الإصلاح.. الموت لا النصيحة.. القتل لا الهداية.. ما زلتُ أبكي دون توقف.. وما زالت صيحاتهم تتصارع من باقي الأصوات

- الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

.. كانت الساحة كبيرة دائرية متسعة محاطة بالأشجار من كل جانب تمنع رؤية ما خلفها، وكأنها تُحوِّط عليهم، لا يراهم إلا من يدخل من تجاهي.. والغريب أن هناك مرايا ضخمة أمام تلك الأشجار بكل مكان تُعطي المكان اتساعًا شاسعًا لا نهاية له.. اقتربت من أحد الجوانب مخترقًا زحامهم بين صرخاتهم وآهاتهم الجنسية.. نظرت لنفسي بالمرآة.. كنت أنا.. يحيى عبد النور بركات.. أنا دون غيري.. لم أكن بجسد آخرين.. لم أكفّ عن البكاء.. صرختُ ناظرًا للسماء:

- ياررررررررررررررب.. ارجعني لدنيا غير هذه.. يارررررررررب.

صوت رخيم يتردد بالمكان كصدى صوت يتكرر:

- محكمة.

نظرتُ خلفي أبحثُ عن مصدره بكل مكان.. فجأة رأيتُ مِنصة عالية ظهر عليها رجلٌ يرتدي البياض.. النظر بوجهه يشعرني بالطمأنينة عكس كل من بهذا المكان.. لم يكفّ الجميع عن صرخاتهم وآهاتهم وطقوسهم اللعينة، ولكنني خِفتُ صوتهم.. صوت ذلك الرجل فقط هو الظاهر الواضح.. اقتربت ناحية منصته وهو ينظر لي:

- أنت يحيى عبد النور بركات؟

- نعم يا سيدي.

- أنت محاميهم إذًا ومنقذهم؟

- محامي مَن ومُنقذ مَن؟

نَظَرَ إلى رجل آخر كان يقف بجواره آمرًا إياه:

- نادِ الخطائين.

هَمَّ الرجل يقرأ بورقة بيده كبيرة تصل للأرض:

- الخطاء الأول، ضاحي سلطان.

الخطاء الثاني، مارك حبيب.

الخطاء الثالث، مازن سعد.

الخطاء الرابع، شوربجي نعيم.

الخطاء الخامس..

قاطعه الرجل ذو الثياب البيضاء:

- فليكفِ هؤلاء هذا الحين.. هل حضر الخطاؤون المذكورون؟

- نعم يا سيدي.

- لنستمع لخطاياهم أولًا.

نظرتُ على جمع الناس فوجدتُ ثلاثة رجال أعمارهم متفاوتة وشابًّا في العشرين من عمره.. كل يقف بأحد الجوانب وسط مجموعته من الناس التي تمارس طقوسها دون توقف.. عرفتهم لوقوفهم مبرقي الأعين مخالفين أفعال أقرانهم.. بدا الأمر يتضح لي رُويدًا رُويدًا.. هؤلاء هم منْ سأُطالب بإصلاح خطاياهم حتى تزول تلك اللعنة.. هذا ما فهمتُه للتو.. تقدَّم أحدُهم.. كنتُ أراه جيدًا، إنه ذلك الرجل كحيل العينين الناطق بتعاويذ سحرية وكلام لم أفهمه متوسطًا هؤلاء النساء الصارخات الملطخات بدماء تُلقى عليهنَّ باستمرار.

- مولاي.. أنا ضاحي سلطان.. صعيدي من جنوب مصر، قضيتُ حياتي كلها أُمارِسُ السحر والدجل كوالدي.. علمني كل شيء، نَبْش القبور والبحَثَ عن الآثار الدفينة، وتسخير الرصد من الجن، أعمال سُفلية وتفرقة بين الأحباب.. أعمال تجلب الموت والفقر، وَرِثْتُ منه الكثير وورثت من أخي الأصغر الكثير، مئاتُ المُضارين أحمل أوزارهم، وكتاب مقدس مزقتُ أوراقه وأحرقتُها إرضاء للشيطان.. أحرقتُ القرآن بكلتي يديَّ.. والآن ندمتُ على أفعالي.. فهل من مَفرٍّ؟ هل مِن مَفرٍّ؟

تقدَّم رجل آخر وشرع بكلامه هو الآخر متوسطًا آكلي لحوم البشر:

- مولاي.. أنا مارك حبيب.. كنتُ عاطلًا وحيدًا ببيت العائلة القديم، عازبًا بالرغم من اقتراب عمري من الأربعين، ولطالما بحثتُ عن عمل مُجزٍ دون جدوى، وبإحدى الليالي كنتُ أعبثُ بشبكة الإنترنت على المواقع الخفية المسماة بـ«Deep web»، مواقع عجيبة، ومنها لم يخطر لي على بال.. تجارة مخدرات، وقتل بأجر، ودعارة، وشذوذ، وكل ما تتخيل.. ولكن ما أثار فضولي حينها شركة تطلب موتى حديثي الوفاة بجميع أنحاء العالم لاستغلال أعضائهم بعمليات جراحية، ولطلبة كلية الطب للدراسة.. وبمرتب مُجزٍ للغاية، وفي سرية تامة.. لأول مرة حينها أدركتُ أن للموت سعرًا لا يُقاوَم.. الجثة بثلاثة آلاف دولار.

حينها لم أتردد، وأصبحتُ نبّاشًا للقبور، باحثًا عن جثث طازجة.. نباش بدرجة بكالوريوس تجارة.. وكانوا يعملون بحرفية شديدة، فكل ما كنتُ أفعله هو تغليف الجثة بعد تقطيعها بطريقة علموني إياها، وهناك من يأتي ليستلمها مني بفيلا استأجروها لي بمكان هادئ، وأهدوني سيارة تحت أمري بأي وقت.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد.. فبعد فترةٍ عرفت أن مِن زبائن تلك الشركة مَن يأكلون تلك الجثث.. وأنها شركة بالأساس لبيع لحوم البشر.. إغراء المال حينها جعلني أغضُّ بصري وعقلي عن تلك الحقيقة، وأكملتُ ذلك الدرب طمعًا بالمال، وزادتْ طلباتُهم وأموالهم، وازدادت أطماعي ونهمي للمال.. فانتقلتُ لمرحلةٍ أشد إجرامًا.. التخطيط لخطف أناسٍ وقتلهم لتحقيق الرقم المطلوب مني شهريًّا من الجثث الطازجة للحفاظ على تلك الوظيفة.. والآن ندمتُ على أفعالي.. فهل مِن مُنقذٍ؟ هل مِن مَفرٍّ وتوبة؟

تقدَّم الرجل الثالث متوسطًا أولئك الفاسقين رجالًا ونساء:

- مولاي.. أنا شوربجي نعيم.. قواد لعين.. أتاجر بلحم البغايا.. أنادي على راغبي المتعة وأستقطبهم من كل مكان.. ربحتُ أموالًا طائلة من وراء تلك التجارة.. مئات البنات والسيدات أغريتهنَّ بالمال واستجبن لي.. كنتُ لهن شيطانًا رجيمًا.. ولم أكتفِ بذلك، بل علَّمتُ غيري، وأصبحتُ القواد

الأعظم صاحب مدرسة تخرج منها العشرات يحملون راياتي.. والآن ندمتُ على أفعالي.. فهل من مفرٍّ وتوبة؟

وأخيرًا تقدم الشاب العشريني متوسطًا هؤلاء الشواذ

تحدَّث بصوت رقيقٍ أشبه بصوت النساء:

- مولاي.. أنا مازن سعد.. دخلت ذلك العالم البغيض فضولًا للتجربة.. جذبتني تلك المواقع الجنسية العديدة على شبكة الإنترنت، وقررتُ التجربة ولو مرة واحدة، وأحببتُ تلك الممارسات منذ الوهلة الأولى، أخفيتُ تلك الميول عن عائلتي كثيرًا حتى اكتُشف أمري لتهربي من كشف التجنيد، حينها تركتُ البيت، وذهبتُ للعيش مع مجموعة تُسمي نفسها دعاة المثلية الجدد، وأصبحتُ واحدًا منهم، وكانت مهمتنا هي ضَمَّ مثليين جُددًا لنا والحديث عن مزايا تلك الممارسة. ضممتُ المئات، وكلٌّ منهم بدوره ضمَّ غيره.. والآن ندمتُ على أفعالي.. فهل مِن مَفرٍّ وتوبةٍ؟

كنت صامتًا لا أجد كلماتٍ تعبر عما بداخلي من ثورة وغضب وحيرة وغثيان واشمئزاز ورهبة وخوف.. مشاعر متضاربة.. أهؤلاء من سأصلح خطاياهم؟ ساحر، وتاجر بلحوم البشر، وقَوَّاد وشاذ، وقبلها قاتل بأجر.. وإن كنت أصلحت جزءًا من خطايا الأول فهؤلاء يستحيلُ إصلاحُ

خطاياهم.. ما أبشع أن ترهن حياتك بخطايا كالجبال العالية لا ترى قمتها.. بدنيًا يحكمها الشيطان ويعتلي رُوادها! أدركتُ وقتها معنى تلك اللافتة في كابوسي الأول.

«إبليس يرحب بكم»، فالكل هنا يركع بمحرابه غافلين.. لعنة متوارثة ليس فقط منذ زمن الساحر الملعون ولكن منذ قديم الأزل.. منذ تلك اللحظة التي رفض فيها إبليس السجود لآدم.. ملأه الكِبر وتحدَّى الله جَلَّ جلاله.. تلك هي اللعنة الحقيقية.. أصل اللعنات جميعها.. ولكن لماذا لا يُعلن الشيطان توبته وينتهي كل شيء.. ألم يفكر بلحظةٍ أن يستغفر ويعود لعهده القديم عابدًا شاكرًا لله؟ وهل تُقبل توبته بعد أن أغوى مليارات البشر؟ لقد أصبحت لعنته منهجًا وشريعة.. كعبة من جحيم يطوف حولها الناس مُقدِّمين كل قربانٍ ممكن للتقرب أكثر وأكثر.. فإن كان هناك شيطان أكبر فهناك شياطين كُثر، إنسٌ وجانٌّ لا حصر لهم.. أُغلقت كل سبل التوبة.. أُعلنت قيامة الشيطان منذ ذلك الحين.. زاد خوفي من نفس المصير.. ومن أنا لأمحو تلك اللعنة؟ أنا لستُ بقديس وإن كنتُ، فكيف لقديس أن يحيى بدنيا العُهر مذهبها؟ امتزجت الأصوات حولي بدقات قلبي المتعالية.. نظر ناحيتي الرجل ذو الثياب البيضاء مشفقًا عليَّ..

- وهناك المزيد من هؤلاء الخطائين يا يحيى.. فهل ستستطيع محو تلك اللعنة؟

- أنا لستُ مهديًّا مُنتظَرًا.. لستُ مهديًّا مُنتظَرًا.

بهذه اللحظة حدث انفجار ضخم هَزَّ الجزيرة بأكملها وتطايرت أشلاء من عليها بوجهي وتطايرتُ معهم بجسدي كاملًا.. غبار ودماء ودخان بكل مكان.. وأشجار تتهاوى وتُظهر ما خلفها.. شيء لا يُصدقه عاقل.. رجل ضخم الجثة طوله يقترب من الخمسة أمتار مُكبَّلًا بالأغلال من يديه إلى عنقه، وما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد على كرسي ضخم خلف تلك الأشجار.. رأيتُ ذلك الغراب الأبقع يقف على كتفه اليسرى، وينظر تجاهي وكأنه يترقَّب موتي.. إنه نفس الغراب بكابوسي الأول الذي فقأ عيني.. هل ذلك الرجل هو الساحر اللَّعين صاحب تلك اللعنة قديمة الأزل أم أنه رجلٌ آخر؟ نَظَرَ ناحيتي ذلك الرجل الضخم بعيني عن بُعد قبل أن أفْقِدَ وعيي بلحظةٍ واحدة، وصوتُه ينتزع القلوب هلعًا:

- واقترب خروجي.. يوشك العالم على استقبالي.

***

النبشة التاسعة: عثمان السقا

(العاشر من يناير – العاشرة مساء)

جلسَ محمود غندور بمكتبه صامتًا يفكر بكلٍّ شيءٍ.. يُراجع كل تقارير التحريات.. طوال ذلك اليوم وهو يُرتب أحداث الأيام الماضية مُحاولًا فكَّ ألغاز هذه الجرائم المتتالية.. ما زال لديه شعورٌ عجيب بأن الأسوأ لم يأتِ بعد، وأن هناك كارثة على وشك الحدوث.. انقلبت وزارة الداخلية رأسًا على عقب، وعُقد اجتماع عاجل مع السيد الوزير حَضَرَه الغندور بصفته الضابط المُحقِّق بقضية القتل المتهم بها جاسر عبد الرسول المُنفذ لعملية محاولة اغتيال السفير الأمريكي.. كان من السهل عليهم الربط بين ملابسه وهاتفه الموجودين بالقرب من موقع الانفجار بدورة المياه الخارجية.. الغريب أن سِجِلَّ مكالمات رقم هذا الهاتف فارغٌ تمامًا منذ شرائه باسم المجرم جاسر ما عدا مكالمة واحدة استقبلها اليوم من رقم مجهول كشفوا عن مصدره لتظهر مفاجأة جديدة.. الرقم المتصل مُسجَّل باسم فاطمة عز العرب، وتم شراؤه منذ يوم واحد.. فسَّر الغندور ذلك بأن قاتل هذه الإسرائيلية المتحلة لشخصية تلك الناشرة العربية سرق هاتفها بعد قتلها.. وان هذا القاتل على صلة وثيقة بجاسر عبد الرسول.. غموض مُتخطٍ كل الحدود الممكنة..

كان النقيب ماهر جالسًا لأكثر من ساعة أمام الغندور يفكر هو الآخر دون جدوى.. أشعل سيجارته الخامسة عشرة بهذه الساعة ونظر للغندور قاطعًا شروده:

- يبدو أننا نحتاج لقسطٍ من الراحة يا سيادة المقدم. الأمر ليس هينًا ويحتاج إلى صفاء ذهني.. فلنعُدْ لبيوتنا.

نهض الغندور مُترجلًا في مكتبه شاردًا.

- فيلم سينمائي بارع الإخراج.. يصنع لقطاته شخصٌ خفيٌّ بنجاح منقطع النظير.. غموض وإثارة لا مثيل لهما.. وبنهاية الفيلم تكمنُ المفاجأة.. كارثة غير مُحتمَلة ولا تتصورها عقولنا جميعًا.

- أي كارثة؟

اتَّجه ناحيته، وجلس بالكرسي المواجه له مُمسكًا ورقة فوق مكتبه وقلمًا ليشرح بهما ما يدور بباله:

- ماذا لو كنتَ مؤلفًا دراميًّا يؤلف ذلك الفيلم، عليك تجهيز خريطة لأحداثك لا يعرفها غيرُك، جرائم تصاعدية لها قطبان أساسيان.. البهلوان القاتل أحدهما، والآخر هو جاسر عبد الرسول، البهلوان شخصية خفيَّة تقصد تضليلنا.. ما جرائمه حتى الآن؟ أولًا قتل حبيبة مع سبق الإصرار

والترصُّد بطريقة استعراضية قد يقصد بها الانتقام والتشفي مثلًا، وقد يقصد بها شيئًا آخر لم نفكر به من قبل.

- أي شيء؟

- هناك جملة قالها بعرضه المباشر في أثناء ذبحها تتردد على مسامعي الآن.

نهض من مكانه وكأنه يُقلِّده بطريقته:

- قرّب.. قرّب.. قرّب.. قرّب.. هنا المتعة.. هنا الحق.. هنا الدم.. هنا يموت العهر.. هنا أنا.. بهلوان قاتل.. وحش كاسر، فاحذر ولا تقربني إلا بحساب وإلا...

- تحذير لشخص ما.. تحذير بلون الدم.. كما قلت لك من قبل، الصراع على شيء بداخل تلك الخزينة المسروقة التي ظهر لنا منها تلك الأسطوانات الجنسية التي أرسلها إلينا البهلوان أو لنقل الطرف المُحرِّك للبهلوان.

- تحذير؟

- وإذا انتقلنا للقطب الآخر.. جاسر عبد الرسول وجرائمه، وافترضنا وجوده بمكان جريمة النجمة حبيبة ليحصل على تلك الخزينة وفشل، ثم مراقبته للروائي يعقوب إدريس وبعدها خطف حبيبته اليهودية الإيطالية، وظهور سيدة إسرائيلية تدخل مصر منتحلة شخصية لبنانية وتقابل يعقوب

بنفس اليوم، وتُقتل بعدها بظروف غامضة، وإن راجعت تاريخ جاسر عبد الرسول تجده قدَّم أوراقه بالسفارة الإسرائيلية منذ فترة بعيدة، واختفى بعدها، ثم محاولة فاشلة لاغتيال السفير الأمريكي.. أو لنقل فشل مقصود.

- مقصود؟

- نعم.. القنبلة تم تثبيتها ببئر المجاري ليحدث الانفجار رهبةً وذعرًا فقط، كان من السهل عليه طالما اخترق الأمن هكذا أن يثبتها بمكان ظاهر ليحدث وفياتٍ أو يستهدف السفير شخصيًّا.

- وما معنى ذلك؟

- تشهير.. رسالة بعدم الأمان بالبلد ليس إلا.

- كل هذه الافتراضات جنابك تُحوِّل القضية برمتها لقضيةٍ سياسية.

- ولكنها ما زالت مجرد افتراضات.. حتى السيد وزير الداخلية ومدير الأمن يساورهما الشك، ولكن دون دليل واضح.

- لا أستطيع الربط بين كل تلك الجرائم

- سأعيدُها عليك بشكل آخر.. إسرائيل تريد شيئًا من يعقوب إدريس، هذا الشيء جعل جاسر عبد الرسول يخطف حبيبته ليهدده به، وهذا الشيء

مُرتبط بشكل ما بجريمة الشروع باغتيال السفير الأمريكي، وقد يكون هناك جرائم أخرى من نفس النوع ستحدث قريبًا، وببعض التركيز ترى شخصًا آخر خفيًّا يتصارع مع هذه الجبهة، فيقتل الإسرائيلية ويفضح بعض السياسيين وعِلية القوم بأسطوانات جنسية، ألا وهو البهلوان القاتل ومَن وراءه.

- ولكن إن كان ذلك صحيحًا، فلماذا قاتِلُ الإسرائيلية يتصل بجاسر عبد الرسول قبل تنفيذ عملية السفير الأمريكي؟

- يا عزيزي ماهر.. هي مكالمة واحدة فقط بتاريخ ذلك الرقم، فمنذ شرائه منذ ٣ شهور، لم يُجرِ منه مكالمة واحدة أو يستقبل غيرها، هذا معناه أن ذلك الخط ليس له، وإنما تم شراؤه خصيصى لتركه بمكان الحادثة لتوريطه.. قد يكون هناك شخص آخر كان يُراقبه وترك ذلك الهاتف بملابسه بعد خلعها، ويعرف أننا سنتوصل للرقم المتصل.. شخص يريدنا أن نعرف أن جاسر هو المدبر لكل شيء.. وأن له علاقة بقتل الإسرائيلية.

- البهلوان؟

- الصراع منذ البداية على محتويات الخزينة.

- يا الله! ما هذه القضية العجيبة؟

- ومفتاح لغزها بيد شخص واحد.

- أتعني؟

- لا معنى لها غير ذلك.

.. يعقوب إدريس يعرف من هو البهلوان القاتل بكل تأكيد.

نَهَضَ سريعًا مُرتديًا معطفه وهَمَّ بالخروج في شغفٍ.

- إلى أين سيادتك؟

- سأُنهي تلك القضية الليلة.

***

صوتٌ يُثير الشجن ينفذ لقلبي.. موسيقا تُثير البكاء تصل لمسامعي.. فتحتُ عيني غير مُدركٍ أين أنا.. كل ما أتذكره ذلك الانفجار الضخم، وذلك الرجل المُكبَّل بالوثاق المُقترب على الخروج.. تبًّا لمآسي اللامنتهية! لا أفهم أي شيء مما يدور.. هل مَنْ رأيتُهم مؤخرًا حقيقة أم أضغاث أحلام لعينة؟ هل هذه الجزيرة المطلة على بحر الدم لها وجود أم أنها أوهام.. أشعر بأنني بعالمٍ مُوازٍ يجمع بين الدنيا والآخرة.. عالم خاص للخطائين أصحاب تلك اللعنة.. نظرتُ حولي.. كنت بدورة مياهٍ صغيرة.. وقفتُ ناظرًا بمرآتها في شغفٍ.. لم أكن أنا.. كنتُ شخصًا آخر في الخمسين من عمره.. زحفَ

الشيبُ على شعره ولحيته الكثيفة.. أدركتُ حينها أنني على مشارف مغامرة جديدة لإصلاح خطايا ذلك الرجل الساكنة روحي بداخله.. ترى ماذا فعلت أيها الملتحي؟ وماذا ينتظرني بوعائك الجسدي؟

دفعتُ باب دورة المياه، وخرجتُ لأستشرف مصيري ومصيره.. صوت الموسيقا يعلو.. صالة متسعة بأحد البيوت ممتلئة برجال ملتحين جميعًا، مُفترشين الأرض، يستمعون لشابٍّ يعزف على عود لحنًا حزينًا ببراعة شديدة.. نظرت إلى وجوههم الجامدة الصامتة لعل أحدهم يعرفني.. وقف أحدهم وتوسَّط مجلسهم مُتحدثًا وجميعهم ينصتون له:

- في عام ١٩٥١ حينما كان جماعة من العلماء السوفييت المختصين بالآثار القديمة يُنقِّبون في منطقة في وادي قاف، في جبال أرارات، عثروا على قطع متناثرة من أخشاب قديمة متسوسة وبالية مما دعاهم إلى التنقيب والحفر أكثر وأعمق، فوقفوا على أخشاب أخرى متحجرة وكثيرة كانت بعيدة في أعماق الأرض، ومن بين تلك الأخشاب التي توصلوا إليها خشبة على شكل مستطيل سبَّبَتْ دهشتهم واستغرابهم، حيث لم تتغير ولم تتسوَّس، ولم تتناثر كغيرها من الأخشاب الأخرى.

وبعد سلسلة من الأبحاث ظهر أن اللوحة المشار إليها كانت ضمن سفينة نوح (عليه السلام)، وأن الأخشاب الأخرى هي أخشاب جسم سفينته،

وأنّ نوحًا كان قد وَضَعَ هذا اللوح في مقدمتها للتبرُّك والحفظ من الأخطار، وقد دُهش العلماء حين وجدوا عليها صورة كَفٍّ إنسان، كتبت على أصابعه خمسةُ أسماء هي:

(محمد - إيليا - شُبَّر - شُبَيْر - فاطما).

(شُبَّر وشُبَيْر) هما اسما الحسن والحسين عليهما السلام بغير اللغة العربية، أما (إيليا) فهو عَليّ عليه السلام.

وقفوا جميعًا حينها وبدؤوا باللطم على صدورهم بقوة شديدة، وانضمَّ إليهم ذلك الرجل بينما استمر الشاب بالعزف.

كنتُ مذهولًا مما أُعايشه.. لم أتخيل ولو لحظة أن أدخل مكانًا كهذا.. ولم يخطر لي ببال أن للشيعة أتباعًا ومريدين بمصر.. لم أكن يومًا متعمقًا بالدين، ولا أعرف منه إلا القليل، ولكنني قادر على التمييز هؤلاء الشيعة الروافض.. ليس هناك شكٌّ بهذا.. وقد يكون من سأُصلِح خطاياه واحدًا منهم.. شخص ما يربت على كتفي.. التفتُّ له.. مفاجأة غير متوقعة.. إنه هو.. لم أنسَه مُطلقًا.. نفس الشخص بكابوس جريمة حبيبة الذي تحقق بدقة عجيبة، وكأنني كُشف عني الحجاب حينها.. الشخص المصارع للبهلوان القاتل قبل تنفيذ جريمته.. كان جاسر عبد الرسول واقفًا أمامي مبتسمًا موجهًا حديثه لي:

-لم أتخيَّل أنني سأراك مُجددًا.

-أنا!

-كيف حالك يا صديقي.. كيف حالك يا رجل؟ ظننتُ أنك مِت.. هكذا قالوا لي.

-كلا ما زلتُ على قيد الحياة أمامك.

-ألا تعرفني؟ ماذا جرى لك؟ أنا جاسر عبد الرسول.

تظاهرت بالحميمية له واحتضنته.

-جاسر.. كيف حالك؟

-تعالَ.. تعالَ يا عثمان يا بن السقا، احكِ لي ما حدثَ لك. ولماذا اختفيتَ كل تلك الفترة؟ وما قصة موتك هذه؟

-أنا!

قاطعني حينها بينما كنت أبحث عن قصةٍ مكذوبة:

-ليس هنا.. تعال أولًا نشاركهم ونستمتع.

سحبني مِن يدي ووقفنا معهم.. كان جاسر يلطم على صدره مثلهم ناظرًا ناحيتي.. فعلتُ مثله تمامًا مُقلِّدًا لهم.

***

الساعة الحادية عشرة قبل منتصف الليل بساعةٍ واحدة.. جلست غادة بركات تتدثر بذكريات لم تنسَها قط بتلك الغرفة الصغيرة فوق سطح بيتهم.. أمسكت «الكلارينيت» وشرعت بمعزوفة أحبتها وأحببتها أنا كثيرًا.. سمعتُها منها لأول مرة بآخر حفل مدرسي اشتركت فيها قبل وفاة والدتنا.. ما زلتُ أتذكر بريق عينيها، والناس تصفق لها ولزملائها.. أغنية زهرة المدائن لفيروز.. ليلتها صعدنا إلى هنا بنفس الغرفة وغنيتُها لها.. كنتُ فَرِحًا بها بالرغم أنني طفل لم يتجاوز الخامسة من عمره.. ومع ذلك حفظت كلماتها سريعًا.

- الطفل في المغارة وأمّه مريم وجهان يبكيان

لأجل من تشرّدوا

لأجل أطفال بلا منازل

لأجل من دافع واستشهد في المداخل

واستشهد السلام في وطن السلام

وسقط العدل على المداخل

حين هوت مدينة القدس

تراجع الحبّ وفي قلوب الدنيا استوطنت الحرب

الطفل في المغارة وأمه مريم وجهان يبكيان وإنني أصلّي.

حينها كنتُ أُردِّد كلماتها دون فهمٍ، وربما كنتُ أُخطئُ بنطق معظمها، ولكنني الآن أفهمها جيدًا حتى أنني كنت أنوي صنع عمل فني ضخم مُسْتَوْحِيًا قصته من هذه الأغنية لو أصبحت نجمًا مشهورًا.. أحلام لم تكتمل.. كانت غادة شريكتي بها.. سقطت دموعها وهي تعايش أوهامًا تراودها كل ليلة.. تراني أمامها طيفًا يزورها.. شبحًا لن يعود صاحبه أبدًا.. رأتني مُمسكًا هدية أخرى.. آخر هداياي لها قبل رحيلي بدروب الحياة والشقاء بعيدًا عن هنا هاربًا من سجن أبي منذ أربع سنوات تقريبًا.. نظرتْ حينها إليَّ:

- ما هذا الذي بيدك؟

- افتحيه بنفسك.

ناولتها الحقيبة الكبيرة وفتحتها.. فستان زفاف أبيض اللون.. ابتسمت لها.

- ادخرتُ مدة ثلاثة أعوام لأشتري لكِ هذه الهدية.

- فستان زفاف؟

- نعم يا حبيبتي.. أتمنى أن أراكِ به بأقرب وقتٍ.

- زفاف بلا عريس.

- سيأتي.. مؤكد سيأتي.

وارتمت بأحضاني حينها.. امتزجت دموعنا.. كنتُ أعرف أنها تعاني ها هنا بهذا البيت مع والدي المتجبر.. كثيرون يخافون التقرب منها والتقدُّم للزواج تجنُّبًا لوالدنا إمام المسجد الصارم.. كانوا يسمعون صراخه وعصبيته علينا ليل نهار، ثم يستمعون بعدها لصوته بميكروفون المسجد مؤذنًا للصلاة.. قسوة مغلفة بالإيمان.. قصص وحكايات انتشرت بمنطقتنا عن جبروته واستحالة معاشرته.. لم أنسَ يوم أحرقَ غادة بذراعها بملعقة وُضِعَت على النار لفترة ليست بالقليلة ليجبرها على الحجاب في سن العاشرة.. وانهال عليَّ بالضرب لاعتراضي.. من وقتها وغادة تبدَّلت لإنسانة أخرى.. منكسرة حزينة لا تقوى على الحلم.. ولكنني لم أستسلم لطغيانه، وقاومتُ كثيرًا حتى قفزت من سفينته الخربة.. سفينة الدين الظاهري.. أكاد أجزم أن الإيمان لم يدخل قلبه قط.. مثله كمثل رجل قضى حياته لم يسمع لحظة عن الله ورحمته ودينه الداعي للسماحة والتراحُم.. أكرهه من كل قلبي.. هو السبب بكل ما أنا فيه.. لولاه ما كنتُ بهذا الموقف.. لو أنه كان عطوفًا لما نفرت من تعاليم ديني الذي كان هو أول ممثليها بالنسبة لي.. كنا ضحيتاه.. أنا وأختي.

واختفى طيفي من أمامها كالعادة ليُذكرها بموتي كل لحظة وغيابي عن سماء حياتها.. وما زالت تعزف مقطوعتها دون انقطاع ودموعها لا تتوقف.

خبطات خفيفة على باب الغرفة.. توقفت غادة عن العزف متعجبة.. من يزورها بهذه الساعة المتأخرة من الليل وهنا بالغرفة؟ فتحت الباب لترى أمامها الدكتور جوزيف ذلك الطبيب الطيب ذي الأخلاق الطيبة، جوزيف سمعان جارنا العزيز.. كان ممسكًا بلفافة طعام بيده مبتسمًا:

- أحضرت لكِ بعض الطعام يا ابنتي ولم أجدك بالأسفل، فساورني بعض القلق، فاعذريني على صعودي إلى هنا.

ابتسمت له ماسحةً دموعها:

- أشكرك على اهتمامك بي يا دكتور.

- أنا مثل والدك.. وأخوك كان يوصيني بكِ دائمًا رحمة الله عليه. أأنتِ بخير؟

لحظات من الصمت بينهما قطعها بابتسامةٍ فاترة:

- حمدًا لله.

***

عقارب الساعة تقترب من الثانية عشرة منتصف الليل والأمطار غزيرة لا تتوقف.. ليلة شديدة البرودة كحياة الكثيرين ممن يقضون عمرهم بأكمله يبحثون عن دفء يتعبدون بمحرابه دون فائدة.. وكأنه سراب لن يتحقق مهما يظنوا بقربه.. جلس يعقوب إدريس بغرفة دانا شمعون بالمستشفى رافضًا الرحيل.. وكأنه قرَّر البقاء هنا بمحراب حبيبته حتى تعود.. متعبدًا بدموعه باحثًا عن دفئها المخطوف.. كان شاردًا صامتًا هلوعًا.. إنسانًا بلا مأوى، بلا حُبٍّ، بلا قلب.. ميت على قيد الحياة.. وكأن أحدًا شَقَّ صدره وانتزع قلبه وفَرَّ به هاربًا وترك له مضخة صناعية تمنحه حياة مؤلمة لا يرغبها.. حياة بلا دانا الحبيبة.. حتى وهي مريضة لا تتحرك ولا تعي ما حولها كان سعيدًا بجوارها.. ألمٌ لا يُحتمل يعتصر روحه.. غابت شمسُه وسيبقى بالظلام الحالك أبد الدهر.. لمن سيعيش؟

كانت نسمة مختار بجواره تحاول التخفيف عنه، ولكنه لا يجيبها.. بل لا يستمع لصوتها من الأساس.. حاول الغندور معه ليتكلم دون فائدة.. أسئلة عديدة لا يجد لها إجابة، ويعرف أنه يملك إجابتها أو على الأقل يعرف من سيجيبها، ولكنه منهار لا يتحدث.. صرخ فيه الغندور بحدة متناهية:

-إن كنت حقًا تريد عودتها فعليك إجابة أسئلتي.

تدخلت نسمة بنفس حدته:

- سيد غندور.. كما ترى السيد يعقوب لا يقوى على التحدث الآن.

- يا سيدتي الأمر في غاية الخطورة.

- ليس أخطر مما يُعانيه يا سيدي.

- أريد مساعدته.

- أؤكد لك أن أحدًا لم يتصل به منذ اختطافها. وأنه لا يعرف أيَّ شيء عن تلك النجمة القتيلة التي تتحدث عنها، ولم يقابلها بحياته قط.

- وما أدراك أنت؟

- أنا مديرة أعماله وأعرفُ عنه كل شيء.

نَظَرَ إليها كاظمًا غيظه ثم خرج قبل أن ينفجر بهما:

- سنرى.

اقتربت من يعقوب واحتضنت رأسه بكلتا يديها.

كان هناك رجلٌ بالخارج ينتظر غندور.. استوقفه:

- سيد محمود غندور.

- مَن أنت؟

أشار إليه بتحقيق شخصيته.

- عقيد شوقي عزوز من المخابرات العامة.

- مخابرات! خيرًا؟

- نريد التحدُّث معك قليلًا.

- تفضَّل.

- ليس هنا.. تعالَ معي بعد إذنك.

تحرَّك معه الغندور متعجبًا.. كل ما يدور بباله بهذه اللحظات هو صحة توقعاته.. الأمر في غاية الخطورة حقًّا.. ويتعلق بالأمن القومي للوطن.. أدرك ذلك منذ تلك القتيلة الإسرائيلية المنتحلة لشخصية أخرى.

***

اصطحبني جاسر عبد الرسول بعتمة الليل تحت تلك الأمطار المنهمرة لغرفة بعيدة عن الأنظار بالمقابر فوق دراجته البخارية.. وطوال الطريق وهو يحكي لي عن صداقتنا القديمة.. مواقف تظاهرتُ بمعرفتها ومشاركته بها.. بالطبع هو يقصد عثمان السقا، مَنْ أسكنُ جسدَه الآن.. كل ما كنتُ أفكر به هو معرفة خطاياه دون أن يشعر بأنني لستُ هو.. وكذلك أريدُ تفسيرًا

لوجوده بفيلا حبيبة لحظة قتلِها، وكيف رأيت ذلك بكابوسي وأنا لم أخرج من غرفة سطح بيتنا. وصلنا غرفته وأشعل مصباحها الصغير.

- اجلس يا صديقي.. أهلًا وسهلًا بك. تأكل شيئًا أم تشرب الشاي؟

- أشكرُك، لا هذا ولا ذاك.

- أتعرف؟ لقد عُدتَ بموعدك.

- ماذا تعني؟

قَطَعَ حديثنا صوتٌ من الخارج.. هُرع جاسر وأطفأ مصباح الغرفة متوترًا وتلَّصص من بابها.. مجموعة من الناس بالخارج يحاولون فتح القفل الخارجي.. كنا نسمعهم جيدًا:

- لا إله إلا الله.

- أين مِفتاحُ ذلك القُفل؟

- اكْسرْهُ يا أيمن.

- فلننتظر حتى الصباح.

- الوصية تقول: ادفنوني بالساعات الأخيرة من الليل قُبيل الفجر.

- تخاريف يا أخي.. فلنعاود بالصباح الباكر.

كان معهم نساء يصرخن ويولولن.. صرخ بهنَّ ذلك الشاب:

- صه.. لا أريدُ عويلًا هنا.. ادعون له بالرحمة فقط، هيا لنكسر القفل، وننفذ الوصية ولا أريدُ سماعَ كلامٍ غير ذلك.

جاء أحدهم مُحاولًا كسر قفل الباب بينما هَمَسَ لي جاسر:

- تبًّا!

- مَن هؤلاء؟

- يبدو أنهم أصحاب ذلك الحوش.. عجبًا لذلك، فمنذ أن جئتُ إلى هنا من سنوات لم أرَ أيًّا منهم

- وما المشكلة إذًا؟

- هناك أمور لا تعلمها يا صديقي.. فأنا من مشاهير المجرمين الآن.

ضَحِكَ جاسر بصوت مكتوم وتعجبتُ أنا لحديثه.. نَجَحَ من بالخارج بكسر القُفل ودخول ساحة الحوش.. علامات القلق على وجه جاسر خائفًا.. وبدؤوا بفتح المقبرة اليمنى.. يبدو أن الميت رجل.. اطمأنَّ جاسر.. فبالأخرى دفن حبيبته بعد ذبحها.. همستُ له قاطعًا توتره:

- كنت تقول إنني عدتُ بموعدي.

- نعم.. بعد ساعة من الآن وبصلاة الفجر ستنفذ عمليتك.

- أي عملية؟

- سُحقًا! أنسيت أم فقدتَ ذاكرتَك؟

- واجهت مصاعب كثيرة الفترة الماضية يا صديقي.

- وأنا قلتُ لك أخبرني إياها وأنت رفضت.

- أخافُ عليك مِن معرفتها.

- كلا.. سأقفُ بجوارك كعادتِنا.

- ليس الآن.. أخبرني ما تناسيته.. حدثني عن هذه العملية؟

- ألا تتذكر انضمامنا لجماعة الشيعة والانغماس بينهم؟ ألا تتذكر ترتيبنا للقبض عليك بأحد المرات مقتحمًا مسجد الحسين، لأداء طقوس الشيعة هناك وتحرير محضر بذلك وإخلاء سبيلك بعد تعهُّدك بالابتعاد، وعدم تكرار ذلك مجددًا؟

- كلا.

- كل ذلك كان مُخطَّطًا له، وتمهيدًا لعملية اليوم.

- ما هي إذًا؟

- قَتْل إمام مسجد الحسين والهروب بعد أن يشاهدك المصلون لتشتعل الفتنة بين السُّنة والشيعة.

كانت كلماته الهامسة كطعناتِ خنجرٍ بقلبي.. تلك خطيئة جديدة عليَّ منعها بأسرع وقت.. برقت عيني:

- ولكن كيف كانت ستنفذ بدوني؟

- لا شيء.. كنت سأقتُله، أنا مُلثَّم، واترك بطاقتك الشخصية بجواره ليعرف، الجميع أنك مَن قُمتَ بهذا، لولا اختفاؤك لكنت أنا الآن خارج البلاد، ولكنها مؤكد آخر عملية سأقوم بها، ولحسنُ الحظِّ أنك ما زلتَ حيًّا على قيد الحياة لتنفذها بنفسك.

- كلا.. لن أفعل ذلك أبدًا.

علا صوتي حينها، فصرخ كاتمًا أنفاسي بيده.

- اصمت.. أجُننتَ يا عثمان؟ عليك تنفيذ الخطة كما رُسمت لنا، وإلا سيقتلوننا.

- مَن هؤلاء؟

- ليس لنا أن نسأل أبدًا يكفي أموالهم وحمايتهم لنا.

- اسمعني جيدًا.. نحن نقود أنفسنا للهلاك.. دعنا نهرب من هنا.

ونبلغ الشرطة عن نيتهم لهذه الجريمة وننقذ البلد من تلك الفتنة.

- لم أعهدْكَ ضعيفًا هكذا.. حسنًا حسنًا.. يبدو أنك ترتعد من التنفيذ، وتخاف ألا تتمكن من الهرب بعدها، على أي حالٍ.. سأقوم أنا بها كما رتبت قبل ظهورك ونتقابل بعدها هنا.

- لا لن تنفذ أي شيء.

كان مَن بالخارج يقتربون من الانتهاء من دفن ميتهم، وأحدهم يقرأ له القرآن بصوتٍ عالٍ،

هُرع جاسر ناحية سكين فوق منضدة جانبية وأشهره بوجهي هامسًا:

- ابتعد عن طريقي وعُد كما جئتَ.

- لن أتركك.

- ابتعدْ يا عثمان وإلا قتلتُك.

- أتقتل صديقك؟

- وأقتلُ أخي إن وقفَ بطريق مصلحتي.

- إذن لن تخرج من هنا إلا على قسم الشرطة.. ياااااا.

وبدأتُ أعلو بصوتي ليسمعني مَن بالخارج.. كل ما كنتُ أريدُه أن يساعدوني بالإمساك به لأقرب قسم شرطة وهناك مؤكد سيعرفونه.. ما زلتُ أتذكر صورته بالتقرير الصحفي بالأخبار عن جريمة حبيبة.. ولم يهمني حينها الإمساك بي أو تورطي كعثمان السقا بما ينوي فعله.. ولكنه باغتني بأسرع ما يمكن كاتمًا أنفاسي.. كان يريد طعني بالسكين ولكنني قاومته بشدة.. صراع جسدي عنيف بيننا، استطعتُ قذف ذلك السكين بعيدًا عن يده.. حاول خنقي وقتلي ولكنني قاومته.. التفَّت يداه حول عنقي، وكذلك فعلتُ أنا.. كلانا كان يخنق الآخر.. لحظات عصيبة تنبئ بخروج روح أحدنا لا محالة.. ولكنني كنت الأسرع منه.. خرجتْ روحه مختنقًا واقعًا بجواري جثة هامدة.. ومات جاسر عبد الرسول.. وبنفس اللحظة فُتح الباب ورأيت ذلك الشاب المدعو أيمن يقف مبرقًا العينين شاهدًا على جريمتي بهذا الظلام الشديد.. قاتل ومقتول بغرفة بأحد المقابر وشاهد وسط عتمة الليل لا يرى سوى أشباح مخفية المعالم.



النبشة العاشرة: تداخل

(الحادي عشر من يناير)

وأُسدل الستار عن مجرم ذاع صيتُه بالاجتماعات الأمنية الأيام الماضية.. كان بطلها الأوحد مجرمًا ضَلَّ طريقًا، مستقيمًا كان يحلم به طوال عمره ليمارس كل أطياف الجريمة باحتراف دون كلل أو خوف.. من خريج كلية السياسة والعلوم الاقتصادية بتقدير امتياز لشخصٍ ناقم على المجتمع عاشق للدماء قاتل بدرجة سفير.. كانوا يطلقون عليه سفير الدم هكذا كان اسمه الحركي بذلك التنظيم الخفي المُحرك له.. بعدما خابت كل مساعي الغندور للقبض عليه أو تتبع عمَّه الذي أستنكر أعماله الإجرامية بشدة وتبرَّأ منه.. واليوم وقع قتيلًا.. جثة هامدة وُئدت بخروج روحه ألغاز عديدة دون تفسير.

الساعة السابعة صباحًا والشمس متخفية خلف سُحب لا تنتهي.. تتسلل أشعتها على استحياء وسط نهار مُنذر بهطول أمطار مجددًا بعد توقف دام ساعتين.. وامتلأت المقابر بقوات الشرطة وخاصة تلك المقبرة الحاوية لإرهابيِّهم المقتول.. بعد وصول بلاغٍ بوقوع جريمة قتلٍ وهروب القاتل.

وَقَفَ الغندور بالقرب من جثة جاسر والغيظ يملؤه، وكأن القدر يعانده ويصرُّ على إخفاء كل حَلٍّ محتمل لهذه القضية.. حتى قاتل جاسر فَرَّ هاربًا

يستره الظلام دون أن يتعرف عليه أحد بعد دفعه للشاب المدعو أيمن، وبلحظة واحدة ذاب مختفيًا عن عيونهم.. ولا شيء من محتويات الغرفة يساعده.. مات المشتبه به الرئيسي وحلقة الوصل الأولى لجرائم الأيام الماضية دون أن يترك خلفه أي بارقة أمل لكشف الجناة.. ولم يعد أمامه سوى ذلك البهلوان الذكي لينبش قبور ألغاره.

مانشيتات الجرائد الصباحية يتصدرها خبر واحد عاجل سرعان ما وصلهم:

«العثور على جثة الإرهابي جاسر عبد الرسول المُنفذ لمحاولة اغتيال السفير الأمريكي بالأمس».

والبرامج الحوارية الصباحية تستعدُّ لإذاعة الخبر حصريًا.. وما إن انتقلت قوات الشرطة لمكان الحادث ومعرفة شخصية القتيل هُرع مراسلو القنوات الفضائية إلى هناك، ولا أحد يعلم من مُبلغهم الأول، ولكن الغندور اعتاد وجود الصحفيين والإعلاميين بمثل هذه القضايا خطوة بخطوة دون أن يسأل أحدهم كيف وصله الخبر.. فهناك ضباط صفٍّ وجنود يعتبرون مثل هذه الأخبار مصدرًا لرزقهم ومهما يحاول منعهم فلن يستطيع.

لم ينم الغندور ليلته الماضية بعد مقابلته للعقيد شوقي عزوز ومعرفته بأن المخابرات العامة تُتابع القضية منذ بدايتها من كثبٍ.. أخبره حينها بقصة

مريم شاؤول منذ بدايتها وتحذيرهم الروائي يعقوب إدريس، وتتبعها ليلة قتلها، وهروبها من مُراقبتهم، وكذلك عن حيرتهم لطلبها من يعقوب بكتابة رواية عن البهلوان القاتل.. أجابه الغندور عندئذٍ.

- لا معنى لذلك سوى ضلوع يعقوب إدريس بهذه الجريمة.. إنه يعرف من هو البهلوان.

- وما أهمية مجرم كالبهلوان بالنسبة للموساد؟

- أهميته تكمن بمحتويات خزينة حبيبة التي فاجأهم البهلوان بالاستيلاء عليها، معلومات ومستندات خطيرة ظهر منها القليل كبعض الأسطوانات الجنسية التي أخبرتك بها، وما خَفِيَ كان أعظم.

- تقصد مثلًا مخططات إرهابية؟

- هذا ما أخشاه.. ظهور إسرائيل وموسادها بالصورة يرُجِّح ذلك.

- تعني أن حبيبة كانت عميلةً سريَّةً للموساد.

- ربما.. وتجد ذلك التفسير منطقيًّا بعد قيام رجلهم جاسر عبد الرسول بمحاولة اغتيال صوري للسفير الأمريكي.

شَرَدَ قليلًا يفكر بذلك التفسير الذي طرحه عليه الغندور هامسًا:

- ولكن لماذا قُتلت حبيبة بهذه الطريقة؟ ولماذا يخطفون دانا شمعون؟ لماذا؟

- لأن هناك جهةً أخرى توصَّلت لخُططهم وأرسلت البهلوان واستولت على مخططهم. جهة لا يعلمونها ووضعت كل عملياتهم في مهبِّ الريح.

- حسنًا.. ولكن ما علاقة يعقوب بكل هذا؟

- قلتُ لك إنه يعرف الجهة الأخرى.. أو على الأقل هكذا يظنون.

- ولكنه رجل وطني ومخلص لبلده للغاية.

- خطورة هذه المعلومات أن مَن استولى عليها لم يُساومهم أو يفضحهم.

- ربما يظنون أننا نحن من قُمنا بذلك.

- المخابرات المصرية؟

- عليك متابعة تحرياتك والتواصل معنا بشكل سريٍّ أولًا بأول، واترك يعقوب بحاله، ولا تراقبه حتى يتأكدوا أننا لسنا تلك الجهة، ولننتظر أي خطأ من الطرفين يكشفهما.

- أوامر جنابك.

جثا الغندور على ركبتيه ناظرًا لجثته بغضبٍ مكتومٍ ورجال المعمل الجنائي يؤدون عملهم.

هامسًا بعد لحظات من الشرود بتلك المقابلة المفاجئة بالأمس:

- لو أن الموتى يتكلمون.. لما تركتك حتى أعرف الحقيقة كاملة.

قاطعه ماهر بلهفة وتوتر شديدين:

- سيادة المقدم.

نَهَضَ ناظرًا إليه مُتثائبًا مُتعبًا مُحاوِلًا التغلب على إرهاقه الشديد.

- ماهر؟ متى أتيت؟

- منذ قليل جنابك.

- حسنًا.. سأذهب لأحصل على بعض الراحة.. كنتَ محقًّا بالأمس، نحتاج إلى النوم لنستعيد طاقتنا الذهنية من جديد.

- أظن أن سيادتك مُقبِلٌ على يوم حافل بالتحقيقات.

نَظَرَ إليه الغندور مُتحفزًا:

- سيادة المقدم هناك شيء عليك مشاهدته الآن.

- أي شيء؟

اصطحبه ماهر لساحة الجبانة.. كان الغندور قد أصدر أوامره بفتح المقبرتين وتفتيشهما لعلهم يعثرون على أي شيء يساعده على حَلِّ تلك

الألغاز.. وبالفعل وجدوا جثة متعفنة لفتاة مذبوحة وأخرجوها ممددة أمام المقبرتين.. رمقها الغندور متسائلًا:

- مَنْ هذه؟

- دعنا مِن هذه القتيلة الآن جنابك.. هناك ما هو أخطر.

- تكلَّم يا ماهر.

أشار ماهر إلى أحد الجنود فناوله حاسوبًا إلكترونيًّا صغير الحجم مُغطًى بغلاف بلاستيكي مُحمل بالأتربة.

- هذا الحاسوب وجدناه مُخبَّأً بهذه المقبرة التي وجدنا بها هذه القتيلة، ويبدو أنها لجاسر لوجود صور خاصة به وبتلك القتيلة وتسجيلات جنسية بينهما كثيرة.

- وما الذي يُثير اهتمامك بهذا الاكتشاف؟

- ذلك المقطع سيادتك.

أدار مقطعًا على ذلك الحاسوب بعد فتحه.. كان مقطعا حميميًّا لجاسر عبد الرسول مع فتاة أخرى ليست تلك القتيلة، ويبدو أنها غائبة عن الوعي.. يبدو ذلك واضحا بالمقطع رغم قصر مدته التي لا تتجاوز الثلاثين ثانية.. همس الغندور لماهر:

- مَن هذه الفتاة؟

أغلقَ ماهر الحاسوب الإلكتروني وناول الجندي إياه وترجَّل بعيدًا بصحبة الغندور.

-منذ شهرٍ تقريبًا كان هناك مشروع ارتباط بيني وبين ابنة العميد فكري طرابيك، وكانت تربطنا علاقة حُبٍّ دامت أكثر من عام.. كانت دُنيايَ التي أحببتُها ورغبتُ بها.

- ماهر!

- عُذرًا سيدي المقدم.. دعني أُكمِلْ لك بعد إذنك.

- أسمعُك.

- اتفقتُ معها أن أتقدَّم لوالدها، ولكن فجأة دون انذار مُسبق تغيَّرت تمامًا، وأبلغتني أنها تريد الابتعاد لتتزوج شخصًا آخر اختاره لها والدها.. حاولتُ معها كثيرًا، ولكنها صمَّمت واختفت من حياتي تمامًا.. وقُطعت كل سُبل التواصل المحتملة.

- ثم؟

- هذه الفتاة بالمقطع الجنسي هي حبيبتي.

قالها واغرورقت عيناه بالدموع.. اقترب منه الغندور مُربتًا على كتفه:

- تماسَك.. وأخبرني معنى ذلك الاكتشاف.. رأسي يكاد ينفجر من التفكير.

- الآن فقط عرفتُ سبب الابتعاد.. ذلك الكلب سجَّل ذلك المقطع لها رغماً عنها، ومؤكد أنه هدَّدها به، فقرَّرت الابتعاد عني.

- ولماذا يفعل بذلك؟

- لا أعرف.

برقت عينا الغندور حينها.. شعر أن الله قد أرسل له طوقًا للنجاة ليفتح له بابًا كان قد ظنَّ أنه لن يُفتح أبدًا.. إحساس دفين يساوره بسلسلة من المفاجآت تنتظره وراء ذلك المقطع.. اقترب من ماهر باهتمام شديد.

- أريدُ معرفة كل شيء عن هذه الفتاة وعن عائلتها.

- حسنًا.. سأخبرك بما أعرفه.. ولو تريد سيادتك الذهاب إلى والدها مباشرة بسجن مزرعة طره

- سجن مزرعة طره؟

- نعم هو مأمور ذلك السجن.. لا بد أن أقف بجوارها.. لن أتخلى عنها.

شَرَدَ الغندور بعيدًا عن هذه المقابر.. تذكر تلك المرة منذ ثلاثة أيام ببداية تلك القضية بلحظاتها الأولى حينما قابل الصحفي بدر غانم.. ما زالت كلماته تتردد بأذنيه:

- أسمعت عن تلك المحاولة لاقتحام سجن مزرعة طره؟

استطاع سبعة من المساجين الفرار وكثَّفت قوات الأمن حملاتها لضبط الهاربين، واستطاعت في وقت قليل العثور على أغلبهم غرقى بالنيل لسبب غير معلوم.

أجاب الغندور النقيب ماهر بلهفة شديدة:

- أريد مقابلة ذلك المأمور فورًا وبالطريق احكِ لي كل شيء.

وقف ماهر بمكانه لا يتحرك.. التفت له الغندور، فأطرق برأسه للأسفل ليواري دموعه وتردده.

- سيادتك، لا يجوز أن يترك كلانا مكان الحادث قبل وصول النيابة.

فَهِمَ الغندور مشاعره المتضاربة.. صراعٌ داخلي بين حبه الماضي وبين عادات وتقاليد راسخة بعقله.. .فهو مثل أي رجل شرقي مهما تُحركه عواطفه تجاهها ستظل بعينيه تلك الفتاة التي ضاجعها غيره.. تنهد الغندور وانصرف تاركًا له بين أطلال عشقه المُقسِم ألا يعود أبدًا بهذا المجتمع.. استوقفه النقيب ماهر:

سيادة المقدم.. أرجوك، لا تُعلم الصحافة بهذا المقطع.. أرجوك.

اقترب منه الغندور مُربتًا على كتفيه ليُشدَّ من أزرِه، فارتمى ماهر بأحضانه باكيًا دون توقُّفٍ.

***

سيارة سوداء اللون ضخمة الحجم تدخل الحي الذي تربيتُ وترعرعت فيه.. سيارة بدون لوحة معدنية، ويبدو أنها خرجت للتوِّ من الجمرك لوجود بعض اللاصقات على جسدها المُنبئة بذلك.. زجاجها أسود اللون يخفي مَن خلفه.. وقفت أمام منزلنا وسط تعجب المارة.. لأول مرة بتاريخ حينا تدخله مثل تلك السيارات الفارهة.. لحظات وفُتح أحد أبوابها، وهبطت منها سيدتان مُنتقبتان ودخلتا لبيتنا.. ظنُّ البعض أنهما زبونتان جديدتان لغادة بركات.

استقبلتهما بابتسامة مصطنعة:

- تفضَّلا.

- صباح الخير.

- أهلًا بكما.. مُرَا.

- نريد تفصيل فستان زفاف لابنتي وجيرانك يتحدثون عن جمال فساتينك ورُقيها.

- أنتما ليستا من المنطقة، أليس كذلك؟

- هل تسمحين لنا بإغلاق الباب لنتحدث على راحتنا ونزيل نقابنا؟ عُذرًا، فزوجي مُتشدِّد للغاية واعتدنا ارتداء النقاب بكل مكان نذهب إليه.

- حسنًا.. شايًا أم قهوةً أولاً؟

أغلقت الباب والتفتت لها مبتسمةً خالعة نقابها.. سيدة في العقد الخامس من العمر ناظرة للأخرى:

اخلعي نقابك يا رنا.. أنا لم أشرب قهوة الصباح.

قالتها مبتسمة لغادة.. نظرت غادة لابنتها:

ورنا العروس؟

- أشكرك، لا أحتسي أيًّا من المكيفات ولا حتى المشروبات الغازية لقُرب موعد الزفاف.

- كما تريدين.. قهوتك، سيدتي؟

- مضبوطة.

تركتها ودخلت للمطبخ لتعدَّ فنجانًا من القهوة.. شعرت بإحداهما تدخل وراءها مطبخها.. التفت لها متعجبة.. كانت السيدة تهجم عليها

وتحاول تخديرها بمنديل يملؤه المخدر بيدها.. خبطتها غادة سريعًا بيديها وأبعدتها.. ضربت رأسها بكوب زجاجي كان بجوارها وصرخت هاربة للخارج:

النجددددددددددددة.

انقضَّت عليها الفتاة الأخرى ومنعتها من الخروج.. صراع جسدي عنيف بين الاثنتين.. نهضت السيدة من الأرض والدماء تخرج من رأسها.. لم تكف غادة عن الصراخ.. خبطات على باب الشقة الخارجي وجيران لها ينادونها:

افتحي يا غادة.. ماذا يحدث بالداخل؟ غاااادة.

صوت طلقات رصاص متتالية، وصرخات تملأ المنطقة بأكملها.. نسوة تطلقن صرخاتهن بأعلى أصواتهن.. صوت الرصاص لا يتوقف.. استطاعت السيدة التمكُّن من غادة بعد عناء وغابت عن الوعي بين يديها.. ارتدت نقابها هي والأخرى، وفتحتا الباب، وهما تحملانها بينهما.. خرجتا وسط حماية ثلاثة رجال ملثمين يطلقون الأعيرة النارية لحمايتهما من أهالي الحي.. دخل بعدها أحد هؤلاء الرجال وبعثر كل شيء بغرفتها وكأنه يبحث عن شيء ما بعينه.. أخرج جميع ملابسها، وفتَّش بها وعثر على بعض الصور والمجلات تخفيها بصندوق صغير.. بحث بهذه المجلات عن مُبتغاه.. صوت الرصاص مستمر بالخارج، وصياح الرجال المصاحبين له:

منّ سيقترب منكم سنقتُله بالحال.. عُدْ للوراء.. عُدْ.

كان ذلك الملثم حائرًا.. بعثر محتويات الشقة بأكملها دون جدوى.. تحدَّث بهاتفه المحمول لحظات وكأنه يتلقى الأوامر من شخصٍ ما.. نطق بجملةٍ واحدة:

لا شيء هنا سوى صندوق به بعض الصور والمجلات.

أغلق بعدها هاتفه بعدما تلقى أوامر سيده وتناول ذلك الصندوق وخرج سريعًا.. تاركًا صورتين سقطتا منه سهوًا في أثناء تفتيشها على الأرض، وهربوا جميعًا بتلك السيارة بعيدًا عن أنظار أهالي الحي.. كان الطبيب جوزيف واقفًا لا حول له ولا قوة وسط خِضم هذا الهجوم المسلح.. شعر بأنه خان وصية أخيها.. وصيتي بالاهتمام بها وحمايتها.. ولكن هيهات.. محاولته لإنقاذها تعني موته في الحال برصاصهم.. خُطفت غادة بركات تاركةً خلفها صورتين مُلقيين على أرض غرفتها بهما شيء من ذكرياتها التي حاولت مرارًا وتكرارًا نسيانها واعتبارها كأن لم تكن.. الصورة الأولى تجمعها بخطيبها الوحيد الذي أحبته من كل قلبها قبل أن يجرحها ويهجرها في ذورة أزمة أخيها وسجنه.. من كسر قاعدة قسوة أبيها وتقدم لها ضاربًا عرض الحائط بقصص أهل الحي عن سوء معاملة عبد النور بركات.. صورتها مع بدر غانم الصحفي الوصولي.. جارهم الخارج من حيهم بغير رجعة.. المرتمي بأحضان جديدة

هاجرًا إياها.. ذَبَحَ قلبها وخان عهده معها.. كما كان واضحًا جليًا بالصورة الثانية التي قصتها من إحدى المجلات.. لم تتخيل أن كلامه المعسول وأحلامه المغلفة بالكذب تتبخر بهذه السهولة بحجة الفقر والعوز والرغبة باعتلاء الظروف بدلًا من اعتلائها له.. صورة بدر غانم مع النجمة حبيبة تلك المقتولة التي فرحت كثيرًا لذبحها بتلك الطريقة.. صورتهما بإحدى الحفلات الفنية المنشورة بإحدى المجلات محتضنًا إياها والخمر يغلبهما.

***

رشف الغندور من فنجان قهوته الساخنة بمكتب مأمور سجن طره.. كان شغوفًا ليجد أيَّ تفسير لوجود مثل هذا المقطع على حاسوب جاسر عبد الرسول.. وكانت هناك مفاجأة بانتظاره.. اعتدل العميد شريف بكر بكرسيه بعد سؤاله عن العميد فكري طرابيك صامتًا فعاود الغندور سؤاله

– أهناك مشكلة ما بمقابلته؟

– لن تستطيع مقابلته لسببين.. أولهما أنه أُحيل للتقاعد بعد انتهاء التحقيق معه بحادثة هروب المساجين، واستلمتُ أنا العمل هنا مأمورًا للسجن بدلًا منه منذ فترة قريبة.

– وثانيًا؟

- لأنه الآن في عِداد الأموات.

برقت عينا الغندور مشدوهًا:

- مات؟

- نعم بعد إقالته بيوم واحد.. عُثر عليه مُحترقًا بسيارته بعد سقوطها من أعلى هضبة المقطم

- وهل هناك شُبهة جنائية بموته؟

- لا أظنُّ ذلك، وهناك شكوك بانتحاره.

- سيادة العميد.. أرجوك، أريد معرفة كل شيء عن هذه الحادثة وما قبلها.. هروب المساجين.. أقواله بالتحقيق.. الأمر بغاية الخطورة ويتعلق بالأمن القومي.

حينها ربط الغندور سريعًا بين ما حدث لذلك المأمور وذلك المقطع الفاضح لابنته مع جاسر عبد الرسول.. شيء ما بداخله يؤكد أنه يقترب من حَلِّ ألغاز تلك الجرائم المتتالية.. اصطحبه العميد شريف بكر بجولة سريعة بعنابر السجن، وخاصة ذلك الجدار المُرمَّم بعد هجوم الإرهابيين منذ نحو عشرة أيام.

- العميد فكري كان رجلًا مُنضبطًا ذا أخلاق طيبة، سِجل خدمته ناصع البياض منذ تخرجه في الكلية الحربية وحتى إجباره على تقديم استقالته.

- ولماذا كانت نهايته درامية بهذا الشكل؟

- هؤلاء المساجين السبعة الهاربون تحوم حولهم شُبهات كثيرة، وللأسف يبدو أنه متورط بهروبهم.

- كيف؟

- سبعة مساجين، كُلٌّ منهم بعنبر مختلف عن الآخر.. يقضون عقوبات مختلفة تبعًا لجرائمهم، وكل منهم حاول الانتحار بفترات متفاوتة، وخضعوا لعلاجٍ نفسي ووضعوا تحت الملاحظة حتى عادوا لطبيعتهم.. وقبل تلك الحادثة بيوم واحد أمر العميد فكري طرابيك بنقل السبعة بعنبر واحد، وعلى الرغم من تعجُّب إدارة السجن من قراره هذا فإنه قد برَّره بأنه يريد إخضاعهم للملاحظة من جديد خوفًا من تدهور حالة أيٍّ منهم حتى لا نتحمل مسئولية انتحار أيٍّ منهم مُجددًا، وبالفعل اجتمع السبعة بذلك العنبر، وفي اليوم التالي بمنتصف الليل تعرَّض السجن لهجوم مسلح خاطف ببلدوزر، كسروا ذلك الجدار وقتلوا عشرة جنود والنقيب أسعد - رحمهم اللهُ جميعًا - في أثناء محاولة تهريبهم.. الغريب أنه لم يهرب سوى هؤلاء السبعة فقط.. ووُجهت تهمة سوء التصرف للعميد فكري، وأجبروه على الاستقالة، ولكننا جميعًا نشكُّ بالأمر.. مؤكد أن الحادثة ليست مصادفة.. وما جعلهم يتراجعون عن معاقبته جنائيًا وتوجيه تهمة التواطؤ إليه هو موت السبعة،

والعثور على سته منهم غرقى، والأخير مات بارتفاع في ضغط الدم.. كانت حالته النفسية بأسوأ حال، ولذلك توقعنا أنه انتحر.. صدمة كبيرة.. كان الله في عون ابنته الوحيدة.. لم تتحمل وغادرت البلد بعد دفنه مباشرة للخارج

- إلى أين؟

- ليس لديَّ فكرة عن وُجهتها.

- هل لي أن أطَّلع على أقواله بالتحقيق؟

- حسنًا، لديَّ نسخة من التحقيق بملف العميد فكري.

وبدقائق معدودة كان الغندور يُطالع ملف المأمور السابق بشغفٍ باحثًا عن أي معلومة تساعده.. بالأخص أن ابنته خارج البلاد، ولذلك لن يستطيع تتبُّع السبب وراء تصوير ذلك المقطع لها.. على الأقل في الوقت الحالي... والسؤال: ماذا أراد جاسر عبد الرسول من العميد فكري؟ ولماذا هدَّده بذلك المقطع؟ أو بالأحرى، ماذا أرادت إسرائيل وموسادها من العميد فكري؟ عليه تتبُّع تاريخ هؤلاء السبعة بالتفصيل... لفت نظره شيءٌ مذهل مُثير وهو يطالع ملفات السبعة مساجين وأسمائهم وتاريخ الوفاة:

يحيى عبد النور بركات

تُوفي في الخامس من يناير ٢٠١٨
لارتفاع حاد بضغط الدم.

ضاحي عبد البر سلطان

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

مارك حبيب مينا

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

عثمان توفيق السقا

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

شوربجي هاني نعيم

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

مازن سعد سعيد

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

سيد عفيفي جبران

تُوفي في الرابع من يناير ٢٠١٨
غارقًا بمياه النيل.

تلقت أجهزة الأمن بلاغًا بسقوط سيارة بها ستة أشخاص قُبيل فجر الرابع من يناير، وتم انتشالها، ولكنها كانت خاوية، واستمر البحث عن جثث الستة يومين حتى تم العثور عليهم واحدًا تلو الآخر بمناطق متفرقة قريبة، وتعرف إليهم ذووهم وأمرت النيابة بدفن جثثهم.

كان ذلك التقرير يُثير ذهول الغندور للغاية.. شيء واحد يُكذبه كله عن بكرة أبيه.. سيد عفيفي جبران.. ذلك المتهم المُتوفَّى غارقًا فجر الرابع من يناير.. صورته المرفقة لا تُنسى مطلقًا.. وجهه مميز، بمجرد النظر لصورته تذكَّره جيدًا.. إنه نفس الرجل المُعزي لغادة بركات بوفاة يحيى أخيها.. بوفاتي.. الرجل الذي ادَّعى أن يحيى كان يعمل معه.. المُنتحل شخصية أخرى باسم إسماعيل.. سيد جبران المُتوفَّى بالرابع من يناير يُعزي بيحيى المُتوفَّى بالخامس من يناير.. يُعزي أخته غادة صباح العاشر من يناير.. هناك مؤامرة لا محالة.. هذا يعني شيئًا واحدًا فقط.. أن سيد جبران حيٌّ لم يمت.. وقد يكون كل هؤلاء الموتى أحياء.. برقت عيناه حينها مستنتجًا هامسًا:

- ربما يكون يحيى عبد النور بركات هو أيضًا على قيد الحياة.

***

واقتربت النهاية.. كُلٌّ بطريقه.. أنا الحامل لذنوب وآثام الآخرين التي لا ذنب لي فيها.. والغندور النابش عن الحقيقة بكل ما أوتي من جهد وتفكير..

المستحيلان.. الآن أدركتُ أنه يستحيل إصلاح خطايا من هم مثل هؤلاء.. ولكن الغندور ما زال يُصارعُ ألغاز تلك القضية مؤمنًا بالانتصار.. حتما سينجح.. سيُحيل المستحيل للممكن.. هكذا عقيدته.. شعوران متضادان يتملكان نفسينا.. فشل ونجاح.. استسلام وتحدٍّ.

هُرعَ الغندور لبيتي بعدما تلقى اتصالًا هاتفيًا من النقيب ماهر يبلغه باختطاف مسلح لغادة بركات.. لم يصدق الغندور هاتين الصورتين بغرفتها.. نفث من سيجارته بغضب شديد بعدما رآهما.. نظر لماهر غزلان كاتمًا غضبه:

- استصدر أمرًا من النيابة بالقبض على الصحفي بدر غانم.

حينها فقط تغير المشتبه بهما بجريمة القتل لاثنين.. البهلوان القاتل واحد منهما.. أما يحيى عبد النور بركات أو بدر غانم.. ما قصَّه له بدر باليوم الأول بالتحقيق ينطبق عليه هو أيضًا.. كلاهما لديه دافع قوي للانتقام من النجمة حبيبة بعدما تركتهما وتزوجت غيرهما.. وقد تكون غادة بركات شريكة الجاني إن كان يحيى هو المجرم انتقامًا لجرحها وجرحه.. .واقتربت الحقائق من التجلِّي.

بينما كنتُ بطريقي صامتًا شاردًا أستعدُّ لمصير أبدي.. حتمًا سأعود لُمنتظَر الجحيم بأي لحظة.. لا أدري لماذا تستمر محاولاتي بالتنقُّل بين أجسادهم

اللعينة.. أنا فاشل.. لن أقوى على الإصلاح.. فلتقذفوني بالنار وحسب.. وكفاني خطايا وآثامًا جديدة تُضاف إلى قائمة ذنوبي. . كفاني دم هذا الرجل الذي خنقتُه بيدي، المدعو جاسر عبد للرسول.. لن تُخفف عقوبتي مدافعتي عن حياتي حينها.. وأيُّ حياة تلك التي دافعتُ عنها؟ أخفت أن تخرج روحي من جسد عثمان السقا الشيعي؟ إن كان أصابي الموت وأنا بالسائل الكبريتي المُذوب لكل ما فيه لكنت أموت بالخنق.. ليتني تركته وهربت! ليتني أبلغتُ عنه الشرطة! أنا قاتل.. شاب ملعون مهترئ الآمال.

كنتُ هائمًا على وجهي بشوارع القاهرة غير مدركٍ ما آلت اليه روحي من أجساد.. تجنبتُ النظر بمرايا عديدة.. زهدتُ تلك المحاولات واستسلمتُ للعنة.. ساعات وأنا على هذا الحال.. أشعر بالعطش الشديد وقدماي تُؤلمانني بشدة.. مقهى شعبي أراه قريبًا.. خطوتُ ناحيته لأطلب كوبًا من الماء.. لعلني قريبًا سأُحرمُه مُستبدلًا شرابًا من حميم وصدِّيد به.

كان تلفاز القهوة عاليًا.. جذبني صوته فنظرت إليه.. كان مراسلًا يتحدث.. راشد الغيري.. تذكرت وجهه حينما أذاع تقريرًا عن جريمة النجمة حبيبة.

- ما زالت قوات الشرطة تبحث عن البهلوان القاتل، وذلك بعد العثور على جثة المشتبه به الآخر جاسر عبد الرسول مَخنوقًا بإحدى المقابر.. وتزداد

حيرة رجال الأمن بشخصية البهلوان بعد موت المتهم الأول يحيى عبد النور بركات قبل وقوع الجريمة بثلاثة أيام ونفي الاتهام عنه وكذلك قتل جاسر عبد الرسول.

كانت صورتي تُعرض بملء الشاشة وكذلك صورة جاسر.. وقعت عيناي على مرآة المقهى حينها مذهولًا.. كنتُ أنا بجسدي.. أراني وليس بجسد آخر.. لم أدرك معنًى لذلك.. هل أرى روحي؟ أم أنني عُدت للحياة.. ولكن عامل المقهى رآني وسمعني وناولني كوبًا من الماء.. لا أفهم أي شيء.. قُطع حينها الإرسال، وظهرت مذيعة مُرتبكة، ومكتوب على الشاشة خبر عاجل:

- جاءنا الآن - أعزائي المشاهدين - نبأ عاجل.

أعلن السيد هتلر زعيم المانيا استمراره بالحرب العالمية الثانية، وعدم تقديم أي تنازلات لوأد الصراع الدائر.. كما وصل للبلاد اليوم الملك مينا مُوحِّد القطرين على رأس موكبه الملكي بعد رحلةٍ استغرقت خمسة أشهر..

صوت بائع الجرائد يَزيدُ من ذهولي:

- اقرأ الحادثة.. القبض على عصابة قتل النساء تتزعمها سيدتان، القبض على ريا وسكينه.. القبض على السفاحتين.

استكملت المذيعة أخبارها:

- مفاوضات يُجريها السيد كريستوفر كولومبوس بعد اكتشافه الأراضي الجديدة، واقتراحات بإطلاق اسم أمريكا عليها، وسُكانها من الهنود الحُمر يرفضون، وأخيرًا صرَّح السيد أبرهة الحبشي بإصراره على هدم الكعبة، وأنه لن يتراجع رغم محاولات عدة لإثنائه عن ذلك.

لفت انتباهي شخصٌ بملابس عربية يحادث مَن يجلس بجواره:

- يقولون إن هناك نبيًّا جديدًا ظهر في مكة، فماذا نحن بفاعلون يا أبا الحكم؟

ورجل آخر ينظر إليَّ متفحصًا مُحدِّثًا مَن بجواره مُشيرًا إليَّ:

- أليس ذلك الشاب هو من رأينا صورته بالتلفاز منذ قليل؟

- نعم هو بعينه مَن يقولون إنه مات.

- أمسكوه.. إنه المجرم الهارب.

حينها هُرعتُ جريًا من ذلك المقهى، وبرأسي تفسير واحد فقط.. تذكرت كلمات السلحدار بمُنتظر الجحيم:

- كلما زادت الخطايا زادت اللعنة.. اللعنة إن بلغت حدتها سيتوقف الزمن، وستتداخل الأزمنة وستهلك الأرض.. سيبقى الشَرُّ إلى ما لا نهاية وسيكبُر.

ستتداخل الأزمنة وستهلك الأرض.

ستتداخل الأزمنة وستهلك الأرض.

إنها النهاية إذًا.. نهاية فشلي بمحو اللعنة.. ستهلك الأرض لا محالة.. وهؤلاء الأغبياء الذين يتتبعونني الآن سيهلكون معها.. مصرون على اللحاق بي.. لو يعرفون الحقيقة لانخرطوا ببكاء لا ينقطع.. ألهذا الحد لا يفقهون؟ ألم يستمعوا لتلك الأخبار معي؟ وقفت سيارة أمامي يناديني صاحبُها:

- اركبْ سريعًا قبل أن يفتكوا بك.

قفزتُ إلى سيارته دون تفكير.. تتلاحَقُ أنفاسي سريعًا.. نظرتُ إلى صاحب السيارة بجواري بعدما انطلق سريعًا صارخًا:

- ستهلك الأرضُ.

حينها شُلّ لساني.. من كان بجواري هو موسى السلحدار النابش الأول لتلك اللعنة بقبر الساحر.. ماذا يعني ذلك؟

- كيف خرجتَ مِن المُنتظَر؟

- كما خرجتَ أنت؟

- أنا فشلتُ بمحو اللعنة وسنهلك جميعًا.

- اهدأ.. سأخبرُك بكل شيء.

وأُعلنت الجولة الأخيرة بذلك السباق ذي البطلين.. أنا والغندور.. كل منا يقترب لحقيقة ما قد تُغير الكثير.. ورنين هاتف الغندور يقطع شروده ببيتنا.. يخبره باقتراب الفرج.. رسالة عبر الإنترنت من رقم يجهلُه بمقطع مصور.. فتحه الغندور ليجدني بداخله أُحدِّثُه باللحظات الأخيرة للسباق:

- سيادة المقدم محمود غندور.. أعلم أنك تبحث عن حلٍّ لألغازك، إذا أردتَ معرفة شخصية البهلوان القاتل فعليك بالإسراع أنت وقُوَّتك الشرطية إلى العنوان المُرسل لك برسالتي النصية.. إنها الفرصة الأخيرة فلا تتأخَّرْ.

***

النبشة الحادية عشر: النباش

وَقَفَ السلحدار بسيارته أمام قصر بديع الطراز.. لم يُجب عن أسئلتي طوال الطريق.. فقط أراه مبتسماً مُحافظًا على هدوئه البغيض.. نظر لي بنفس الابتسامة اللعينة.

- وصلنا.. انزل.

- إلى أين؟

- سأخبرُك بكل شيء في حينه.. انزل.

خرجت من سيارته كالغارق ببحر من الأحاجي السامة التي تلتفُّ رويدًا رويدًا حول روحي وتعتصرها دون توقف.. نظرت إلى ذلك القصر العجيب المُزين بأنوار تتلاعب في وَضَحِ النهار.. وكأنها تغزو ظلامًا حالك السواد.. لافتة ضخمة بواجهته عليها مجموعة من النجوم الفنية.. ممثلو الصف الأول بالوسط الفني وسط لوحة كبيرة من الدماء المتناثرة.. مكتوب عليها «مسرحية النباش.. قريبًا» أول ليلة عرض ٢٥ يناير ٢٠١٨.. نظرت للسلحدار متسائلًا..

- ما هذا؟

- تعالَ.. تعالَ.

جذبني من يدي ووقفنا أمام بابه الفخم.. باب خشبي بديع الصُّنع.. دَفَعَه بيده لينفتح ويُظهر ما خلفه.. صوت موسيقا أوبرالية تصل لمسامعي.. صالة مسرح ضخمة وأدوارٌ عُلوية على الجانبين.. للمرة الأولى بحياتي أرى هذا المكان.. أنا المهتم بكل ما هو فني والمتنقل بين مسارح عديدة كل ليلة.. تتلاعب الإضاءة بديعة التكوين على المكان.. أمسك السلحدار يدي وترجَّل ناحية خشبة المسرح.. لم تكن فارغة.. كان عليها مجموعة كبيرة من الفتيات الراقصات.. عرض أوبرالي رفيع المستوى.. كانت الصالة فارغة إلا من شخص واحد جالس بالصف الأول مُتابعًا من كثب رقصاتهن.. وحين وصلنا لمقدمة الصالة.. انتهت رقصاتهن وظهر النجم فريد فايق.. شابٌّ في العشرينيات من عُمره يتمتع بكل مزايا النجومية منذ صِغره فهو ابن للنجم فايق عز الدين، وورث جمهوره وشُهرته بكل يُسرٍ وسهولة.. كان باكيًا متوسِّطا المسرح، وحوله الفتيات يتمايلن برفقٍ.. ملابسه كانت مبتلة.. وأنفاسه مُتلاحقة من كثرة البكاء، وأيديهن تُلامس جسده، وكأنهنَّ ينتهكن شبابه بشكلٍ استعراضي مذهل.. استمعتُ إلى حديثِه الذي بدأ للتوِّ بأداء تراجيدي منقطع النظير.

- كنتُ مشدوهًا وكأنني أول مولود خرج من رحم الجحيم هذه الليلة لحياةٍ مرهونة بصفقة حتمية لا مفر منها.. عائدًا من الموت غارقًا ببحور لعنة

لا أعرف شطآنها ولا مرساها.. متعلقًا بعرق خشبي وسط محيط حالك الظلام.. دروب جبرية عليَّ خوض معركتي داخلها، وأنا مغمى العينين دون سلاح.. معركة مستحيلة للنجاة بحياتي وحياة الآخرين ممن اقترفوا الخطايا المجهولة وأنا فقط من تتعلَّق آمالهم بي لغفرانها، والبدء من جديد هروبًا من مُنتظر الجحيم.. ذلك العذاب الهائل البغيض.. بيدي أنا إنقاذهم هم والساحر القديم.. ذلك المعلق بين الحياة والموت بلعنةٍ هو بادئها منذ آلاف السنين.. لنشكل حزبًا جديدًا لم يكن يومًا ما بهذه الدنيا منذ خلقها الله.. حزب العائدين من الموت.. الناجين من اللعنة.

لم يستوعب عقلي ما أستمعُ إليه.. هذا الحوار كان على لساني أنا بحكايتي التي لا يعرفُها غيري والسلحدار.. نظرت ناحيته بحدةٍ.

- ما معنى ذلك؟

- قصة بديعة.. أليس كذلك؟

صرختُ فيه بقوةٍ:

- كُف عن تلك الابتسامة اللعينة وأخبرني ما يدور هنا وبالخارج.

- اهدأ.. أخفِضْ صوتَك حتى لا تُفسد تدريباتهم، فالعرض المسرحي قد اقترب.

- هذا الكلام عني أنا؟

- نعم.

- كيف ذلك؟

- لأنك بطل تلك المسرحية.

- ماذا؟

- نعم أنت وأنا من أبطال هذه المسرحية.. أو لأكون محددًا معك.. نحن من أبطال الرواية

- ماذا تعني؟

- منتج هذه المسرحية البديعة هو مؤلفها وهي بالأصل رواية لم تُنشر بعد له.. فنان من طراز خاص اشترى هذا القصر، وجهَّزه للعرض كما ترى، وهناك أقاويل أنه تعاقَدَ على إنتاجها بهوليود مع نجوم عالميين.

- أي مسرحية؟ وأي رواية؟ أنا لا أفهم شيئًا.

- عزيزي يحيى، أنت مجرد شخصية بخيال المؤلف.. أخرجها على أوراقه بمنتهى الإبداع.

- ما هذا الهراء؟

- لماذا أنت منزعج لهذا الحد؟ أنت وأنا شخصيات وهمية من محض خيال المؤلف. كُنْ فرحًا فتلك المأساة التي عايشتها ليس لها وجود على أرض الواقع هي مجرد رواية.

سقطت دموعي حينها.. عجزت كلماتي عن وصف مشاعري المتناقضة وثورتي المكبوتة.. لم أجد وصفًا مناسبًا لما أُعايشه الحين.. ظَهَرَ رجلٌ طاعِنٌ بالسِّنِّ على خشبة المسرح مُربتًا على كتف النجم الباكي.

- أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصة رجل يدخل النار ويخرج منها إلى الجنة فيقول: إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة: رجل يخرج من النار حبوًا فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ وجدتُها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى له: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيُخيَّل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربِّ وجدتُها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو لك عشرة أمثال الدنيا فيقول: أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت المَلِك؟

قال عبد الله بن مسعود راوي الحديث: لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول: ذلك أدنى أهل الجنة.

يا بني إن الله غفور يحبُّ عباده ويرحمهم، وقد يُخرِجُ مِن أهل النار أُناسًا ظنوا أنهم هالكون أبدًا، وبرحمته هو فقط يدخلون الجنة بعد طول عذابٍ.

صَفَّق لهم ذلك الرجل الجالس بالصف الأول:

- رائع انتهى التدريب اليوم.. نلتقي بالغد بنفس الموعد.

بدأ الجميع بالخروج من حالتهم المسرحية وتوقفت الموسيقا.. تحركوا لكواليس خشبة المسرح وثبتت الأضواء المتلاعبة وأُنير ضوء المسرح العالي.

انتابتني حينها هيستريا من الضحك دون توقُّف..

- رواية! شخصية وهمية من محض خيال المؤلف!

واندمجت دموعي بضحكاتي وكأنني جُننت.. تركته وتحركت بطريقي للخارج مجهول الوجهة.. لا حاضر ولا ماضي ولا مستقبل.. أنا مجموعة من الكلمات على بعض الأوراق.. لستُ إنسانًا.. لستُ مخلوقًا من الأساس.. مجرد هراء.. استوقفني السلحدار:

- إلى أين يا عزيزي؟

- للعبث.

- ما زال لديك مقابلة عليك إتمامها أولًا.

- مقابلة من؟

- مؤلفك وكاتبك.

نظرتُ له صامتًا.. مَدَّ يده وسحبني إلى بابٍ جانبي بصالة المسرح.. تحركتُ معه مسلوب الإرادة.. وأي إرادة تلك لشخصية من ورق.. سلم داخلي هبطناه معًا.. ووقفنا أمام باب مُغلق وأعلاه مصباح أحمر اللون مضاء.. نظر لي حينها مربتًا على كتفيَّ.

- أراكَ على خير.

- إلى أين؟

- غير مُصرح لي بالدخول إلى هنا.. ستدخل بمفردك.. ولنتقابل مُجدَّدًا بين سطور روايته.

صافحني بنفس الابتسامة اللعينة وانصرف.. ظللتُ واقفًا لا أتحرك وكأنني جثة هامدة.. سمعت صوتًا يناديني عبر مُكبر صوت وفُتح الباب بعدها.

- يحيى عبد النور بركات.. ادخل.

خطوتُ بقدمي مشدوهًا.. رجال مدججون بالأسلحة على الجانبين.. قاعة مستديرة واسعة.. إضاءتها منخفضة.. مصابيح صغيرة بجوانبها ترسل

ضوءها الخافت وتُضفي على المكان بعض الرهبة.. كان هناك رجل يقف عن بُعد مُبتسمًا لي.. وخلفه ستائر بيضاء مُتداخلة تخفي ما خلفها.. الستائر تحيط القاعة بأكملها.. وشاشة كبيرة تصور المسرح العلوي وأمام القصر لحظة بلحظة.. اقتربت منه صامتًا حائرًا.. مَدَّ يدَه مُرحِّبًا بي.

- كيف حالك يا يحيى؟

سقطت دموعي هامسًا بابتسامة حزينة:

- يحيى؟

- يحيى عبد النور بركات.. شخصية ثرية خلقتُها بيدي.

- أنت المؤلف إذًا؟

- أنا الروائي يعقوب إدريس.. ألم تسمع عني؟

- كلا.

ضحك كثيرًا حينها.

- بالطبع لأنني أتحكَّم بما ترى وتسمع وتتذكر.. ذاكرتك وحياتك بأمري أنا فقط.

- لا أصدق أنني مجرد شخصيةٍ وهمية ليس لها وجود إلا بخيالك.

- من قال لك ذلك؟

- السلحدار.

- لا تصدق أبدًا من هو بنفس ظروفك.. لألقنك درسًا لا تنساهُ. هناك بحياتنا حقائق لا يُدركها إلا الثائرون المبتعدون.. إياك أن تستمع لأناس يعيشون مثلك بنفس الحياة.. بنفس القوانين.. بنفس الدين.. هل فكرتَ ذات مرة بالإلحاد؟

- ماذا تعني؟

- لا عليك، لا تُرهق ذهنك بحديثي. انظر.

ناولني حينها كتابًا ضخمًا مكتوبًا عليه "رواية النباش".. نظرتُ إليه حائرًا:

- أريدُ أن أفهم.

- أنت شخصية من خيالي حقًّا، ولكنني اقتبستُك من شخصٍ حقيقي بالحياة.

- لا أفهم أي شيء.

- يحيى عبد النور بركات شابٌّ بمقتبل العمر يسعى للشهرة. كان سببًا في تغيير بطل روايتي.. النباش.. جميع ما حدث لك من محض الخيال.. ولكن الشخصيات وبعض الأحداث حقيقية.

- آلام شديدة تُهاجِمُ رأسي.

- اهدأ وستفهم.. أولًا أريد أن أُعرفك إلى أبطال الرواية الحقيقيين.. مَن استوحيتُ منهم تلك القصة البديعة.

تركني وتحرك ناحية ستار خلفي.. مَدَّ يده وأمسك حبلًا رفيعًا سحب الستار، وظَهَرَ مِن خلفه.. برقت عيني من هول ما رأيت.. لم أنسَهم مُطلقًا.. ست شخصيات حُفرت ملامحهم بذاكرتي.. ضاحي سلطان ساحر الصعيد.. مارك حبيب تاجر الأعضاء البشرية.. عثمان السقا الشيعي.. شوربجي نعيم القواد.. مازن سعد المثلي الشاذ.. سيد عفيفي جبران القاتل بأجر.. هكذا قدَّمهم لي ذلك المؤلف يعقوب إدريس.. كانوا جميعًا مدججين بالأسلحة.. وكان هناك رجلان مُحكما الوثاق فوق كرسيين، ومغطيا الرأس بغطاءين سوداوين.. ابتسم لي يعقوب:

- قبلَ أن أُقدِّم لك هذين البطلين عليك أن تعرف أن هذه الرواية ستحظى بإقبال جماهيري غير عادي.. سيشيد بها النقاد بكل مكان بالعالم.. شابٌّ معلق بين الحياة والموت نتيجة لعنة، ويحاول إصلاح خطايا البشر ويفشل.. والسؤال.. هل خطايا هذا الزمن صالحة للتوبة؟ هل يمكن محو الخطايا وإنهاء لعنة الشيطان أم أنه لا مفر؟ هل نحتاج لبطل أُسطوري ليقود المسيرة كالمسيح؟ أحقًّا سيعود المسيح؟ مسيحنا أم مسيحكم؟

ضحك كثيرًا وشاركه الجميع الضحك ما عدايَ.. نظرتُ لوجوههم صارخًا وكأنني أرفضُ ذلك الواقع المرير.. أرفض كوني شخصًا وهميًّا.. أشار حينها إلى أحدهم فهُرع للإمساك بي وتوثيقي ووضع لاصق طبي على فمي.. كتم صوتي تمامًا.. اقترب مني.

- أنا خالقك الوحيد، فاستمع لما آمرك به.. أتريد معرفة القصة منذ بدايتها أم تريد رؤية البطلين.. سأختار لك.. اكشف عن غطائهما.

تحرَّك سيد جبران وانتزع الغطاء عن رأس الأول، فظهر تحته البهلوان القاتل بنفس شكله ببداية الأحداث الدامية.

- البهلوان القاتل.. سيداتي، آنساتي، سادتي.. مرحبًا بكم في فقرة البهلوان.

وأشار إلى إزالة الغطاء عن الثاني.. نزع سيد جبران غطاءه عنه.. لم أصدق ما رأيته.. وكأنني أنظر بمرآة.. شخص يتطابق شبهه بيننا.. إنه أنا.. أشار يعقوب ناحيته.

- البطل الرئيسي الذي استوحيتُ روايتي أو لنقل عدلتها من أجله: يحيى عبد النور بركات.. مَن كتبتُك بوحيه.

كان فمه مُغلقًا بلاصق طبي مثلي.. عيناه حادتان ويحاول فكَّ وثاقه دون فائدة.. استمر يعقوب بضحكاته ناظرًا إلينا.

- والآن يبدأ العرض من بدايته.. بالمناسبة.. هذا الحديث مُشفر.. لن يحدث بالرواية أو بالعرض المسرحي.. إنه فقط لكما.. يُحكى أنه ذات يوم.. كان هناك رجل يُدعى يعقوب إدريس، رجل ناقم على هذا البلد منذ صغره.. مصر.. من طردّت جده وعجلّت بموته مغتربًا عن بلده مقهورًا لمجرد أنه يهودي الديانة.. والدي علّمني كيف أكرهكم.. وحينما كبرت تعلمت العربية والإسلام لأحاربكم بسلاحكم.. تواصلتُ مع منظمات صهيونية باحثًا عن أي وسيلة للانتقام.. مذكرات جدي عن فترة رحيله جبريًا عن مصر كانت أمام عيني دائمًا.. تجرعتُ الكُره والبُغض كأسفنج لا يشبع.. وقامت المنظمات الصهيونية بتبني تلك الكراهية.. خططوا ونفذوا كل شيء.. وجئت لمصر مدّعيًا حُبًّا مزيفًا.. وبسرعة شديدة خطوتُ فوق أدباء كُثر.. ساعدوني بموهبتي الوحيدة التي ترعرعت بداخلي منذ صغري.. منذ تعلمي العربية وأنا أعشق الكتابة.. وأصبحتُ كاتبًا مشهورًا بالعالم أجمع.. واتفقت مع حبيبتي دانا شمعون على اللحاق بي بالوقت المناسب بعد اختلاق تلك القصة عن تعذيبي على يد والدي لاعتناقي الإسلام.. هي حقًّا تزوجت بغيري لبعض الخلافات بيننا، ولكننا ظللنا بأحضان بعضنا البعض سرًّا بعد ذلك.. كانت بصراع شديد بين حياتها وحياتنا معًا.. لطالما قررت الابتعاد عني، ولكن بالنهاية طلبت الطلاق، وانفصلت عن زوجها.. وخدمني

القدر بذلك لموت ابنها.. كنت طوال تلك المدة أتواصل مع الموساد بشكل سريٍّ.. خلية نائمة سيأتي وقت لتفعيلها إن لزم الأمر.. وكان لزامًا عليَّ تصدر صفوة المجتمع المصري.. وهذا ما حدث بالفعل.. وجاءت حبيبتي وقررنا الزواج، ولكن القدر باغتني بشيء لم يكن في الحسبان.. مرض قلبي دخلت على إثره بغيبوبة.. عذاب شديد عانيته بجوارها دون أن أغفل عن مهمتي الأساسية.. لطالما فرحتُ بخروج مظاهرات وسقوط قتلى.. لطالما سعدتُ باضطراب أمنكم وارتفاع أسعار كل شيء وحياتكم البائسة.. حتى جاء التكليف المُنتظر.. عمليات إرهابية ستُنفذ بنفس التوقيت بأماكن متفرقة يوم ٢٥ يناير القادم.. يوم عرض مسرحية النباش.. تفجير سفارات أجنبية أمريكية، إيطالية، ألمانية، فرنسية، إسرائيلية، بريطانية، تركية.. سبع سفارات بنفس اللحظة.بعدها تنقلب مصر رأسًا على عقب وتشنُّ هذه الدول حربًا ضروسًا عليها.. .. والخطة جهنمية.. البحث عن ٧ مسجونين عتيدي الإجرام وتهريبهم من سجنٍ ما.. أصدرت أوامري لأحد رجالي.. جاسر عبد الرسول الناقم على هذا البلد مثلي.. جنَّدوه بعد أزمة فشله بحياته العملية، وظَلَّ خلية نائمة حتى جاء التكليف.. خَطَفَ جاسر ابنة العميد فكري طرابيك مأمور سجن طره.. وتسجيل مقطع جنسي بصحبتها.. وساومنا المأمور على فضح ابنته إذا لم ينصَع لطلباتنا.. لم أتواصل معه بشخصي، ولكن

جاسر كان حلقة الوصل بيننا.. وطلب منه اختيار سبعة مساجين ناقمين على الحياة وعتيدي الإجرام، وجمعهم بعنبرٍ واحد حدَّدناه له وبليلة اتفقنا عليها هرَّبناهم.. هؤلاء السبعة.. وكان يحيى بركات أحدهم.. المحكوم عليه بالسجن بالشروع بالقتل وحاول الانتحار من قبل.. وهنا بنفس المكان كان لقاؤنا الأول.. أتذكرونه؟

أشار إليه الجميع بالإيجاب، وما زال يحيى الحقيقي يحاول الخلاص مُعلنًا رفضه لما يحدث بينما صمتُّ أنا لأستمع لتلك القصة.. استكمل يعقوب:

- الخطة كانت تسجيل مقطعٍ لكلٍّ منهم وهو يعترف بأن المخابرات المصرية ساعدتهم على الهرب، وخططت لعملية التفجيرات تلك، وأيضًا إجبار المأمور فكري طرابيك لتسجيل نفس المحتوى بأنه تلقَّى أمرًا من المخابرات العامة بتنفيذ ذلك سِرًّا.

ولكن فكري رَفَضَ ذلك وهدَّد بافتضاح أمرنا فقتله جاسر بسيارته، وألقاها من أعلى هضبة المقطم ومات مُحترقًا.. ووافق الجميع ما عدا يحيى، تظاهر بالموافقة واستطاع الهرب من هنا ليلتها.. وهُددت العملية أجمعها بالفشل.. شخص هارب يعرف كل التفاصيل، بل يعرفني أنا شخصيًّا.. تراكمت الأحداث وتطورت سريعًا.. أرسل الموساد بشكل سريٍّ مريم شاؤول المسئولة عن التصفية الجسدية بالموساد.. ولحسن حظي استدعتني

المخابرات المصرية وأخبرتني بذلك.. فهمتُ حينها أنهم قرروا تصفيتي.. وقابلتها يومها بحفل روايتي الجديدة وأخبرتني أنها بمصر لمساعدتي بعملية الموساد، ولكنني لم أصدقها، وأرسلت وراءها جاسر ليقتلها بعد أن أخبرتها أن المخابرات تتبعها وعليها الفرار منهم، وأعطيتها كتابًا به جهاز تتبُّع مخفيًا بداخله لأعرف مكانها بعد فرارها منهم، وقتلها جاسر، وبعدها تواصلت مع الموساد، وأخبرتهم أنني مسئول عن إنهاء ذلك الأمر على أكمل وجه بعدها.. وأن العملية لن تتأثر وبدأتُ أفكر ببدائل، ولكن منعني مراقبة المخابرات لي لحمايتي.. اضطررتُ لتضليلهم بأنها طلبت مني كتابة رواية عن البهلوان القاتل.. خطفتُ حبيبتي دانا للتمويه واستعطاف مشاعرهم تجاهي، وتشتيت تركيزهم، وهأنا أنجح بمخططي.. ويحيى تحت يدي هنا بعد خطف أختِه أمام الجميع، وراهنتُ على وصول الخبر ليحيى.. مؤكد كان هناك شخص يُراقِبُ أخته ويحميها.. وسأنفذ العملية بموعدها.

اقترب يعقوب مني حينها:

- ما رأيك بهذه القصة؟ أما زلتَ تفكر باللعنة وأجساد الخطائين؟

بالرواية سأترك النهاية مفتوحة.. أتذكر مشهد جزيرة الدم.. تلك نهاية روايتي، سيجري فقط بعض التعديل بقتل جاسر قبل ذلك المشهد، وتنتهي القصة بجملة الشخص الضخم المجهول المُكبل بالوثاق بتلك الجزيرة.

- واقتربَ خروجي.. يوشك العالم على استقبالي.

- أتدري مَن ذلك الرجل؟

ضَحِكَ يعقوب بهيستريا.

- معذرة.. فهناك جزء من قصتي لا يهمني شخصيًّا، ولكن يهم يحيى الحقيقي، وإكرامًا مني له قبل ذبحه بعد قليل سأخبره بها.

ترجَّل ناحية يحيى بركات الحقيقي وأمسكه من شعره بقسوة:

- حينما هربت وغافلت رجالي.. طلبتُ من جاسر مراقبة بيتك، وراهنتُ أنك ستذهب إلى هناك أو على الأقل ستُرسل من يطمئن على أختك.. خطة الموساد كانت تتضمن استخراج شهادات وفاة للسبعة مجرمين الهاربين ببلاغ للشرطة بسقوط سيارة بالنيل، وبعدها إلقاء جثث طازجة مخفية المعالم بالنيل والاتفاق مع أهاليكم بالتعرف عليكم بعد انتشال جثث غيركم وذلك لتستطيعوا الحركة بسهولة بعيدًا عن أعين الشرطة، وكذلك لزيادة ورطة المخابرات.. كل ما كان عليكم هو الظهور بكاميرات السفارات قبل التفجيرات، ثم رسال المقاطع المتهمة للمخابرات بعدها.. مقابل مليون دولار لكُلٍّ منهم، وحياة جديدة بعيدة عن هنا بالدولة التي تختارون.. عرضٌ مُغرٍ لا يُرفض.. ولكنك بعد هروبك أعجبك ذلك الجزء من الخطة،

وقررتَ تنفيذها، ولجأتَ إلى صديقك الصحفي بدر غانم.. ودخلتُما متسللين متخفيين أمام عيني جاسر الرابض أمام البيت مرتديين نقابين.. صعدتُما للغرفة العلوية وجهزتُما كل شيء، وقبلها اتفقتما مع دكتور جوزيف على تزوير شهادة الوفاة لإنقاذ يحيى من السجن.. وألقى بدر قطة ميتة متعفنة معه بدوره المياه لتجذب انتباه الجيران.. وخرج بعدها كما اتفقتما ليذهب لإبلاغ الشرطة عن مكان يحيى ليأتوا ويجدوه ميتًا بحضور جوزيف المُعلن عن موته قبل ثلاثة أيام.. ولكن بدر استغل ذلك بحرفية شديدة.. أتدري كيف؟

قالها ناظرًا له.. أشار بعدها لسيد جبران.. توجَّه سيد للبهلوان، ونزعَ شعره المستعار ومَسَحَ علامات وجهه وطلاء البهلوان.. وكانت المفاجأة.. البهلوان هو بدر غانم..

برقت عينا يحيى وكفَّ عن المقاومة.. استكمل يعقوب:

- ترك صديقه يتظاهر بالموت وخرج بالنقاب.. ساور جاسر الشك لخروجه بمفرده.. سيدتان منقبتان دخلتا معًا مكثت واحدة وخرجت الأخرى.. ما معنى ذلك.؟ تفسيره أن الباقية بالداخل هي مصدر الشك.. ولكن لغباء جاسر قرَّر تتبُّع الأخرى بدراجته البخارية.. وصل بدر لسيارة ببداية الحي واستقلها.. وقف بعدها بالطريق وقام بتغيير أرقام سيارته بلوحات أخرى.. مما زاد الشك بصدر جاسر.. بعدها ترك سيارته ودخل

دورة مياه بأحد المطاعم، ومكث نصف ساعة بدورة المياه، وخرج بعدها بنفس نقابه.. وقبل فيلا حبيبة توقف وخلع نقابه ليكشف عن البهلوان القاتل.. توقَّع جاسر حينها أنه يحيى متنكرًا.. تسلق أسوار الفيلا مُراقبًا إياه.. وشاهده وهو يهجم على حبيبة ويُحكِمُ وثاقها.. حبيبة التي تركتهُ بعدما ترك غادة حُب عُمره لإغراءاتها بالمال والشهرة.. ضاع منه كل شيء، فتوعَّدها ووجد الفرصة مناسبة حينها لإلصاق التهمه بصديقه ثم نفيها عنه بموته.. ولكن جاسر لم يتمكن من الإمساك به وغاب عن الوعي، وحينما أفاق وجدها مذبوحة بجواره.. خاف من عقابي فقرَّر إحضار هدية لي.. قلب حبيبة لأستخدمه لحبيبتي.. جاهل بعلوم الطب على الرغم من تفوقه بدراسته.. ولكن الفكرة أعجبتني.. البحث عن قلب آخر لنقله لحبيبتي دانا.. ولذكاء بدر غانم سرق الخزينة لتضليل الشرطة وإعطاء الجريمة أبعادًا متعددة.. وللحق ساعدته بذلك.. أرسلتُ أسطوانات جنسية كانت معي لحبيبة مع بعض الشخصيات العامة.. لا تتعجب، فالجنس سلعة نستخدمها أحيانًا وقت اللزوم، وقد نسجل لك حياتك الجنسية دون أن تدري. بعدها وعدتُ جاسر بالهروب خارج البلد بعد تنفيذ تلك العملية الخاصة بالتفجيرات، ولكنه ابتزني للحصول على أموال أخرى... طلب عشرة ملايين دولار وإلا أبلغ عن العملية بأكملها.. ولذلك استحقَّ جزاءه، وقبل أن تسألني بعينيك

كيف عرفت كل ذلك؟ حينما أرسلت رجالي لخطف غادة كنتُ أبحثُ عن أي شيء يدلُّ عليك، أي ورقة أو خطاب أرسلته إليها.. فوجدتُ صورًا احتفظت بها بصندوقها الصغير.. صورًا لها مع بدر، وصورًا لبدر مع حبيبة.. فتوقعتُ أن بدر يعرف مكانك فأرسلت لإحضاره هنا وقمت معه بضيافة إجبارية تستطيع رؤيتها على وجهه.. للحق عرض عليَّ تسليمك مقابل مبلغ من المال، ولكن أزمته كانت في كيفية التواصل معك.. قال إنك اختفيتَ بعد إخراجك من القبر ليلة دفنك بعد مشادة بينكما وتعجبك من ذكر اسمك بقضية حبيبة وشكك أنه وراء ذلك.. للحق صديق مخلص للغاية..

نَظَرَ يحيى الحقيقي إلى بدر بحدة وكأنه يريد البصق بوجهه، في حين تحرك بعدها يعقوب ناحيتي نازعًا الغطاء من فمي.

- أتعرف يا عزيزي أن تعداد اليهود بالعالم ١٤ مليون نسمة تقريبًا.. وتعداد المسلمين مليار ونصف المليار.. هل تذكرون الزمن الذي كان المسلمون يحكمون فيه العالم؟ هذا الزمن مضى وولَّى.. الحكم لنا اليوم.. لو تقرؤون التوراة بسفر التكوين.

«أعطي لك ولنسلك من بعدك أرضَ قريتك.. كل أرض كنعان ملك أبديّ.. نحن شعب الله المختار.. ونستحقُّ ذلك.. أنتم العرب لا تقرؤون، وإن قرأتم لا تفهمون.. بالمناسبة هناك معانٍ بالرواية لن يفهما غيرنا.. نحن

بنو صهيون كما تطلقون علينا.. الساحر القديم مثلًا هو الحلم الغائب بإمبراطوريتنا التي ستملأ الأرض قريبًا على جثثكم.. الكتاب الملعون هو القرآن وسيأتي يومٌ سيُحرق بقلوب الجميع، وتبقى التوراة فقط.. هذه الخطايا بالرواية نحن من زرعناها بكم، وعملنا على نُموِّها وتكبيرها لتلتهمكم جميعًا.. السحر.. القتل.. الشذوذ الجنسي.. الطائفية الدينية.. البغاء.. التطرف الإنساني.. خطايا تستحق اللعنة.. وإسرائيل مصدر لعناتكم.. لعنات تدبُّ الحياة بقلب الصهيونية.. أنتم كسالى لا تستحقون العيش معنا.. نحن أولى منكم بالحياة.. ألمع الأسماء في التاريخ يهود.. ألبيرت أينشتاين.. سيجموند فرويد.. كارل ماركس.. أهم الابتكارات الطبية ليهود.. مخترع الحقنة الطبية.. لقاح شلل الأطفال. مخترع دواء اللوكيميا.. مخترع الغسيل الكلوي.. أهم الاختراعات.. ساسة وأصحاب القرار بكل مكان بالعالم.. إعلاميون مؤثرون.. فاز بجائزة نوبل في مائة عامٍ مائةٌ وثمانون يهوديًّا.. أنتم لا تمتلكون القدرة على صنع المعرفة أو نشرها، أنتم تستهلكون فقط.. وهلاككم آتٍ لا محالة.. لا تنزعج يا عزيزي، فأنت وزملاؤك المجرمون معنا.. دعني أخبرك بشيء.. حكايتك بالرواية خيالية، ولكن بها بعض الأحداث الحقيقية كما قلت لك.

جريمة حبيبة حقيقية.. تفجير مصنع الحديد والصلب كان حقيقيًّا.. سيد جبران هو مَنْ وضع القنبلة بمكانها بنفس الطريقة التي عايشتها أنت

بالرواية، وترك هاتف جاسر لتوريطه أكثر وأكثر.. وكذلك قتل جاسر كان حقيقيًّا.. فقد قتله عثمان السقا وفَرَّ هاربًا.. هل لديك تعقيب ما؟

- لم أرَ بحياتي من هو أسفل وأحقر منك.

حينها صفعني بقوة شديدة وبحدة متناهية.

- تأدَّب مع خالقك.. ستنفذ ما آمرك به حتى لو حاولت الرفض فلن تستطيع، بجرَّة قلم أُنهيك محروقًا أو مذبوحًا، وقد أجعلك مُنتحرًا بكلتا يديك.. ستكون أنت السابع بعمليتي بدلًا من يحيى، وستُنفذ كما أريد وبعد ذبحه أمامك بعد قليل ستُصبح أنت يحيى الوحيد، ولا تشغل بالك بمقطع مأمور السجن، فنحن نُخطط لحلٍّ سريع لذلك.. ربما أرسلك لتسجل مقطعًا جديدًا لابنة المأمور الجديد أو لزوجته.

استمرَّ بضحكاته ووضع اللاصق الطبي مرة أخرى على فمي.. وأشار إليهم فتحرَّك سيد جبران وأزال اللاصق الطبي من فم يحيى الحقيقي وفم بدر غانم.. ضحكات يعقوب متتالية لا تتوقف كالمجذوب.

- هيا أسمعوني عتاب الأصدقاء.

صرخَ به يحيى حينها..

- أين غادة أيها الوغد اللعين؟

- أحضروا له أخته.

تحرَّك سيد جبران بصحبة مارك حبيب واختفيا وراء الستائر، في حين أمسك يعقوب (ريموت) بيده مُوجِّهًا إياه نحو الشاشة.. دخل الاثنان يجرَّان ترولي مسطحًا وعليه مجموعة أكياس.. كان مارك يضحك بشدة.. نظر يحيى تجاه تلك الأكياس وأدرك ما بها.. صرخ عاليًا بهيستريا متناهية.

- غاااااااااااااادة.

ضحكوا جميعًا دون توقُّف.. قاطعهم يعقوب:

-الدنيا تُغرقها خطاياكم؛ ولذلك تستحقون جهنم بجدارة.. فلنشرب نخب جهنم.

رفعوا كؤوسهم بعدما صَبَّ لهم سيد جبران من زجاجة خمر كانت معه..

- كما ترى يا عزيزي، فقد انتزعت قلب أختك لتُجرى الآن عملية جراحية دقيقة لحبيبتي دانا.. ها هي تظهر على الشاشة.. أتمنى أن ينعم قلب أختك بحياة سعيدة بصدرها.

أدار الشاشة مرةً أخرى للمسرح العلوي الفارغ تمامًا أمام القصر.

- وغد حقييييييير.

- فليُطلق سيد جبران نيرانه بصدور الاثنين بآن واحد.. هيًّا.

قالها يعقوب آمرًا جبران.. انتهى كل من بالقاعة من شُرب أنخابهم.

حينها نطق بدر غانم لأول مرة ضاحكًا:

- رغبة أخيرة قبل الموت، أتسمح لي بها؟

- فلنستمع.

- نهايتُك سيئة وتقليدية.. أنا أرى غيرها أفضل.

- حسنًا.. أخبرني بها.

- الخزينة التي سرقتها من فيلا حبيبة لم تكن خاوية.. لحُسن حظي وجدتُ فيها سبائك من الذهب الخالص يُقدر ثمنها بسبعة ملايين دولار تقريبًا، وهذا المبلغ الضخم هو أجر سيد جبران ليساعدني على تغيير النهاية.

- ماذا؟

- الخمر الذي تناولتموه به مُخدر للأعصاب سريع المفعول يجعلك تشعر بكل ما حولك، ولا تقوى على الحركة.. أرى ذلك الآن.

كانوا يتساقطون جاحظي الأعين، وتتساقط أسلحتهم من أيديهم.. وكان سيد جبران واقفًا مبتسمًا بينما يعقوب مبرق العينين، مُلقى على الأرض لا يتحرك، ولكنه يستمع لكل شيء حوله.

- ما يُشترى بالمال يُباع أيضًا بالمال.. الوقت الذي عذبني فيه جبران ليحصل على اعترافاتي كان كفيلًا بإغرائه بسبعة ملايين دولار مقابل ما تعايشونه الآن.. أولًا.. فك وثاقي أنا وصديقي يحيى.

حينها توجَّه جبران لفكِّ وثاقهم.. كان يحيى منهارًا باكيًا.. استكمل بدر:

- ثانيًا.

أشار حينها إلى جبران، فتحرَّك خلف ستائره، وخرج بصحبة غادة، فهُرع يحيى مُتفاجئًا بها، واحتضنها صارخًا فَرِحًا:

- غااااااااااادة.. أنت بخير يا حبيبتي.. حمدًا لله.. حمدًا لله.

كانت هي الأخرى تبكي دون كلمةٍ واحدة.. فقط ارتمت بأحضانه غير مُصدِّقةٍ أنه ما زال حيًّا.

- جعلت سيد جبران يمهد لها أنك ما زلت حيًّا يا صديقي.

أعلمُ أنني بلا مبادئ ولكنني أحببتكما كثيرًا.. عشقتكما لطيبة قلبيكما وندرة أخلاقكما.

نظر بدر بتحدٍّ إلى يعقوب مبتسمًا بانتصار:

- من ذُبحت وقُطعت هكذا هي حبيبتك دانا شمعون، ومن تراه على شاشتك مقطع مُسجَّل،

ما رأيك؟ ألستُ بارعًا بتغيير النهايات؟

ضحكات هيسترية انتابت بدر غانم راكلًا يعقوب بقدمه بقوة شديدة..

-ثالثًا وأخيرًا.. حريق هائل بمسرح يعقوب إدريس مات على أثره مُحترقًا هو وبعض من رجال أمن المسرح.. وهكذا لا يُهزم الشَّرُّ إلا بالشَّرِّ بهذه الدنيا.

كان يعقوب كالمشلول يصدر صيحات مكتومة هو ورجاله، قابَلَها بدر بضحكات متعالية قطعها شيء واحد عكَّر صفو نهايته.. قوات شرطية وعربات أمن مركزي تصل للمسرح، ويحاوط المكان بأكمله.. يبدو ذلك واضحًا بالشاشة الكاشفة أمام القصر.. نظر بدر مذهولًا إلى يحيى..

ابتسم له يحيى:

- عُذرًا يا صديقي، فقد أرسلتُ لمحمود غندور رسالة بمكاني هنا قبل مجيئي لإنقاذ غادة، ومنذ دخولي لهنا وأنا أنقل كل شيء يجري بالصوت من خلال هاتفي المحمول المُخبَّأ بسروالي قد انشغلوا بإحكام وثاقي دون تفتيشي.. ثلاثة أيام وأنا في حيرة: هل أُبلغ بما أعرف وأتعرض لعقوبة على

جريمة لم أرتكبها أم أهرب وأعيش مُعذَّب الضمير بمصير بلادي؟ ولكن الله يفعل ما يريد.. .. عُذرًا فهذه نهاية ثالثة.. يُهزم الشر بالخير دائمًا وأبدًا.

حينها وجَّه سيد جبران سلاحه الناري نحوي وبغمضة عين قفز بدر غانم تجاهي فتلقى رصاصاته بصدره بدلًا منا.. مددت يدي حينها، وجسده يحميني، وأمسكت سلاحًا ناريًا كان بالقرب مني والواقع من أحد رجال يعقوب، وصوَّبته تجاه جبران لأُصيبه بصدره ليسقط ميتًا في الحال.

وصل حينها الغندور ورجال الشرطة حولنا.. احتضنت بدر وهو يفارق الحياة ناظرًا الي مبتسمًا:

- سامحوني.

ومات بدر غانم.. مات البهلوان القاتل.. وانتصر الحق على الباطل.. وكُشفت ملامح المؤامرة بأكملها.

***

النبشة الأخيرة: مصر الحياة

جلستُ أنا ويحيى أمام تلفاز غرفته العلوية.. أنا الشخصية المخلوقة بخيال يعقوب وهو الشاب الخارج من أزمةٍ غيَّرته تمامًا.. وهديل الحمام يتعالى حولنا بهذه الساعة الصباحية.. والمُراسل راشد الغيري يُذيع الفصل الأخير بالقضية التي حيَّرت الرأي العام.

- هذا وقد أُغلقت القضية بعد موت الجاني بدر غانم، وأُحيلت أوراق كل من يعقوب إدريس وعثمان السقا ومارك حبيب وضاحي سلطان وشوربجي نعيم ومازن سعد لفضيلة المُفتي بتهمة الجاسوسية والتآمر لزعزعة أمن الوطن واستقراره.

نظر يحيى ناحيتي أنا قرينه المخلوق مبتسمًا:

- ليست سوداء كما كنا نتخيَّل.

- ما هي؟

- الدنيا.. لُعبة قوامها البشر.. هازم ومهزوم.. اختبار عسير يجتازه الخيرون.. دائمًا هناك أمل.. الدنيا بما فيها.. غواية تُبهر الناظرين.. تخدعك بجنةٍ زائفة على أرضها بينما هي مجرد محطة بداية وجنة الله يحصدها أصحاب النيات الطيبة.. ظننت بالماضي أنها للأغنياء وأصحاب النفوذ فقط، ولكنني اكتشفتُ أنهم مُعذَّبون بخطاياهم، مسلوبو راحة البال التي نشعر بها الآن..

ومع كُلِّ ما مررنا به من شرور ومكايد كتب الله لنا النجاة.. لسبب واحد فقط.. نيات الخير.. مُدَّ يدك، وانزع ذنوب غيرك.. ارفضها.. حاولْ تغييرها ولو بنظرة عين رافضة.. ما زال الخير هو الفائز بذلك العالم المليء بالشر.

التهمَ رغيفًا من الجُبن أمامه مبتسمًا لي:

- كل طعامك، فغادة لم تنتهِ من إعداد غدائنا بعد.

نظرتُ إليه شاردًا بحديثه المتفائل.

- أتدري مَن البهلوان الحقيقي؟ أظن أنه يعقوب إدريس، وما يمثله من طائفة.

كان أمامنا شيء آخر.. تلك الرواية المُعنونة بالنباش.. أمسكتها بين يدي متسائلًا:

- ماذا سنفعل بهذه الرواية؟ أنبيعها لبائع الفول والطعمية؟

- كلا، سننشرها مع تعديل نهايتها.

- أي تعديل؟

- أن النباش يُمكن أن ينتزع الخطايا، وقد ينجح بتطهير المجتمع.. فقط عليه المحاولة.

- كيف؟

- سنُدوِّن كُلَّ ما حدث بمشهد النهاية الحقيقي ونختمها ببعض من قصيدة شعرية أحفظها لنزار قباني.

نَهَضَ من مكانه، ووقف بنافذة غرفته ناظرًا لـ(غية) الحمام مُستبشرًا:

«لن تجعلوا من شعبنا

شعب هنودٍ حمر..

فنحن باقون هنا..

في هذه الأرض التي تلبس في معصمها

أسورةً من زهر

فهذه بلادنا..

فيها وُجدنا منذ فجر العمر

فيها لعبنا، وعشقنا، وكتبنا الشعر

لأن موسى قُطعت يداه..

ولم يعد يُتقن فَنَّ السحر..

لأن موسى كُسرت عصاه

ولم يعد بوسعه شَقَّ مياه البحر

لأنكم لستم كأمريكا.. ولسنا كالهنود الحمر

فسوف تهلكون عن آخركم

فوق صحارى مصر».

ابتسم لي والدموع بعينيه.. دموع تجدها بعيني أي وطني يعشق تراب هذا الوطن.. فلتبقَ مصر هي جنتنا.. فليبقَ الخير في هذه الأمة.. فلتبقَ مصر هي الحياة.

حينها ظهر مذيع الأخبار بالتلفاز قاطعًا تلك الطاقة الإيجابية التي يعتنقها يحيى:

- جاءنا الآن - أعزائي المشاهدين - نبأٌ عاجلٌ، أعلن السيد هتلر زعيم المانيا استمراره بالحرب العالمية الثانية، وعدم تقديم أي تنازلات لوأد الصراع الدائر.. كما وصل للبلاد اليوم الملك مينا مُوحِّد القطرين على رأس موكبه الملكي بعد رحلةٍ استغرقت خمسة أشهر.

نَظَرَ بعضُنا إلى البعض مشدوهين، جاحظي الأعين، وبآن واحد وقعت أعيننا على تلك الرواية الماكثة أمامنا «النباش».. وسؤال واحد نطقنا به معًا:

- هل تلك اللعنة حقيقية؟ أحقًّا ستهلك الأرض؟

تمت بحمد الله

إلى اللقاء في الجزء الثاني

د. عمرو البدالي

١٥/ فبراير/ ٢٠١٨